إخوان الصفاء

تأليف

د.عمر الدسوقى

الكتاب: إخوان الصفاء

الكاتب: د.عمر الدسوقى

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الدسوقى ، عمر
إخوان الصفاء/ د.عمر الدسوقى.
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٣٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٩ – ٥٥٧ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤١٥٦ / ٢٠٢٢

إخوان الصفاء

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

لايزال تراثنا الإسلامي في حاجة ماسة إلى أن يدرس درسًا منظمًا، وتُحقَّق موضوعاته بطرق البحث الحديثة، وتعقد بينه وبين الفكر الأوربي موازنات تكشف عما فيه من ثروة علمية، وتبين مبلغ تأثر الغرب به وسيره على مناهجه.

وبعض ما دُرِس يحتاج إلى عرض جديد في ثوب جذاب، يشجع جمهرة القراء من أبناء الأمة العربية على معرفة ماضيهم، وما خلفه آباؤهم من كنوز ثمينة، وكيف عانوا وجدّوا في أن يتركوا للإنسانية ذخيرة دسمة من المعارف والعلوم هدتها ردحًا طويلًا من الزمن، حتى بنى عليها من جاء بعدهم ما بناه، فكانوا بعملهم هذا خير مشجع لركب الإنسانية على المضي في سبيل التقدم والرقي.

فبهذا النوع من الدراسات تؤدى أجل خدمة في إحياء تراثنا العربي ونشره. فما يحز في النفس أن تظل عالة على غيرنا من الأمم حتى في مسائلنا الخاصة وتحقيقها؛ فقد سبقنا المستشرقون إلى الكشف عن نفائس ما تركه العلماء المسلمون، وتناولوه بالبحث الدقيق.

و"إخوان الصفا" من هؤلاء المفكرين المسلمين، الذين لم يكد يعنى بهم أحد من المحدثين من علماء الشرق العناية التي يستأهلوها، مع أنهم في الطليعة من حيث ثقافتهم الواسعة، وتبسيطهم لعضلات الفلسفة، وتناول المسائل الفلسفية بفكر إسلامي يحاول المزج بين العقيدة والفلسفة والتوفيق

بينهما، حتى لا يتعارض الدين الذي آمنوا به وأحبوه بالفلسفة التي أغرموا بها ووجدوا فيها غذاءً لعقولهم. وقد تبعهم في هذا معظم من جاء بعدهم من فلاسفة المسلمين.

وإليك مثلًا المقدمة التي كتبها لرسائلهم المرحوم زكي باشا. فقد جانب في كثير من مواطنها المنهج العلمي السليم، ومعظم ما وصل إليه من نتائج لا يطمئن إليه التحقيق الصحيح كما سنبين ذلك في موضعه.

أمَّا المستشرقون فقد أكثروا من الكلام عنهم في مقالات قصيرة، ولكن كان لهم في كثير من المسائل آراء خاصة تشبعوا بها، وأخذوا يبحثون على ضوئها؛ فأفسدت أحكامهم، ومن هؤلاء الذين أغرموا بإخوانالصفا والبحث عنهم، والكشف عن غاياتهم ومذهبهم "كازانوفا" المستشرق الفرنسي وله في المجلة الأسيوية أبحاث عديدة في هذا الموضوع تناولها جميعًا بالتمحيص والتحقيق، وقد تبين أن كثيرًا منها تحتاج إلى المراجعة، وإعادة النظر وتعديل الحكم. ومنهم "ديبور" في دائرة المعارف الإسلامية، وفي كتابه "تاريخ الفلسفة في الإسلام"، و"كارادى" في كتابه "مفكرو الإسلام" و"مكدونالد "في العقائد الإسلامية.

ولإخوان الصفا آراء في التربية لم يعرض لها أحد من مؤرخي التربية عند العرب، وإنما أشاروا إليها إشارات عابرة دون أن يقفوا ويوضحوا هذه الآراء، ويوازنوا بينها وبين الآراء الحديثة في التربية.

ولهذا كلُّه كان البحث في (إخوان الصفا)، وتحقيق أسمائهم، و زمانهم، ومكانهم، و نظام جماعتهم، وغايتهم، وانتسابهم إلى الشيعة الباطنية، أو

عدم انتسابهم إليها، ورسائلهم، وفلسفتهم، وآرائهم في التربية، بحثًا شاقًا لم يمهد له إلا بهذه المقالات المبتورة التي سبقت الإشارة إليها، لذلك وجدت أنني أمام معضلة عويصة، وخاصة أن إخوان الصفا قد ألقوا ظلًا ثقيلًا وأشاعوا الغموض والإبهام على شخصياتهم وأغراضهم، وأكثروا من الرموز والكنايات في رسائلهم، وإن رسائلهم ضخمة تجمع أشتاتًامن العلوم في غير اتساق، وهم كثيرو الاستطراد يتعبون من يجاريهم في أفكارهم.

ولم أجد بدًا من قراءة الرسائل أكثر من مرة، استشف ما بين سطورها. وأنقب فيها عما أخفوه من آراء، وما رمزوا إليه من أمور هامة تبين مقصدهم وهدفهم من تأسيس جماعتهم. فالرسائل كانت أعظم مرجع لجأت إليه في هذا البحث، الذي أقدمه بين يدي قراء العربية، وقد أيدت الأحكام التي وصلت إليها بالنصوص وبذلت قصارى جهدي في أن أثبت النصوص دون تغيير فيها، لعل القارئ يستعين بها على فهم مالم أستطع إدراكه منها.

ولقد عانيت كثيرًا في تحقيق مذهب إخوان الصفاء، ولم أستطع آخر الأمر إلا أن أصدر حكمًا أدى إلى اليقين،بأنهم ينتمون إلى طائفة الإسماعيلية من الشيعة الباطنية.

وأرجو أن أكون قد وفقت في إعطاء صورة واضحة عن جماعة مشهورة من مفكري الإسلام، لايزال في زماننا من يعتز بآرائهم ورسائلهم، ويعتقد أنها من تأليف أحد الأعلام من آل البيت، عن جماعة حاولوا عن طريق الفكر أن يقوضوا عرش العباسيين متخذين الفلسفة مطية أهم آرائهم

السياسية والدينية، عن جماعة حاولت أن تخلط الدين بالفلسفة فما استقام لهما الدين، ولا استقامت لها الفلسفة.

هذا ولا أعتقد أن البحث في (إخوان الصفا) قد تم، وما كتابي هذا إلا مفتاح لمن يريد أن يوفي الموضوع حقَّه، ويستقصي رسائلهم بحثًا ودراسةً، ولعل الأيام تهيئلنا من يقوم بهذا والله الموفق إلى الصواب.

عمر الدسوقي
جمادي الآخرة سنة ١٣٦٦
أبريل سنة ١٩٤٧

الفصل الأول

الحالة السياسية في القرن الرابع

-١-

تمهيد تاريخي:

تاريخ أي شخصية مهما عظم نفوذها، وقوى تأثيرها فيمن حولها، وأثرها في زمانها، متأثرة بالعصر الذي عاشت فيه، وبالبيئة التي أحاطت بها، و بالأحداث التي ساعدت على ظهورها. وكذلك تاريخ أي جماعة بالغة ما بلغت من السيطرة المادية والمعنوية على جيلها؛ فإنه وليد سلسلة متصلة من الحوادث والأسباب التي تؤدي إلى نتائج معينة، ولا يجوز بأيحال أن ندرس شخصًا تاريخيًا، أو جماعة لها أثرها ونتائجها، دون أن نلقي نظرة – ولو عابرة – على البيئة التي نشأ فيها هذا الشخص أو هذه الجماعة.

فالكائن المستقل عما قبله وما بعده، والذي لا يتأثر بشيء مما حوله ولا يتأثر شيء مما سبقه أو أحاط به، لا عهد للعالم به حتى اليوم؛ فالمصادفة محال، ولا يوجد في هذا العالم شيء إلا وهو نتيجة من جهة وعلة من جهةٍ أخرى، نتيجة لعلة سابقة، وعلة لرأي يتلوه. ومهمة المؤرخ الكشف عن هذه العلل، وما بينها من صلات، وما ترتب عليها من آثار، وبذلك يتضح من التاريخ صوره الغامضة، ويلقي ضوءً نفاذًا على الأحداث المهمة التي دقت أسبابًا وخفيت العوامل التي أنتجها.

وظهور "إخوان الصفاء" ليس بدعًا في التاريخ، فهم نتيجة لازمة أو ثمرة ناضجة الطائفة من العلل والأسباب، اشتركت وتضافرت على ظهورهم وتكوين عقليتهم وتحديد أهدافهم.

كانت الدولة الأموية عربية النزعة والطابع، وبالرغم من خضوع كثير من الشعوب الإسلامية غير العربية، ذات التاريخ الحافل، والحضارة القديمة لها، فلم يمن بنو أمية بغير العرب، فمنهم كان الولاة والقواد ورؤساء الدولة، ولهذا كره الموالي حكمهم وعملوا على إسقاطهم، وكانوا معاول هدم في أيدي أعداء بني أمية.

وكان العلويون وشيعتهم أعظم أعداء الأمويين خطرًا وقوةً، فالخلاف بينهم قديم منذ علي ومعاوية، وقد اضطهد الأمويون بني هاشم جميعًا، وعمل هؤلاء على تقويض دولة بني أمية، وكانت الدعوة أول الأمر لآل البيت دون تخصيص بعلوين أو عباسيين، فلما تنازل أبو هاشم بن مُحَمَّد بن الحنفية زعيم الحزب الكيساني[1]إلى مُحَمَّد بن عبد الله بن عباس، قوى الحزب العباسي واشتد ساعده بسبب هذا التنازل؛ ولكن أبا مسلم في خراسان –وهو من المتعصبين للعباسيين– كان يدعو إلى آل البيت من غير تعيين، وانتهى الأمر بتغلب العباسيين وتولية أبي العباس السفاح الخلافة بمؤازرة الفرس بخاصة و الموالي بعامة. وكان أبو العباس بارًا بآل علي، قربهم وأغدق عليهم الأموال، ولكنه كان يخشاهم ويرقبهم عن كثب، ويغرى هم من يحصي علهم أخطاءهم، ويعرف خبيئة نفوسهم، فلما مات وتولى

---

[1] الشيعة الكيسانية. نسبة إلى المختار بن أبي عبيد، وكيسان لقبه، وكان قد خرج يدعو إلى مُحَمَّد بن الحنفية بن على بن أبي طالب.

الخلافة أبو جعفر المنصور أيقن العلويون أن لا أمل لهم في الخلافة، وأن العباسيين قد استأثروا بالملك؛ فخرج مُحَّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية على أبي جعفر المنصور بالمدينة وغلب عليها، حبس المنصور أباه عبد الله، وأهله من بني الحسن في سجن الكوفة –وقد ماتوا فيه– ووجه إليه جيشًا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى، ولما أراد إنفاذه بجيشه، قال له عيسى: شاور عمومتك يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: امضِ أيها الرجل، فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا، فسار وسار معه الجند، وقال المنصور حينئذٍ: "لا أبالي أيهما قتل صاحبه"؛ لأن عيسى كان ولي عهده، وكان المنصور يريد تنحيته وتولية ابنه المهدي.

وكانت الغلبة لجيش المنصور، فقتل النفس الزكية، وحمل رأسه إلى المنصور سنة (١٤٥هـ)فكانت هذه الحادثة إنذارًا بالغًا للعلويين وشيعتهم، بعهد طويل من الاضطهاد الشنيع دونه ما لاقوه في عصر بني أمية.

استعان العباسيون في تقويضهم الدولة الأموية، وتشييد ملكهم بالفرس، وخدعوا العامة منهم بدعوتهم لآل البيت دون تخصيص، وانفرادهم بالملك دون آل علي، ثم أخذوا في اضطهادهم. كان لهذين الأمرين: الاستعانة بالفرس، واضطهاد العلويين، أثر عظيم في تاريخ الدولة العباسية، لم تظهر نتائجه وتنضج ثماره إلا في القرن الرابع الهجري.

أقام العباسيون دولتهم على غير أساس ثابت؛ لأنهم تنكروا للعرب، ولم يعتمدوا عليهم مع أنهم ركنهم الذي إليه يأوون، وشجرتهم التي بها

يستظلون؛ واصطنعوا الفرس، وركنوا إليهم، والفرس أمة موتورة غُلبت على أمرها منذ الفتح الإسلامي، وقنت شخصيتها في الدولة العربية، وذهبت حضارتها وامتزجت بالعمارة الجديدة، وكلما تذكرت ماضيها عصر الحقد والضغن قلبها، فكان خطأ بالغًا من العباسيين أن يركنوا إليهم ويملكوهم أمور الدولة، ويظهروا الجفاء والقلى للعرب.

فلما لم يعد للعرب من الأمر شيء، ولم يعد منهم ولاة الأمصار وقواد الجيوش، وعمال الخراج، ورؤساء الدولة، انصرفوا إلى طلب المعيشة، ولاسيما هؤلاء الذين يعيشون في الحواضر الكبرى؛ ثم فنيت شخصيهم في سواهم، وتقلص نفوذهم على مر الأيام، بينما استبد الفرس يشنون هذه الدولة فسيحة الأرجاء، وصبغوا الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية بصبغهم، وأظهروا كامن حقدهم وكيدهم للدولة الجديدة والدين الجديد؛ تمثل هذا في أشعار الموالي، وفي فرق الزنادقة، وفي الثورات المختلفة بأطراف الدولة، وباستئثار الوزراء من الفرس بشئون الملك، حتى أصبح الخليفة لايركن إلى أحد من جنده، ولا يثق بأحد من أعوانه؛ ولا يثق بالعرب لأنهم متهمون بحب بني أمية، ولا يثق بالفرس لأن ميلهم إلى الاستئثار بالملك قد ظهر.

فداوى المعتصم بن الرشيد هذه الغلطة الشنيعة بغلطة أخرى أشنع منها،إذ اصطنع جندًا من الترك يعتمد عليهم ويعتز بهم، فطعن بذلك الخلافة العباسية طعنة نجلاء عجلت بضعفها ثم بزوالها، وكان أول مظهر لهذا الضعف قتل المتوكل.

استبد هؤلاء الأتراك بالخلفاء، يولون الأحداث منهم، ويصرفون شئون الدولة كما يشاءون، ثم يعزلوهم، ويقتلوهم ويمثلون بهم، ويولون غيرهم؛ حتى ذهبت هيبة الخلافة من النفوس، وأحس ولاة الأمصار ضعف الخلفاء الشديد، وعجزهم عن السيطرة على أطراف الدولة المترامية، فطمع كل منهم فيما تحت يده

فاستقلت عدة ولايات، حيث إن كل أمير طمع في أن يقره الخليفة على ولايته حتى يكون سلطانه على الناس مشروعًا، وكان الخلفاء لا يجدون مندوحة أمام الأمر الواقع إلا الموافقة والرضا، حرصًا على أن تبقى أسماؤهم على ألسنة الخطباء في الجمع والأعياد.

وما أن أتى القرن الرابع الهجري إلا وقد بلغت الخلافة من الهلاك والضعف، وأمور الناس في بغداد وما حولها من الفساد والانحلال مالا مزيد عليه.

جاء القرن الرابع و المقتدر خليفة على المسلمين، وكانت أيامه شر أيام على الدولة العباسية؛ لأنه حكم فيها النساء والخدم، وبذر في الأموال تبذر فظيعًا، وكان الوزراء يولون ويعزلون بمقدار ما يقدمون من الرشوة الخليفة ولأمه ولقهر مانته ولخدمه، ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على ما دفعه، فكان جل همَّ الكثيرين منهم أن يسدوا حاجتهم أولًا ثم حاجة من ولاهم، ولا يسألون بعد هذا أجاءت الأموال من ظلم أو عدل، وهذا لعمري نهاية الفساد، وإشارة مؤذنة بخراب الدولة.

وأخيرًا جاءت الضربة القاضية في سنة (٣٣٤ هـ) حين دخل أحمد بن بويه بغداد غازيًا فاتحًا، والخليفة المستكفي بالله بها، فقابله الخليفة واحتفى به، وبايعه أحمد، وحلف كل منهما لصاحبه، هذا بالخلافة وذلك بالسلطنة، وفي هذا اليوم شرف الخليفة بني بويه بالألقاب، فلقب عليًا "وهو أكبرهم وصاحب بلاد فارس" عماد الدولة، ولقب الحسن "وهو الثاني فيهم وصاحب الري والجبل" ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العمران معز الدولة(١).

وبهذا تدخل الخلافة العباسية في عصر جديد، عصر زوال السلطان الحقيقي من أيدي الخلفاء، ولم يعد الخليفة سوى رئيس ديني لا أمر له ولا نهي ولا وزير، وإنما له كاتب يدير أملاكه ويصرف أموره، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء.

ولقد همَّ معز الدولة بإزالة الخلافة العباسية، وتولية علوى؛ لأن بني بويه كانوا شيعة زيدية، تلقوا تعاليم الإسلام على يد الحسن بن زيد ثم على

---

(١) في سنة ٣٢٠ هـ استولى مرداويج الديلمي على خراسان وبلاد الديلم والري والأهواز حتى حدود العراق، في عهد المقتدر بالله، وأقبل عليه أعيان الديلم وذوو الخبرة منهم؛ وممن جاءه ثلاثة إخوة: على، والحسن، وأحد أولاد بويه؛ فولى علياً بلاد الكرج فخرج إلى الري وبها حينئذ الحسين بن العميد، كاتب مرداويج ووالد أبي الفضل ابن العميد الكاتب المشهور، فتصادقا. ثم ندم مرداويج على تسرعه في تولية على بن بويه، فأرسل إلى أخيه وشمكير ووزيره وكاتبه الحسين يطلب رده إليه، ولكن الحسين أوحى إلى علي بالأمر فمضى لطينه، وحسنت سيرته في ولايته، وبسط سلطانه على ما جاوره من البلاد هازماً كل من تصدى له حتى آتى شيراز عاصمة فارس، وأرسل إلى الخليفة الراضي بالله الهدايا والأموال مظهراً الطاعة، ولما مات مرداويج أرسل أخاه الحسن إلى بلاد الجبل فاستولى على أصبهان، وأرسل أحد إلى الأهواز فملكها ثم دخل بغداد في ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ.

يد الحسن الأطروش، وكلاهما زيدي، فكانوا يعتقدون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها؛ بيد أن بعض خواصه نصحه بألا يفعل، وقال اله: إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك بطلان خلافته، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلت بعض العلويين خليفة، صرت تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، ولو أمرهم يقتلك لفعلوا، فأعرض عما كان قد همَّ به وأبقى اسم الخلافة لبني العباس وانفرد هو بالسلطان، ولم يبق بيد الخلافة شيء البتة، ويا ليته أبقى على الخليفة المستكفي بالله، ولكنه قتله بعد أربعين يومًا من دخول بغداد، وولي المطيع بن المقتدر مكانه.

وفي عهد معز الدولة هذا ساءت حال العراق جدًا؛ لأن جنده غالوا في مطالبهم، فجبى الأموال بالقهر، وأقطع أصحابه الإقطاعات فانصرف الزراع عن الأرض، ثم إن الخلاف اشتد بين جنده، إذ كانوا من جيشين متنافسين: الأتراك والديلم، وكان ميل معز الدولة مع الأتراك على الرغم من أنه ديلمي، وقد جنت البلاد من جراء هذا الخلاف شرًا كبيرًا. ثم إن الخلاف الديني كان أعظم مصيبة تصاب بها العراق في ذلك العهد؛ لأن أكثريته كانت شيعة ولكن بني بويه حاولوا تشجيع المذهب الشيعي، وغالوا في ذلك جدًا وعظمت الفتنة بين الناس، وتبادلوا اللعنات والقتال.

وعلى العموم كانت العراق تعم بالفوضى، واشتد بالناس الفقر والمرض، وعظم الغلاء حتى أكل أهل بغداد الميتة والخنازير والكلاب، ومات عددًا كبيرًا منهم جوعًا، ولم يستطيعوا دفن موتاهم فكانت الكلاب تأكل لحومهم، ولم تكن مدن العراق الأخرى كالبصرة والكوفة بأحسن حظٍ

من بغداد.

هذا وقد صارت الدولة الإسلامية دويلات مختلفة كل منها تنافس الأخرى وتغير عليها؛ فالأندلس بيد الأمويين، وبلاد أفريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة، والذين طمعوا في ملك مصر ثم نالوه بعد مدة وجيزة، وحلب والثغور بيد سيف الدولة الحمداني، ومصر بيد الإخشيديين، والجزيرة الفراتية بيد ناصر الدولة الحسن بن حمدان، والعراق والديلموعمان والبحرين واليمامة، وبادية البصرة للقرامطة، وفارس والأهواز لعلي بن بويه، والجبل والري لركن الدولة بن بويه، وخراسان وماوراء النهر لآل سامان، وآل سبكتكين في الهند وأفغانستان، ودولة العلويين بطبرستان، وهكذا تمزقت هذه الدولة العظيمة إلى دويلات صغيرة معظم أمرائها من الأعاجم، الذين اضمحلت بهم الحضارة الإسلامية وذهب بهاء الدين، وضاع شأن العرب ورحم الله أبا الطيب المتنبي حين وصف هذه الحال بقوله:

وإنما الناس بالملوك وما	تصلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب	ولا عهود لهم ولا ذمم
كل أرض وطئها قدم	ترعى بعبد كأنها غنم

–٢–

القرامطة: عرفنا مما سبق إلى أي مدى أثر في الدولة العباسية اعتمادها على الفرس دون العرب، وكيف انتهى الحال خلافتها، بل كيف زال سلطانهم، وتقوض ملكهم إلى مراسم اسمية لا قيمة لها. وقد كان من

جراء اضطهاد العباسيين للعلويين –وهذه غلطتهم الثانية– أن عمل العلويون كل ما في وسعهم لهذه الدولة العباسية، وانتقاص أطرافها، وشيوع الفساد والفوضى في أرجاء ملكها. أجل! لم يكن كل خلفاء بني العباس من مضطهدي العلويين، بل إن كثيرًا منهم كالمأمون والمعتصم والواثق قد أظهروا تسامحًا، بل محبة لعلي بن أبي طالب وآل بيته، وولى المأمون ولاية عهده علويًا هو علي الرضا بن موسى الكاظم، وتزين بشعارهم الأخضر، لولا أن ثار عليه بنو العباس، ومات علي الرضا، فرجع عن قصده في تولية العلويين ولاية العهد، إلا أنه أوصى أخاه المعتصم وهو يجود بنفسه بإكرامهم حيث يقول: "وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فأحسن تحبهم وتجاوز عن مسيتهم، وقبل من محسنهم، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند خلها، فإن حقوقهم تنجب من وجوه شتى". ولكن كان منهم من اشتدت قسوته، وعظمت غلظته على العلويين كالتوكل خانه أمر في سنة (٢٣٧هـ) بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء، وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر، وتعسف في معاملة الشيعة تعسفًاشديدًا، ولكن هؤلاء لم تخمد عزائمهم، أو تلن قناهم،فكثرت نوراتهم في عهد خلفاء المتوكل، وقد نجح منهم في عهد المستعين الحسن بن زيد، إذ أسس دولة في طبرستان استمرت قرنًا كاملًا من (٣٥٠ –٣٥٥م)،وفي أواخر دولة المعتمد على الله (٢٥٦ – ٢٧٩هـ) ظهر بسواد الكوفة رجل قدم إليها من خوزستان، وأظهر الزهد والتقشف والعفة عما في أيدي الناس، وكان يدعو الإمام من أهل البيت، وظل على ذلك زمانًا، ثم مرض

فتعهده رجل يقال له "كرمية"[1] لحمرة عينيه، وهو بالتبعية أحمر العين، ولم يزل مقيمًا عنده حتى برئ، فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه كثير من الأكرة، وكان يأخذ من كل رجل دخل في مذهبه دينارًا زعم أنه للإمام، واتخذ من أهل القرى المجاورة له نقباء اثني عشر، فانشغل الزراع هناك عن أعمالهم بما وسيم لهم من الصلوات الكثيرة، و تسمى ذلك الزاهد العابد باسم من آواه في مرضه أي "كرمية" ثم حفف اسمه فقيل "قرمط"[2]، وذُكِر في سبب تسميتهم بالقرامطة غير ذلك.

فشا هذا المذهب في سواد الكوفة، والسلطان لاهٍ عنهم، حتى اشتد أيدهم، وعظم شره؛ في سنة (٣١١هـ)،وكان رئيس القرامطة بالبحرين أبا طاهر الجنابي، فغزا البصرة غزوات متتابعة، وفي تلك السنة دخلها وقتل حاميها ووضع السيف في أهلها، وأقام فيهاسبعة عشر يومًا يحمل ما يقدر عليه من الأموال والأمتعة و النساء والصبيان، ثم اعترض طريق الحجاج وقتلهم ونهب قوافلهم. وفي سنة (٣١٧م) فعل ما هو أشنع وأدهى، حيث غزا مكة فوافاها إبان الحج، فلم يراعِ حرمة البيت الحرام، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام ذاته، وقلع الحجر الأسود، وأرسله إلى هجر، فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف يتشفعون لديه فقتلهم جميعًا، وطرح القتلى في بئر زمزم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه. ولم يحدث في التاريخ أن انتهكت حرمة البيت الحرام بهذا الشكل، حتى إن المهدي عبيد الله العلوي –وسيأتي ذكره– لما علم بذلك كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ويلومه

---

[1] كرمية أو قرمط على ما ذكره ابن الأثير، ج ٧ ص ١٤٨ اسمه حمدان بن الأشعث.

[2] يقال إن اسم هذا الزاهد العلوي: الفرج بن عثمان القاشاني: راجع ابن الأثير. ج٧ ص ١٤٨.

ويلعنه، ويقول له: لقد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت. وأمره أن يرد الحجر الأسود فرده، واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده إليهم.

وقد ظل القرامطة مصدر شر كثير المسلمين، يغيرون ويهبون وهم آمنون لا يملك لهم الخليفة ولا وزراؤه ردًا ولا زجرةً، وكلما أرسلوا من يقف في طريقهم أو يردهم هزموه وسخروا منه.

ولما تم للعبيديين في أفريقية التغلب على مصر، وأسسوا بها الدولة الفاطمية سنة (٣٥٩هـ) استظل القرامطة بلو انهم، ودعوا لهم، بل إن صلهم مهم كانت قبل مجيئهم إلى مصر، يلتمسون منهم التأبيد والتعضيد في نور اهم ضد الدولة العباسية؛ ولكن لما خرجوا عن كل حد و زاد عبهم، وسفكهم، وغزوا مكة، ولما ذهبوا في جر أمهم إلى مهاجمة الدولة الفاطمية ذاتها في الشام، وانتزعوا منها دمشق، بل هاجموها في مصر منزلها الجديد، تنكر لهم الفاطميون وتبرؤوا منهم.

وقد أرسل المعز لدين الله إلى حسن الأعصم زعيم القرامطة آنذاك وقت زحفه على مصر كتابًا ينوه فيه المعز ما له ولآبائه من صفة الإمامة، ويشير إلى ما كان لهم من الولاية والوصاية على زعماء القرامطة أسلاف الحسن، وإلى ما كانوا ينشدونه من رعاية الأئمة الفاطميين وبركاتهم، وأنهم لم ينتصروا على العباسيين إلا بفضل هذه الرعاية الروحية، وينعي على الحسن خروجه ونكته، ويتوعده بسوء العاقبة[١].

---

[١] راجع نص هذه الوثيقة بأكمله في اتعاظ الحنفاء ص ١٣٣– ١٤٣.

-٣-

الباطنية:

عرفنا فيما سبق ما كان من أمر القرامطة، وسنرى فيما بعد مدى اتصالهم بإخوان الصفاء؛ ولكن هؤلاء القرامطة لم يكونوا إلا مظهرًا لحركة أخرى كبيرة، تلك هي الدعوة السرية الباطنية. نشأت هذه الدعوة ونظمت مبادئها السرية لأول مرة على يد جماعة من الثوريين بزعامة أبي شاكر ميمون بن ديصان المعروف بالقداح، وكان متفقهًا في درس الأساطير الدينية، والبحوث الكلامية والجدل الفلسفي، ومتآمرًا وافر الإقدام والجرأة، وكان فارسيًا من أصل مجوسي من سبي الأهواز، وكان معظم الزنادقة و المبتدعين في العقيدة الإسلامية، والعاملين على هدمها فرسًا.

بدأ ميمون حياته مولى لجعفر الصادق بن مُحَمَّد بن على بن الحسين بن على ابن أبي طالب، واستمر بالتشيع والدعوة لآل البيت، ثم قبض عليه مع جماعة من أصحابه وسجنوا بالكوفة، وواليها آنذاك عيسبن موسى، و ذلك في أواخر عهد المنصور سنة (١٤٥ هـ)، وفي السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم وأسسوا مذهبه الشهير بمذهب الباطنية، ولما خرج من السجن ادعى أنه من ولد مُحَمَّد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق[١]، وانتشرت دعوته في جنوب فارس وفي جنوب العراق والبحرين، وانتشر دعاته في كل مكان، يخاطبون كل طائفة بما يلائم ميولها وتفكيرها. وكانوا يتوسلون للتأثير في الكافة بأعمال التنجم والكيمياء التي كانوا يحذقوها.

---

[١] الفرق بين الفرق لعبد الظاهر البغدادي ص ٢٦٦ "مطبعة المعارف"

وحمل الدعوة بعد ميمون ولده عبد الله، وكان مثله ذكاء و براعة، و تبحرًا في المباحث الفقهية والكلامية والنظريات الفلسفية الحرة؛ فنظم الدعوة، وصاغها في تسع مراتب، ودعا لإمامة آل البيت الذين يزعم الانتساب إليهم. وكان يدعي علم الغيب، والأسرار الروحية، والعلوم الخفية، وزعم أنها انتهت إليه من جده مُحَمَّد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، وهو في نظر الشيعة مستودع العلوم والأسرار وسُموا باطنية لأنهم كانوا يقولون بالإمام الباطن أو المستور، أو لقولهم بأن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلًا، وربما عُرفوا بذلك أيضا لأنهم كانوا يكتمون مبادئهم ويلقونها سرًا إلى الجميع، كما عرفوا بالإسماعيلية لقول دعاتهم بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق، فولده مُحَمَّد المكتوم فولده جعفر، ثم ولده مُحَمَّد الحبيب وهو عندهم آخر الأئمة المستورين[1].

ويحمل عليهم خصومهم، وعلماء السنة ومؤرخوها حملة شعواء، فيقول عبد القادر البغدادي: "إن الباطنية يزعمون أن المبدع الأول أبدع النفس، ثم إن الأول والثاني دبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة، والطبائع الأربعة، وهذا ما يطابق قول المجوس: إن أليزدان خلق أهرمن ، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم، غير أن أليزدان فاعل الخيرات، وأن أهرمن فاعل الشرور.

---

[1] اتفق الشيعة جميعاً على إمامة سنة انتهوا جعفر الصادق، ثم اختلفوا بعده فذهب الاثنا عشرية إلى إمامة ولده موسى الكاظم، وذهب الإسماعيلية إلى ولده إسماعيل، ولا كان الإمام هو حجة الله على خلقه ولابد من وجوده ليؤدي ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها، ولما رأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل يا الظهور للناس قالوا: إن الإمام يكون مستورا، ولكنه سيظهر يوما ما وهو المهدي أو الإمام المنتظر.

ويقول: "إن الباطنية يرفضون المعجزات وينكرون الوحي، وأنهم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلًا، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة إمامهم، والحج زيارته وإدمان خدمته، والصوم هو الإمساك عن إفشاء سر الإمام، والزنا هو إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق، وأن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها.

ويرى عبد القاهر من ذلك أن الباطنية دهرية زنادقة يقولون تقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع، ويستدل على ذلك ما ورد في رسالة بعث بها عبد الله بن الحسن القيرواني أحد دعاتهم إلى الحسين بن سعيد الجنابي زعيم القرامطة يوصيه فيها: "أن ادعُ الناس بأن تقترب إليهم ما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك مهم، فمن آنست منه رشدًا، فأكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا ..." ثم يقول: "إن الجنة هي نعيم الدنيا، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد، وأن أهل الشرائع يعبدون ما لا يعرفونه ولا يحصلون عليه إلا على اسم بلا جسم[1]".

ويلخص الغزالي في رسالته التي وضعها للرد على الباطنية مذهبهم فيما يأتي وبالجملة فهو مذهب ظاهره الرفض، وباطنه الكفر المحض، مفتاحه حصر مدار العلوم في قول الإمام المعصوم، والقول بأن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم يُرجَع إليه فيما يستبهم من أمور الدين: هذا مبتدأ

---

[1] الفرق بين الفرق ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠.

دعوتهم، ثم إنهم بالآخرة يظهرون بما يناقض الشرع وكأنه غاية مقصدهم؛ لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين في متن واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه، بعد أن يظفروا منه بالانقياد والموالاة لإمامهم فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم، ويقرونهم عليها، فهذه جملة المذهب، وأما تفصيله فيتعلق بالإلهيات والنبوات والإمامة والحشر والنشر[1]".

لقد أطلنا الكلام على الباطنية، وسنذكر بعد ذلكشيئًا عنهم غير هذا؛ لأن لهم علاقة قوية فيما نعتقد بإخوان الصفا الذين نكتب عنهم وسترى هذه العلاقة في حينها.

ولا يسعنا ونحن نكتب عن الباطنية هذه الكلمة الموجزة إلا أن نذكر كلمتين للمستشرقين العظيمين إحداهما للسير توماس أرنولد في كتابه "الدعوة الإسلامية" يبين فيه مدى انتشار هذه الدعوة، ووسائلها فيقول:

"مؤسس هذه الدعوة – التي تشبه المذهب الجزويتي في نظرتها الثاقبة للطبيعة الانسانية، وفي المهارة الفائقة التي أعدت بها نظرياتها لتتناسب مع الطبائع المختلفة، والميول المتنوعة، هو عبد الله بن ميمون، وقد أرسل دعاة متخفين بأشكال شتى إلى كل جهة، يظهرون غالبًا في زي المتصوفة، وأحيانا في زي التجار، ولقد تعلموا كيف يكونون كل ما يحتاجه أي إنسان، و كيف يدخلون في طاعة أستاذهم الأكبر الرجال من أي طبقة كانت؛ بأن يتحدثوا إلى كل رجل باللغة التي يفهمها، وبأن يغيروا تعاليمهم تبعًا لمقدرة

---

[1] رسالة الرد على الباطنية المطبوعة بعناية المستشرق جولد تسهر ص ٧، ٨.

سامعهم على الفهم، وتبعًا لاختلاف آراء هؤلاء الذين ينصتون إليهم. لقد خلبوا الجمهور الجاهل وأسروه بأعمال الشعوذة التي ظنها معجزات وكرامات، وهاجوا فضول المنصتين إليهم بعبارات غامضة مبهمة، لقد أظهروا للورع أنهم نماذج الفضيلة والحماسية الدينية، ووضحوا للصوفي ما كان غامضًا من التعاليم المشهورة، واستغلوا فكرة التطلع إلى منتقد و مخلص، تلك الفكرة التي كانت شائعة في كثير من الديانات، وأخذوا يذيعون بين المسلمين، أن قد حان الأوان لظهور المهدي المنتظر، وبين اليهود المسيح، وبين النصارى المعزى؛ ولكن لا أمل لكل طائفة إلا بمجيء علي المنقذ الأعظم.

أما مع الشيعة فقد أظهر الداعية الإسماعيلي نفسه متحمسًا لنظرياتهم. أيصبر على قسوة السنيين وظلمهم لعلي وأولاده؟ كلا! بل أخذ يذم الخلفاء السنين بحرية و بلسان طلق، وبعد أن يمهد الطريق على هذا النحو يبتدئ ببث نظريات الإسماعيلية البحتة كتتمة ضرورية للعقيدة الشيعية؛ وفي معاملته لليهود كان لزامًا عليه أن يزدري النصارى والمسلمين على السواء، وأن يوافق مخاطبه على التطلع إلى المسيح المنتظر. ولكن يقوده بالتدريج ليعتقد أن هذا المسيح المنتظر لن يكون إلا عليًا المسيح الأكبر للمذهب الإسماعيلي . وبمثل هذا الأسلوب حاول الإسماعيليون الذين يمموا شطر بلاد الهند أن يجعلوا نظرياتهم مقبولة للهندوس بجعلهم عليًا هو "الأفاتار[١]" العاشر المنتظر الذي سيأتي من الغرب (من

[١] أفاتار: مكونة من كلاين **Ava** يعني بعيداً، و**tar** يعنى ينزل، والكلمة كلها تعني نزول إله هندي على صورة مرئية في اللغة السنسكريتية).

الموت[١])، ولقد كتبوا كتابًا يشابه كتاب "يورانا[٢]".

بمثل هذه الطرق اتحد جمهور كبير من مختلف الديانات ليدفعوا إلى الأمام عملًا لا يعرف غايته إلا القليل.

ويخيل إلي أن آمال عبد الله بن ميمون كانت سياسية سلك إليها طريقًا دينيًا[٣]".

وأما الكلمة الثانية فللمستشرق الكبير دوري يصف بها برنامج ابن ميمون:

"أن يدمج الغالبين و المغلوبين في هيئة واحدة، وأن يجمع في حظيرة واحدة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة، بين أحرار المفكرين – الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لإذلال الشعب – وبين الغلاة من جميع الطوائف، وأن يجعل من المؤمنين آلات صماء تمد المتشككين بالقوة، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التي شادوها، وأن ينشئ حزبًا كبيرًا مؤتلفًا منظمًا، يرفع في الوقت المناسب –إن لم يكن شخصه– فعلى الأقل أبناءه على العرش: هكذا كانت غاية عبد الله بن ميمون، وهي فكرة عجيبة نفذها بحذق مدهش، وبراعة نادرة وخبرة عميقة بأسرار القلب البشري، وكانت الرسائل التي ابتدعها غاية في المكر والدهاء.

---

(١) ألموت: قلعة على جبل شاهق في حدود الديلم صارت حصنا منيعا للشيعة الإسماعيلية.

(٢) بورانا Purana أحد الكتب الشعرية المقدسة في اللغة السنسكريتية ويكون مع تنتاراس Tantaras الأسس الرئيسية للديانة البرهمية.

(٣) الدعوة الإسلامية للسير توماس أرنولد The Preaching of Islam T. Arnold. ص ٢١١ – ٢١٢.

"ولم يبحث اين ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص ولكن بين الثنوية والوثنيين، وطلاب الفلسفة اليونانية، ولم يكن يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة وإليهم وحدهم استطاع أن يقضي بسره وخفى عقيدته، وهو أن الأمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالًا وسخرية، وأن باقي البشر –أو الحمر كما يسميهم– ليسوا أهلًا لفهم هذه المبادئ، غير أنه تحقيقًا لغايته لم يعف عن مؤازرتهم بل كان يلتمسها، ويحذر في نفس الوقت من أن يحشد الأنفس المخلصة الطائعة إلا في المرتبة الأولى لدعوته[1]".

وهكذا حمل عبد الله بن ميمون دعوة أبيه ونظمها ببراعة فائقة، واتخذ بلدة "ساباط[2]" مركزًا لدعوته حينًا من الدهر مستترًا بثوب عميق من التشيع والورع والدعاء لآل البيت. وكان عبد الله بارعًا في طب العيون وعلاجها وفي أعمال التنجم والكيمياء، وكانت براعته في هذه الشئون وسيلة للتأثير في العامة، ولما شعر أولو الأمر بخطورته هموا بمطاردته ففر إلى البصرة، ومعه الحسين الأهوازي من أقطاب الشيعة، فلما طورد منها فر مع الحسين إلى الشام ونزل بلدة "سلمية" من أعمال "حمص" واتخذها مركزًا لدعوته. وحمل الدعوة من بعده ولده أحمد، وسيّر الحسين إلى العراق، وكان مجيئه العراق سببًا في ثورة القرامطة كما بينا آنفا، وخلف أحمد في حمل الدعوة ابنه الحسين ثم أخوه مُحَمَّد المعروف بأبي الشلعلع؛ وكانت هذه الدعوة قد ثبتت واستقرت وقويت أئمتها ودعاتها وكثرت أموالهم ورسلهم، وبعث مُحَمَّد بدعاته إلى المغرب وعلى رأسهم أبو عبد الله الحسين المعروف

---

(1) دوزى Essai sur L'Histoire de L'Islamisin ص ٢٦٠– ٢٦٢.

(2) ساباط: من أعمال المدائن القديمة في جنوب الفرات.

بالشيعي فنشر الدعوة هناك، وأخذ يبشر بالإمام المنتظر ثم قام بالدعوة سعيد بن الحسين.

ويقول بعض المنكرين لنسب الفاطميين إن سعيدًا هذا ليس ولد الحسين وإنما هو ولد زوجه اليهودية، رباه و لقنه أسرار الدعوة واختاره للزعامة والإمامة من بعده[١].

وسعيد هذا هو الذي فر إلى بلاد الغرب حينها همت السلطات بالقبض عليه، ففر إلى مصر ومنها إلى إفريقية، وتسمى بعبيد الله المهدي أبي مُحَمَّد، وزعم أنه الإمام المنتظر، وكان أبو عبد الله الشيعي قد مهد له سبيل الدعوة، واجتذب إليه عدة من القبائل القوية، فاستطاع عبيد الله بعد خطوب وأحداث جمة أن ينتزع لنفسه ملك الأغالبة، وأن يؤسس دولة العبيدين أو الدولة الفاطمية بافريقية سنة (٢٩٦هـ)، وتوطدت دعائم

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٨، وابن الأثير لا يصدق هذه الرواية و يحاول أن يثبت صيحة نسب الفاطميين واستدل بأبيات الشريف الرضي وهو من هو عالما ومكانة:

مـا مقـامي علـى الهـوان وعنـدي	قـول صـارم وأنـف حمـي
ألـيس الـذل في بـلاد الأعـادي	وبمصـر الخليفـة العلـوي
مـن أبـوه أبي ومـولاه مـولاي	إذا ضـامني البعيـد القصـي
لـف عرقـي بعرقـه سـيدا النـاس	جميعـاً مُحَمَّد وعلـي

ويقول: كيف يعقل أن يعمل كل هؤلاء العلماء الأجلاء من أجل تولية يهودي؟ وقد تبعه المرحوم الشيخ الحضري بك في رأيه هذا وقال: إن هذا كلام يظهر عليه التوليد والاختراع كتب إرضاء لبني العباس (تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة العباسية ص ٣٠١) أما عبد الله عمان في كتابه الحاكم فينكر نسبتهم إلى آل البيت ويوافق معظم علماء السنة في هذا، وأرى أن الطعن في نسبهم مبني على ظنون وشكوك لا تقوم مقام اليقين، وأن كثيراً من علماء السنة تعلقوا العباسيين و علقوا مذهبهم و تعصبوا له في طعنهم هذا.

الدولة الجديدة بسرعة ولم تلبث حتى غلبت على المغرب كله ثم افتتحت مصر واتخذتها مستقرًا ومنزلًا (**٣٥٩- ٣٦٣**هـ).

هذه أهم الأحداث السياسية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري والتي لها علاقة ماسة بموضوعنا اختصرناها اختصارًا، بالرغم مما يظهر عليها من التطويل، ولكن كان لابد منها حتى نفهم حقيقة أهداف إخوان الصفاء.

الفصل الثاني

الحياة العقلية في القرن الرابع

السريان:

إخوان الصفاء –كما سترى– نتيجة لعاملين عظيمين: أولهما سياسي، وثانيهما فكري علمي، وقد رأينا الحالة السياسية التي مهدت لظهورهم، أو بالأحرى وصفنا الحياة السياسية في عصرهم وصفًا يساعدنا عند الكلام عنهم على معرفة صلتهم بالحركات السياسية والجمعيات السرية التي كانت موجودة إبان ظهورهم. وأما الحياة الفكرية والعلمية التي عملت على إظهار رسائلهم، فتحتاج منا كذلك إلى كلمة عابرة، ولمحة سريعة نحو تلك المادة التي استمد منها إخوان الصفاء معارفهم وأفكارهم، حتى نستطيع الحكم عليهم حكمًا صحيحًا بعد تفهم آرائهم، ومدى ما فيها من ابتكار أو تقليد.

فتح المسلمون جهات كثيرة من العالم المعمور في ذاك الوقت، ووجدوا به كثيرًا من النصارى في مصر والشام و بلاد المغرب والأندلس، وكانت النصرانية عند الفتح منقسمة إلى جملة طوائف أشهرها في الشرق ثلاث: اليعاقبة وكانوا منتشرين في مصر وبلاد النوبة والحبشة، والنساطرة – نسبة إلى نسطور الحكيم وقد كان بطريقًا للقسطنطينية في بعض أيامه، ومات في منفاه سنة(٤٥٠م) – وكانوا منتشرين في الموصل والعراق وفارس،

والملكانية وكانوا منتشرين في بلاد الغرب وصقلية والأندلس والشام، وكان بين هذه المذاهب الثلاثة جدال عنيف في العقائد بلغ أحيانًا حد الاضطهاد مثلما حدث لنصارى مصر على يد امبراطور روما.

وكان كثير من السريان -وهم نصارى- تجارًا يجلبون الخمر والحرير وغيرها إلى بلاد المغرب، ويحملون في عودتهم كتب الثقافة اليونانية من الإسكندرية وإنطاكية وصقلية وينشرونها في الشرق، وأسسوا عدة مدارس كانت مراكز لهذه الثقافةوأهمها: الرها، ونصيبين، وحران، وجند يسابور.

واستعان النصارى فيما وقع بينهم من خلافات دينية بالفلسفة اليونانية وبالمنطق قبل أن يغزو المسلمون ديارهم، فقام السريان بترجمة كتب الفلسفة اليونانية من القرن الرابع الميلادي إلى القرن الثامن تقريبًا، ومن أوائل الكتب التي نقلوها إلى لغتهم: كتب أرسطو المنطقية وشروحها مثليساغوجي، وترجموا كتبًا في الإلهيات والأخلاق والتصوف، ونقل سرجيس الرَّسْعَني كتبًا في الطب والفلسفة والطبيعة، واستمروا في ذلك حتى بعد الفتح الإسلامي، وكانت ترجمه دقيقة، ولاسيما في كتب المنطق والطب والطبيعة، أما ترجمتهم لكتب الأخلاق وما بعد الطبيعة فقد صبغوها صيغة مسيحية، وأحلوا عناصر مسيحية محل ما هو وثني؛ فبطرس، وبولس، وحنا، تظهر أحيانًا بدل سقراط وأفلاطون وأرسطو[1]، وحل الإله الواحد محل آلهة اليونان المتعددة، ثم صبغوا فكرة العالم والخلود والخطيئة بصبغة مسيحية.

---

[1] تاريخ الفلسفة في الإسلام لديبور ترجمة الدكتور أبو ريده ص ٢٠

وقد عنى السريان على الأخص بالحكمة الفيثاغورثية الأفلاطونية التي تنزرع إلى التصوف، وكان محور أبحاثهم نظرية لأفلاطون في النفس تناولوها بما يتفق مع الفلسفة الفيثاغورثية أو الأفلاطونية الحديثة، أو بما يتفق مع المسيحية، بل إنَّا لنجد السريان في أديرتهم يمثلون أفلاطون في صورة راهب شرقي، انتبذ لنفسه صومعة في قلب البرية بعيدًا عن مساكن البشر، وبعد أن لبث ثلاث سنين صامتًا يتفكر في آية من الكتاب المقدس، انتهى به تأمله إلى الاعتقاد بالتثليث[1].

-٢-

المسلمون والفلسفة: لما فرغ المسلمون من الفتح، واستقر بهم الأمر، أخذ عقلهم يتفلسف في الدين و ينظر في بعض آيات القرآن المتشابهة، وحاولو أن يوفقوا بينها، وقد اختلفت وجهات نظرهم في تأويلها،ثم إن القرآن تعرض لبعض الفرق الملحدة كالدهرية، الذين يقولون: "وما يهلكنا إلا الدهر" وأمر النبي أتباعه بالرد على المخالفين ومجادلتهم: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن".فشُغِل المسلمون بالبحث في هذه المشكلات الجديدة،وخاصة أنه قد دخل في الإسلام كثير من النصارى واليهود والفرس والدهريين والصابئة والبراهمة، وأثاروا عدة مسائل كانت في دياناتهم القديمة: من جبر واختيار، وتناسخ ... إلخ. وجد المسلمون أنفسهم أمام خصوم أقوياء يجادلونهم بالمنطق ويدعمون حجتهم بالفلسفة؛ فاضطروا إزاء كل هذا إلى درس الديانات

---

(١) المصدر نفسه.

المختلفة، كي يتعرفوا على مواطن القوة والضعف فيها، كما لجأوا إلى الفلسفة يتخذون منها عونًا ضد خصومهم، وتعلموا المنطق ليقرعوا الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان.

فهذه الأسباب مجتمعة، كونت أول جماعة مفكرة في الإسلام، ألا وهي علماء الكلام، ورأينا عالمًا كالنظام يقرأ أرسطو ويرد عليه، ورأينا كثيرًا من أبحاث المعتزلة هي أبحاث الفلسفة كالتوالد، والجوهر والعرض، و الجزء الذي لا يتجزأ ... إلخ.

بيد أن علماء الكلام لم يشغلوا أنفسهم بالفلاسفة إلا بالقدر الذي يحتاجون إليه في الرد على الملاحدة، وفي إثبات حقائق الإسلام، وقد اختلف منهجهم في البحث عن منهج الفلاسفة الحقيقيين، لأنهم أشبه بمدرِهٍ أعتقد صحة قضية من القضايا، وأخذ يدافع عنها بكل ما أوتي من قوة وفصاحة وجدل. أما الفلاسفة فيبحثون المسائل بحثًا مجردًا، وعقولهم خالية من المؤثرات والعقائد، ثم ينظرون ما ينتجه البحث،مهما كانت هذه النتيجة، وشتان بين المنهجين والطريقتين.

-٣-

حركة الترجمة: ابتدأت حركة النقل إلى العربية في عهد بني أمية، ولكنها ظلت محدودة الأفق، قليلة الإنتاج، فيروي لنا صاحب الفهرست: أن أول نقل إلى العربية كان على يد خالد بن يزيد بن معاوية، المسمى حكيم آل مروان، وأنه أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان يقطن مصر وحذق اللغة العربية، وعهد إليهم بنقل كتب في الطبيعة أو

الكيمياء من اللغة اليونانية، ثم نُقِل الديوان من الفارسية إلى العربية في عهد الحجاج بن يوسف، كما نقل من الرومية في زمن هشام بن عبد الملك. فلما جاء بنو العباس، وكثر اختلاطهم بالفرس، كان النقل بادئ الأمر من هذه اللغة إلى العربية، وكانت الفارسية قد أفادت كثيرًا من هجرة بعض فلاسفة اليونان المضطهدين في عهد الإمبراطور جوستنيان، ومن غيرهم؛ فترجم لنا ابن المقفع بعض الآثار اليونانية في المنطق عن الفارسية، كما ترجم كتاب المدخل لمنطق أرسطو المعروف بايساغوجي الفرفريوس. وقد اشتدت حركة النقل نوعًا ما أيام المنصور، وكان مولعًا بالفلك فترجم له كتاب السند هند الكبير، وأرسل في طلب جبرائيل ابن بختيشوع الطبيب النسطوري فلازمه، وأخذ ينقل له بعض الكتب اليونانية، واستمر النقل في ازدياد إلى أن أتى الرشيد، ورتب الصوائف، وصار الغزاة يجلبون فيما يجلبون من بلاد الروم كتب الحكمة،والطب،والفلسفة، والرياضيات، ولاسيما من مدينة عمورية، وقد ترجم كتاب المجسطي في عهد الرشيد، ثم جاء عصر المأمون فدخلت الترجمة في عصرها الثالث، وهو أزهى عصورها، وذلك لأن المأمون اعتنى بدار الكتب التي أسسها الرشيد، وسماها بيت الحكمة، وجمع بها العلماء والمترجمين والنساخ والمؤلفين، يخرجون له كنوز الفلسفة، وأنواع الثقافة اليونانية، وكان يتردد عليها كثيرون ممن يشتغلون بالحركة العالمية كالفضل بن نوبخت، وأولاد شاكر، وغيرهم، وأرسل المأمون رسله في الآفاق يجلبون له نوادر الكتب اليونانية.

ونقلت في هذا العهد كتب كثيرة منها: كتاب السياسة لأفلاطون، وكتب منطق أرسطو: المقولات، والقياس، والجدل، وكتاب الشعر، والكون

والفساد، والحيوان. كما نقلت كتب بقراط، وجالينوس في الطب.

انتهى عصر المأمون، ولكن لم تثبط عزيمة المترجمين، أو يتقاعس من أتى بعده من الخلفاء عن متابعة نهضته؛ فظل النقل نشيطًا حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ومن أشهر مترجمي هذا العصر: متى بن يونس، وسنان ابن ثابت بن قرة، ويحيى بن عدي، وفي هذا العصر والذي قبله ترجمت أ كثر كتب الرياضيات، والنجوم، وسائر العلوم؛ فترجم كتاب إقليدس في أصول الهندسة، وكتابه في الموسيقى والقانون، كما ترجمت كتب أرشميدس وغيره مع استمرار النقل من الفارسية والهندية والنبطية وغيرها من اللغات.

– ٤ –

فهم العرب للفلسفة: وصلت الفلسفة اليونانية إلى العرب على يد السريان وهؤلاء كما رأينا قد نقلوا منها ما احتاجوا إليه في محاولاتهم الدينية، واهتموا كثيرا بالآراء الأفلاطونية ممزوجة بفلسفة فيثاغورس وبالأفلاطونية الحديثة التي تدعو إلى الزهد والتصوف وتقوية الروح على حساب الجسم.

وكان اليعاقبة بخاصة هم الذين عملوا على نشر هذا المذهب والترويج له؛[1]فأخذ العرب عنهم هذا الميل نظرًا لتمكن الدين من نفوسهم، ومن ثم أخذوا يهتمون بفلسفة أرسطو، وأعجبوا بمنطقه أيما إعجاب إلا أن رأيه

---

[1] الدكتور فيليب حتي. تاريخ العرب. **The History of the Arabs** ص٣١٥.

في أزلية العالم وقدمه، ومذهبه في أمر النفس وفي الأخلاق، كانا يتعارضان نوعًا ما مع عقيدة المسلمين؛ ولذا رأوا فيه خطرًا على دينهم، فرد عليه كثير من علماء الكلام. ولم يجدوا في أفلاطون مثل هذا الخطر؛ لأنه قال بحدوث العالم وبقاء النفس، وأنها جوهر روحاني، وهذا ما يتمشى مع عقيدة المسلمين إلى حدٍ ما؛ بيد أن بعض فلاسفة السامين نبذ نظريته القائلة: بأن في العالم نفسًا كلية واحدة، وبأن نفوس أفراد الإنسان ليست إلا أجزاء منبعثة من تلك النفس الكلية، وأخذوا يلتمسون ما يقرر رجاءهم في الخلود عند أرسطو؛ لأنه جعل للنفوس الجزئية شأنًا كبيرًا[1].

وقد نسب العرب كتبًا كثيرة لأرسطو أول الأمر؛ لأن كتبه وصلتهم بشروح فلاسفة الأفلاطونية الحديثة، وأكبر شاهد على ذلك كتاب التفاحة وشان أرسطو في ذلك الكتاب هو شأن سقراط في قصة فيدون، التي ألفَّها أفلاطون، ونسبوا إليه كتاب "في العالم"، وغيره من كتب أفلاطون الممزوجة بمذهب فيثاغورس، وبالأفلاطونية الحديثة[2].

وإذا شئت دليلًا أبلغ فهناك كتاب "الربوبية" المنسوب خطأً لأرسطو، في هذا الكتاب نجد أفلاطون الإلهي مصورًا في صورة مثل أعلى للإنسان، يعلم الأشياء كلها بنظر العقل، فلا يحتاج لمنطقأرسطو، وترى فيه أن الحقيقة العليا، وهي الوجود المطلق لا تدرك بالتفكير، بل بالمشاهدة في حال الغيبوبة عن عالم الحس، وفي هذا الكتاب يقول أرسطو "فيما ظن

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام لديبور ص ٢٨.

(٢) تاريخ فلاسفة الإسلام لدي بور، ترجمة الدكتور أبو ريده ص ٢٩، ٣٠

العرب" والقول في الواقع لأفلوطين[1]. "إني ربما خلوت بنفسي وخلعت بدني جانبًا، وصرت كأنني جوهر مجرد بلا بدن، فأكون داخلاً في ذاتي، راجعًا إليها، خارجًا من سائر الأشياء، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعًا. فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجبًا؛ فأعلم أننيجزء من أجزاء العالم الشريف الفاضل الإلهي، ذو حياة فعالة، فلما أيقنت ذلك ترقيت بذاتي من ذلك العالم إلى العالم الإلهي؛ فصرت كأنني موضوع فيه متعلقٌ به فأكون فوق العالم العقلي كله، وأرى هناك من النور والبهاء ما لا تقدر الألسنة على وصفه ولا تعيه الأسماع[2]" فهذا الكتاب لا يمت إلى أرسطو بصلة، ولكنه من كتب الأفلاطونية الحديثة[3].

ليس الذنب في كل هذا الخلط بين مذاهب فلاسفة اليونان ذنب العرب، ولكن الذنب على هؤلاء الذين نقلوا إليهم هذه الكتب ممزوجة بالأفلاطونية الحديثة وغيرها، ثم على العصر الذي لم تكن فيه وسائل النقد وتمييز كتب أرسطو من غيرها متوفرة كما هو لدينا الآن.

هذا وقد وجد المسلمون الأفلاطونية الحديثة تشرح مذاهب اليونان القدماء، وتوفق بينها، فنهجوا طريقهم ومزجوا بين نظريات الفلسفة اليونانية.

---

(1) هو المؤسس الحقيقي للأفلاطونية الحديثة، ولد بأسيوط سنة ٢٠٥م، ويسميه العرب الشيخ اليوناني أو الإسكندراني وألف كتبًا كثيرة حفظت عنه، وتعرف بالتاسوعات وكان في حد ذاته زاهدًاورعًا.

(2) كتاب الربوبية ص ٨ ورسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٩٢.

(3) تاريخ الفلسفة الإسلامية لدى بور ص ٣٠، ٣١ ترجمة الدكتور أبو ريده.

ورأوا أن السريان المسيحيين خلطوا بين الفلسفة والدين، وحاولوا أن يؤيدوا دينهم بنظريات فلسفية، فسلكوا سبيلهم، وجدوا في التوفيق بين الإسلام والفلسفة، وإذا وجدوا في الفلسفة ما يخالف الدين حاولوا تأويله، وإلا سكتوا عنه، أو ردوا عليه؛ ولهذا نرى مثلًا فيلسوفًا كالفارابي يؤلف رسالة في الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو، وترى إخوان الصفاء مثلًا يؤلفون رسائلهم زاعمين أن الشريعة دنست بالجهالات، واختلطت بالشلالات، فأرادوا تطهيرها بالفلسفة، معتقدين أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية، والشريعة الإسلامية فقد حصل الكمال[1]"

نالت الفلسفة الطبيعية التي نُقلت من مؤلفات إقليدس وبطليموس، و بقراط وجالينوس، ومن بعض كتب أرسطو، إلى جانب كثير من كتب شتى ترجع إلى المذهبين الفيثاغوري الجديد، والأفلاطوني الجديد، نالت هذه الفلسفة قبولًا عظيمًا من العرب، بل صارت فلسفة الجمهور، وقد راجت جدًا لدى الشيعة، ولدى غيرهم من الفرق، ولم يقتصر تأثيرها على مجالس الملوك، بل تعدى هذه المجالس إلى طائفة كبيرة من المثقفين وأنصاف المثقفين.

ذهب الناس في البحث إلى أبعد مما كانت تتطلبه حاجاتهم العملية التي لم تكن تستلزم إلا قليلًا من علم الحساب ينتفعون به في تقسيم الفرائض، وفي شئون التجارة، إلى جانب قليل من علم الفلك يضبطون به مواقيت العبادات، وسارعوا إلى جمع الحكمة من كل صوب.

---

[1] رسائل ج ١ ص ٢٤.

كان فيثاغورس هو أستاذ العرب في الرياضيات، وكان يقال: إن الإنسان لا يكون فيلسوفًا، ولا طبيبًا حاذقًا إلا بدراسة فروع الرياضيات، كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى.

وكان الانتقال هينًا من الرياضيات إلى الفلك والتنجيم. وأدى التنجيم إلى آراء تعارض الدين، وحاول المنجمون أن يثبتوا تأثير الأفلاك السماوية في هذا الكوكب الذي نعيش فوقه، ومن يقل من أناسي، وأخذوا يتنبأون بالمستقبل ودخل في هذا العلم كثير من الأوهام والخرافات سنعرف شيئًا منها عند إخوان الصفاء.

أظهر المسلمون حرصًا شديدًا على كل ما نقل إليهم من لغات الأمم القديمة فأخذوا يدرسونه، ويتفقهون كنهه، ويعلقون عليه. وظهر مهم فلاسفة تحرروا إلى حد ما من ربقة التقاليد والعادات، وكونوا لأنفسهم نظريات خاصة في بعض القضايا الفلسفية التي تلقوها عن اليونان، فمن هؤلاء يعقوب ابن إسحاق الكندي، الذي يقول فيه العلامة "ماستيون[١]" إنه إمام أول مذهب فلسفي إسلامي ببغداد، ويقول فيه دى بور: عند الترجمة له في دائرة المعارف الإسلامية: إن "كوردان" **Curdan**، وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة بعد الكندي واحد من اثنى عشر يعتبرون أنفذ الناس عقلا، وأنه كان في القرون الوسطى يعتبر واحدًا من ثمانية هم أمة العلوم الفلكية.

---

(١) Massignon. Recueil de texte inedits concernant L'Histoire de la Mystique en pay d'Islam.

ومن هؤلاء أيضًا قسطا بن لوقا البعلبكي، وكان معاصرًا للكندي، ومن أهم آثاره رسالة في الفرق بين الروح والنفس، وقد بقيت إلى يومنا هذا بعد أن تُرجمَت إلى اللاتينية،[١] وانتفع بها كثير من المشتغلين بالفلسفة.

ثم جاء الفارابي بعدهما، فصحح تراجم كتب أرسطو وشرحها، ومهد لنهضة الفلسفة الإسلامية التي تكاملت بعده، وفيه يقول ابن خلكان: وهو أكبر فلاسفة المسلمين، ولم يكن منهم من بلغ رتبته من فنونه، والرئيس أبو علي بن سينا –المتقدم ذكره– بكتبه تخرج، وبكلامه انتفع في تصانيفه".

ثم إن أبا نصر الفارابي هو أول من عني بإحصاء العلوم، وترتيبها في كتابه "إحصاء العلوم"[٢]ومن أجل ذلك يعتبر بعض الباحثين أبا نصر أول واضع في العالم لنواة دوائر المعارف[٣].

وقد تأثر إخوان الصفا بالكندي في فلسفته الطبيعية، وبالمترجمين وآرائهم، وبالفارابي في إحصائه للعلوم، ووضعوا رسائلهم التي هي أشبه بدائرة المعارف التي كانت معروفة في أيامهم، كما سيأتي الكلام عن ذلك في حينه.

---

[١] ترجمها إلى اللاتينية حنا الإسباني منذ القرن الثاني عشر الميلادي، ونشرها بالعربية الأب لويس شيخو في مجلة الشرق سنة ١٩١١ عن نسخة خطية بالمكتبة الخالدية بالقدس.

[٢] نشره في ١٩٣١ الدكتور عثمان أمين ووضع له مقدمة طيبة، وعني بشعره كذلك المستشرق الإسباني بلا نسيا ١٩٣٤.

[٣]فيلسوف العرب والمعلم الثاني اصطفى باشا عبد الرازق ص ٧٠، من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

ومن أراد ثبتًا بالفلاسفة المسلمين وما ألفوا من كتب، وما ترجموا من رسائل، فليلتمس ذلك في فهرست ابن النديم، وتراجم الحكماء للقفطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة.

وإن القارئ لينتظر منا بعد كل ما تقدم أن نصدر حكمًا عامًا على الحياة العقلية في القرن الرابع الذي نحن بصدده. والحياة العقلية بلاشك تشمل كل أنواع العلوم والآداب وأصناف الفنون والصناعات. وليس غرضنا في هذه العجالة أن نتكلم عن كل نواحي النشاط العقلي عند العرب في هذه الحقبة من التاريخ، وإنما حسبنا أن وضحنا ناحية هامة منها تتعلق بموضوع كتابنا، ألا وهي ناحية الترجمة من اليونانية وغيرها، وناحية الآراء الفلسفية.

أما بقية مجالات النشاط العقلي، فلم يشهد المسلمون عصرًا زهت فيه حياتهم العقلية، وأزهرت وأتت أطيب الثمر وألذ الجنى كهذا العصر الذي نبحث عنه، وإذا درسنا الحياة العقلية لهذا العصر لم نجدفنًا من فنون العالم التي عرفها الأقدمون ولا ضربًا من ضروب الهزل والجد التي اشترك فيها الناس، إلا وقد أخذ المسلمون منه بحظ غير قليل.

أخذوا منه بحظ موفور أفاضوا عليه صبغتهم، وطبعوه بطابعهم، ولونوه بلونهم الخاص، فليس فيه ما يدل على أنه متكلف أو مستعار. ولولا أن التاريخ نفسه يدلنا على أن المسلمين قد نقلوا فنون العلم عن الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة يخيل إلى الباحث أن العلم فيهم قديم.

وأقل نظرة إلى العلوم العربية، ومدى ما وصلت إليه في القرن الرابع

كالنحو والفقه، والنقد الأدبي، و علوم البلاغة، والتفسير، والتاريخ، والجغرافيا، يدلنا على ذلك النضج العقلي، وعلى عظم التراث الذي خلفه العرب والمسلمون لمن أتى بعدهم. هذا كله بالرغم من سوء الحالة السياسية في هذا القرن، تلك الحالة التي بيناها فيما سبق، وقد ذكرنا آنفًا علة هذا النضج العقلي بإيجاز ولننتقل الآن للكلام عن إخوان الصفاء الذين ظهروا في هذا العصر المليء بالنشاط الفكري.

الفصل الثالث

إخوان الصفاء

-١-

أسماؤهم: ورد اسم إخوان الصفاء في غير ما موضع من الشعر العربي، وأقدم نص ورد فيه هذا الاسم أبيات لأوس بن حجر يندد فيها بطفيل بن مالك ابن جعفر والد عامر بن الطفيل الملقب بملاعب الأسنة في يوم السوبان:

لعمرك ما آسى طفيل بنفسه بني عامر إذ ثابت الخيل تدعى
وودع اخوان الصفاء بقرزل يمر كمريخ الوليد المقزع[1]
فرارًا وأسلمت ابن أمك عامرًا يلاعب أطراف الوشيج المزعزع
وقد علمت عرساك أنك آيب تخبرهم عن جيشهم كل مربع[2]

وورد الأسم كذلك في أبيات لأبي حناك البراء بن ربعي الفقعسي أحد شعراء الحماسة يرثى:

أبعد بني أمي الذين تتابعوا أرجى الحياة أم من الموت أجزع

(١) قرزل: اسم فرس طفيل بن مالك.

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٨٦ ج ١ طبعة ليدن

ثمانيــة كــانوا ذؤابــة قــومهم بهــم كنــت أعطــى مــا أشــاء وأمنــع

أولئــك إخــوان الصــفاء رزئهــم ومــا الكــف إلا إصــبع ثم إصــبع

لعمــرك إني بالخليــل الــذي لــه علـــى دلال واجـــب لمفجـــع[١]

ووردت صـيغة الاسـم في كتـاب كليلـة ودمنـة، في باب الحمامـة الطوقة. وقد جاء في الرسائل: "فاعتبر بحديث الحمامة الطوقة المذكورة في كتاب كليلة ودمنة"[٢]

وقد كان الإخوان معجبين بهذا الكتاب، وعنه اقتبسوا كثيرًا من الحكايات، فلا يستبعدأن يكون قد أوحى اليهم بهذه الصيغة[٣].

أما السبب الحقيقي الذي من أجله سُموا بهذا الاسم، فهو ما كان بينهم من اتحاد وامتزاج واتفاق في الغرض. وقد أحاطت هذه الجماعة نفسها بسياج متين من الكتمان، فلم يذكروا في رسائلهم ما ينم على أسمائهم أو أعمالهم، ويقولون في ذلك: "إننا لانكتم أسرارنا عن الناس خوفًا من سطوة الملوك ذوي السلطة، ولا حذرًا من شغب جمهور العوام، ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا[٤]". وإن كان هذا الكلام يحمل في طياته خوفًا من سطوة الملوك، وحذرًا من شغب جمهور العوام، فقد كانت الفتنة

---

[١] ديوان الحماسة ج ١ ص ٣٥١. مطبعة السعادة سنة ١٩٢٧.

[٢] الرسائل ج ١ ص ٦٢-٦٣ ، المطبعة العربية مصر ١٩٢٨، وسنشير غالباً إلى هذه الطبع فيما سيأتي.

[٣] راجـع رسـالة الإنسـان والحيـوان في الجـزء الثـاني ولاسـيما صـفحات ٢٧٧-٢٨٠، ج ٤ ص ١٦٨.

[٤] الرسائل ج ٤ ص ٢١٥ .

بين السنة والشيعة على أشدها في الوقت الذي ظهر فيه إخوان الصفاء؛ لأن معز الدولة بن بويه حينما استولى على بغداد – كما مر في سنة (٣٣٤)، شجع الشيعة، وعمل على إظهار مذهبهم، بيد أن جمهور الأمة في العراق آنذاك كان من أهل السنة، وكان لهم من السطوة والتأثير ما يحمل جماعة مثل إخوان الصفاء على كتمان أمرهم. وستعلم فيما بعد أن لهم أغراضًا أخرى حملتهم على هذا الكتمان، ودعتهم إلى أن يتشددوا حتى في تداول رسائلهم؛ فيقولون من حصل على هذه الرسائل: "وليتحرز في حفظها وإسرارها وإعلامها وإظهارها كل التحرز، ويحرسها غاية الحراسة، ويصنها أحسن الصيانة[١]".

ومن أجل هذا الكتمان الشديد حار الناس في أمرهم قديمًاوحديثًا، فيقول القفطي في تاريخ الحكماء: "ولما كتم مصنفوها –أي الرسائل– أسماءهم، اختلف الناس في الذي وضعها، فكل قوم قالوا قولًا، عن طريق الحدس والتخمين، فقوم قالوا: هي من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب، واختلفوا في اسم الإمام الواضع لها اختلافًا لا يثبت له حقيقة[٢].

وقد يكون لمن ظن هذا الظن، أن رسائل إخوان الصفاء من وضع بعض الأئمة شيء من العذر؛ إذ ورد في رسائلهم ما يوحي بهذا، حيث يقولون: "ومن الناس طائفة قد جعلت التشيع مكسبًا لها، مثل الفاتحة والقصاص، لا يعرفون من التشيع إلا التبري والشتم والطعن واللعنة والبكاء، وترك طلب العلم وتعلم القرآن، وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد،

---

[١] الرسائل ج ١ ص ٢٠.

[٢] مقدمة زكي باشا على رسائل إخوان الصفاء طبعة مصر ص ٢٢ ج ١.

وزيارة القبور كالنساء الثواكل يبكون على فقدان أجسادنا، وهم بالبكاء على أنفسهم أولى[1]" والشيعة طبعًا لا يبكون إلا على فقدان آل البيت.

ويقول القفطي بعد ما ذكرنا: "وقال آخرون: هي تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الأول". ولم أزل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفيها، حتى وقفت على كلام لأبي حيان التوحيدي[2]، جاء في جواب له عن أمر سأله عنه وزير صمصام[3]الدولة بن بويه، تقريبًاسنة ٣(٣٧٣)، وصورته: وقال أبو حيان حاكيًا عن الوزير المذكور: حدثني عن شيء هو أهم من هذا إلى،

(١) رسائل ج ٤ ص ١٩٩.

(٢) هو أبو حيان التوحيدي علي بن مُحَمَّد بن العباس الصوفي، كان مفتنًا في جميع العلوم، يشبه الجاحظ في عامه وأدبه، ويقال له شيخ الصوفية،

---

[1] رسائل ج٤ص١٩٩

[2] هو أبو الحيان التوحيدي علي بن مُحَمَّد بن العباس الصوفي، كان مفتنًا في جميع العلوم، يشبه الجاحظ في علمه وأدبه، ويقال له شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، وقال عنه ياقوت:كان يتأله والناس على ثقة من دينه، وقد حكم المتأخرون بزندقته فطلبه الوزير المهلبي. وقد درس الفلسفة على عدي بن زيد، وأبي سليمان مُحَمَّد بن طاهر المنطقي , وتوفي سنة ٣٨٠هـ، وقيل في سنة ٤٠٠هـ ببغداد فقيرًا معدمًا.

[3] أخطأ المرحوم زكي باشا في النقل من كتاب خيار الحكماء للقفطي، حين قال:سألني "الوزير صمصام الدولة" رسائل ص ٢٣ ، وكذلك أخطأ من تبع زكي باشا في هذا النقل، ورواية القطفي: سألني وزير صمصام الدولة —وصمصام الدولة هذا هو صمصام الدولة أبو الكيجار المرزبان بن عضد الدولة بن بويه—تولى العراق في عهد الطائع لله, وكانت مدته ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا انتهت في رمضان سنة٣٧٦هـ.أما وزيره المشار إليه فهو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان، فإن صمصام الدولة البويهي لم يكن وزيرًا إنما كان ملكًا على بغداد.

وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، وقال عنه ياقوت: وكان يتأله والناس على ثقة من دينه وقد حكم المتأخرون بزندقته وطلبه الوزير المهلبي. وقد درس الفلسفة على عدي بن زيد، وأبي سليمان مُحَّد ابن مظاهر المنطق وتوفي سنة ٣٨٠هـ، وقيل في سنة ٤٠٠ ببغداد فقيراً معدماً.

(٣) أخطأ المرحوم زكى باشا في النقل من كتاب أخبار الحناء للقفطي حين قال: سألني "الوزير صمصام الدولة" رسائل ص ٢٣، وكذلك أخطأ من تبع زي باشا في هذا النقل، ورواية القفطي: سألني وزير صمصام الدولة – وصمصام الدولة هذا هو صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة بن بويه، تولى العراق في عهد الطائع لله، وكانت مدته ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا انتهت في رمضان سنة ٣٧٦. أما وزيره المشار إليه فهو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، فإن صمصام الدولة البويهي لم يكن وزيرًاوإنما كان ملكًا على بغداد.

وأخطر على بالى! إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولا يريبني، ومذهبا لا عهد لي به، وكناية عما لا أحقه، وإشارة إلى مالا يتضح شيء منه، فما حديثه؟، وما شأنه؟ فقد بلغني يا أبا حيان، أنك تغشاه، وتجلس إليه وتكثر عنده، ولك معه نوادر معجبة، ومن طالت عشرته لإنسان، صدقت خبرته، وأمكن إطلاعه على مستكن رأيه، وخافي مذهبه. فقلت: أيها الوزير، أنت الذي تعرفه قبلي قديمًاوحديثًا؛ لاختبار، ولاستخدام، وله منك الإمرة القديمة، والنسبة المعروفة.

قال: دع هذا وصفه لي.

فقلت: ذكاء غالب، وذهن وقاد، ومتسع في قول النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس وسماع المقالات، وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن، إما بالشد الموهم وإما بالتوسط المفهم، وإما بالتناهي المفحم. ثم يقول أبو حيان عن زيد بن رفاعة هذا: "وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلًا، وصادق بها جماعة لأصناف العلم، وأنواع الصناعة منهم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي –ويعرف بالقدسي– وأبو الحسن على ابن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، وأبو الحسن العوفي وغيرهم.

"وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله[1]" وهذا المذهب هو مزج الفلسفة بالدين.

–٢–

جماعة بغداد: هذا مبلغ علمنا بأسماء مؤلفي رسائل إخوان الصفا، ولولا ما ذكره أبو حيان لعُمِيَ علينا الأمر، على أن ما ذكره لا يلقي كثيرًا من الضوء على شخصيات هؤلاء العلماء الأجلاء، الذين جاهدوا في كتمان أسمائهم وأخبارهم ولم يعثر أحد على ترجمة لأحدهم، اللهم إلا ما

[1] مقدمة زكي باشا على وسائل إخوان الصفاء منقولة عن تاريخ الحكماء للقفطي ج ١ ص ٢٤".

ذكره صاحب كشف الظنون من أن لأبي الحسن العوفي "وهو من أصحاب إخوان الصفا" رسالة في أقسام الموجودات وتفسيرها، وهي لطيفة ذكرها الشهر زوري في تاريخ الحكماء[(١)].

على أننا نستطيع أن نتصور مدى ما كان عليه إخوان الصفاء من العلم والفضل والقدرة على التصرف في كل فن من رسائلهم أولًا، ومما يذكره أبو حيان التوحيدي عن زيد بن رفاعة ثانيًا، وهو واحد منهم، بل خادمهم كما ذكر أبو حيان، فكيف بهم ؟!

ولقد كانت هناك جماعة أخرى تقيم ببغداد وعلى اتصال وثيق بإخوان الصفا، وعنها يقول أبو حيان في كتابه المقابسات[(٢)]:"ومن أعضائها أبو سليمان مُحَّد بن طاهر السجستاني، وأبو زكريا العميري، والعروضي أبو مُحَّد المقدسي ويحيى بن عدي، وأبو إسحاق الصابي، وماني المجوسي".

ويظهر أن أبا سليمان المنطقي السجستاني كان رئيس هذه الجماعة، فكثيرًا ما يقول أبو حيان: "دارت في مجلس أبي سليمان ... مناظرات"، ويقول: "أملى علينا أبو سليمان[(٣)]".

وفي هذه الجماعة الثانية أسماء أكثر وضوحًا، وأعظم شهرة من أسماء الجماعة الأولى، وحسبك بأبي سليمان المنطقي السجستاني، فهو أستاذ أبي حيان، وأبو حيان عَلَم من أعلام الأدب والفلسفة، وحسبك كذلك بأبي

---

(١) مقدمة زكي باشا على رسائل إخوان الصفاء منقولة عن تاريخ الحكماء للقفطي ج ١ ص ٣٤.

(٢) المقابسات ص ٥٧.

(٣) المقابسات ص ٥٧.

اسحاق الصابي[1]، أو يحيى بن عدي[2].

ويظهر كذلك أن أمر هذه الجماعة الثانية كان على شاكلة أختها في البصرة سريًا، فقد ثبت أن أبا العلاء المعري كان يختلف إلى مجمع فلسفي خاص، يأتلف يوم الجمعة من كل أسبوع بدار عبد السلام بن الحسين البصري –وهو الذي كان يتولى أمر مكتبة سابور بن أردشير التي أنشأها بين السورين سنة إحدى (٣٨١)– وفي هذا المجمع يقول أبو العلاء من قصيدة بعث بها إلى عبد السلام:

تهيج أشواق عروبة أنها   إليك ذوتنى عن حضور بمجمع[3]

وكان هذا المجمع السري هو الذي أسماه إخوان الصفا وذلك حيث يقول:

كم بلدة فارقتها ومعاشر   يذرون من أسف على دموعا

وإذا أضاعتني الخطوب فلن أرى   الوداد إخوان الصفاء مضيعا

خاللت توديع الأصادق للنوى   فمتى أودع خلي التوديعا[4]

---

[1] أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الحراقي الصابي، قال عنه ياقوت "كان الصابى في منزلة ابن العميد وابن عباد بلاغة وترسلا، وشعراء وحلاوة منطق، وغزارة علم باللغة والفلسفة"، ويفوقهما بثقافته الطبية والفلكية وتوفي بعد أن تجاوز السبعين سنة ٣٨٤ وظل مجوسيا لم يسلم.

[2] كان يحي رئيس أساقفة الكنيسة اليعقوبية، وكان يمثل نشاط هذه الطائفة في النقل من اليونانية وقد تتلم للفارابى، وأبي بشر متى بن يونس، ويقول عنه صاحب الفهرست وكان معاصرا له. "إنه كان وحيد عصره" وذكر له مؤلفات كثيرة.

[3] عروبة: هي يوم الجمعة.

[4] ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين ص ١٩٢ الطبعة الأولى.

وقد كان لاحتكاك أبي العلاء مع تلك الجماعة، وتعرفه إلى مختلف النظريات الفلسفية والدينية والصوفية أثر كبير في اتجاه أفكاره الفلسفية؛ فيقول الأستاذ ماكدونالد: "يظهر أن أبا العلاء قد اتصل في وقت ما، بجماعة مثل إخوان الصفاء إن لم يكونوا هم أنفسهم[١]".

يلوح لي أن هذه الجماعة تختلف بعض الاختلاف عن جماعة البصرة، في نهج دراستها، وأهدافها النهائية؛ لأن كلام أبي حيان التوحيدي لوزير صمصام الدولة يشعرنا أن أبا سليمان المنطق السجستاني رئيس جماعة بغداد، لم يكن على علم برسائل إخوان الصفاء، وأنه درسها بعد أن قدمها إليه أبو حيان وأصدر حكمه عليها، وهذا مادار بين أبي حيان ووزير صمصام الدولة، لتعرف به مدى اتصال هاتين الجماعتين:

قال الوزير: فهل رأيت هذه الرسائل ؟

قلت: قد رأيت جملة منها، وهي مبثوثة من كل فن، بلا إشباع، ولا كفاية. وهي خرافات، وكنايات وتلفيقات، وتلزيقات، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني، وعرضتها عليه، فنظر فيها أيامًا وتبحرها طويلًا، ثم ردها علي وقال:

"نقبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجروا، وحاموا وما وردوا ...... ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة (التي هي علم النجوم والأفلاك، والمقادير والمجسطى، وآثار الطبيعة، والموسيقى – الذي هو معرفة النغم والإيقاعات، والنقرات والأوزان –والمنطق– الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات

---

(١) Pro. MacDonald London 1903. Muslim Theology 199.

والكماليات والكيفيات) في الشريعة، وأن يربطوا الشريعة بالفلسفة، وهذا مرام دونه جدد، وقد تورك على هذا قبل هؤلاء قوم، كانوا أحدُّ أنيابًا، وأحفر أسبابًا، وأعظم أقدارًا، وأرفع أخطارًا، وأوسع قوى، وأوثق عرى؛ فلم يتم لهم ما أرادوه، ولا بلغوا ما أملوه، وحصلوا على لوثات قبيحة، ولطخات موحشة وعواقب مخزية[1]". فتعليق أبي سليمان السجستاني على الرسائل بعد قراءتها يدل على أنه لا يوافق إخوان الصفا على نهجهم الذي ارتضوه لأنفسهم، وهو مزج الفلسفة بالدين، وتأييد الدين بالفلسفة زاعمين أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية، فقد حصل الكمال.

ولا يعنينا هنا أن نبحث عن منهج جماعة بغداد، وإنما نقرر أن الجماعتين كانتا متعاصرتين، وأن الصلة بينهما كانت ضعيفة أو معدومة، وعلى ذلك فظن الأستاذ ماكدونالد الذي سبقت الإشارة إليه. أن أبا العلاء ربما كان قد اتصل بجماعة تشبه إخوان الصفاء إن لم يكونوا هم أنفسهم، يفهم على هذه الصورة التي أوضحناها، وهي أن جماعة بغداد كانت تشبه جماعة إخوان الصفاء في أنها سرية، تشتغل بالفلسفة، وربما كانت تشتغل بالفلسفة لذاتها، وليس لها غرض آخر من وراء اشتغالها بالفلسفة كإخوان الصفاء، الذين سنعرف فيما بعد شيئًا عن أهدافهم. ويؤيد هذا وجود أبي إسحاق الصابي الحراني من عبدة النجوم (الصابئة) وحي بن عدي المسيحي بل رئيس أساقفة الكنيسة اليعقوبية، وماني المجوسي، مع أبي سليمان المنطق السجستاني المسلم. فما الذي يجمع هؤلاء سويًا، ويدعوهم إلى تأليف مجمع سري بعيد عن شغب جمهور العوام إلا

---

[1] رسائل ج ١ المقدمة ص٢٣.

الرغبة في البحث الحر، دراسة الفلسفة لذاتها، ولاسيما وبغداد كانت على عهدهم خاضعة للحنابلة وسيطرتهم، يضطهدون كل من تجرأ على الجهر برأي مخالف، أو يظن أنه يخالف الشريعة الإسلامية ونصوصها الحرفية.

وأما تسمية أبي العلاء لهم بإخوان الصفاء، فالتسمية كانت شائعة في ذلك الوقت، ولعل أبا العلاء ظن أن هؤلاء إخوان الصفاء أو سماهم بذلك؛ لأنهم يشبهون إخوان الصفاء في تعمقهم الفلسفي، وإحاطتهم بالعلوم المعروفة في زمانهم إحاطة تامة، أو لأنه أنس بهم وبصحبتهم، ووجد في الاختلاط بهم لذة عقلية احببت إليه مجلسهم، ووجدوا فيه مفكرًا حرًا ثائرًا على كثير من تقاليد زمانه وعاداته، وأفكار العامة؛ فأحبوه وبادلوه ودًا بود، و صفاءً بصفاء فأسف حين فارقهم وأرسل هذه الأبيات لتحيتهم.

-٣-

هل الرسائل من تأليف المجريطي؟ وثمة نقطة غامضة لابد من جلائها قبل أن تنتهي من الكلام عن تحقيق أسماء إخوان الصفاء، هذه النقطة الغامضة هي ما أثاره المرحوم أحمد زكي باشا في مقدمته، التي دونت في الجزء الأول من رسائل إخوان الصفاء المطبوعة بمصر سنة (١٩٢٧). فإن زكي باشا،قال: "وقد رأيت في كتاب جلاء العينين في محاكمة الأحمدين تأليف نعمات خير الدين الشهير بابن الألوسي البغدادي، المطوع ببولاق في سنة (١٢٩٨ هـ)، كلامًا على هذه الرسائل منقولًا من كشف الظنون وعن شرح عقيدة السفاريني، وجاء في هذا الكلام الذي نقله زكي باشا: "وفي فتاوى الشيخ ابن حجر ما نصه: نسبها كثير إلى جعفر الصادق،

وهو باطل، وإنما الصواب أن مؤلفها مسامة بن قاسم الأندلسي، كان جامعًا لعلوم الحكمة من الإلهيات،والطبيعيات،والهندسة،والتنجيم، وعلوم الكيمياء وغيرها، وإليه انتهى علم الحكمة بالأندلس، وعنه أخذ حكماؤها وتوفي سنة (**٣٩٥**هـ)[١]"

وذكر زكي باشا كذلك أن المرحوم الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد، قد كتب مقدمة الرسائل إخوان الصفاء المطبوعة بمطبعة الآداب، وأنه اقتبس في هذه المقدمة عبارة للقفطي صاحب تاريخ الحكماء يُفهَم منها أن رسائل إخوان الصفاء من تأليف المجريطي.

على أن زكي باشا يذكر بعد هذا: "نعم، إن حضرة الشيخ، قال في آخر جملته: وقد علمت أن رسائل إخوان الصفاء التي ألفها المجريطي هي غير هذه؟ وذلك عقب قوله: وبعد أن شاع اسم هذه الرسائل بالأندلس، وتطلعت لها علماء الغرب، ألف أبو مُحَّد مسلمة المجريطي القرطبي رسائل على مثالها وكتم اسمه فيها ... إلخ، وهو قول نطالبه عليه بالدليل، ولا نأخذه منه قضية مسلمة، فإن هذا مما يهم المؤرخين نقله[٢]".

ويقول زكي باشا في هامش الرسائل تعليقًا على هذا: "وقد سكت الشيخ رحمه الله عن الجواب، منذ صدور إنكارنا هذا؛ لأنه لا يمكن الجواب عن شيء غير موجود بشيء غير السكوت أو الاعتراف الصريح[٣]".

---

[١] الرسائل ج ١ مقدمة ص ٣١

[٢]رسائل جـ ١ مقدمة صفحة ٣٨.

[٣]نفس المرجع.

ويحاول زكي باشا جهده في مقال طويل أن ينكر وجود رسائل المجريطي؛ فيقول: وأعلم أني قد راجعت ترجمة الحكم أبي القاسم مسلمة بن أحمد بن عمر ابن وضاع المجريطي المعروف بالحكم المجريطي، في كثير من الكتب والتواريخ ما رأيت شيئًا يدل على أنه وضع "رسائل إخوان الصفاء" أو كتابًا على نمطها فقد ذكره جم غفير من العلماء، ولم يقل أحد في سيرته قولًا ينطبق على هذا الرأي. وأقوى دليل أورده مكتفيًا به عما سواه: أن أبا الحكم الكرماني هو أول من جلب إلى الأندلس الرسائل المعروفة بإخوان الصفاء، والظاهر أن الذي أوهم بعض القوم أن هذه الرسائل للمجريطي، هو قوله في كتابه الذي سماه "رتبة الحكيم" في علم الكيمياء: (وقد قدمنا من التأليف في العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية رسائل استوعبنا فيها استيعابًا لم يتقدمنا فيها أحد من أهل عصرنا البته، وقد شاءت هذه الرسائل فيهم، وظهرت إليهم فتنافسوا في النظريات إليها، وحضوا أهل زمانهم عليها. ولا يعلم من ألف ولا أين ألف غير الحذاق منهم؛ لما دأبوا على مطالعتها؛ لاستحسانهم إياها واستعذابهم لألفاظها، وعلموا أنها من تأليف زمانهم وعصرهم الذي هم فيه، ولا يعلمون من ألفها. وكل ذلك من تلك المؤلفات مبسوط المرسوم).

ويقول زكي باشا بعد إجهاد نفسه في البرهنة على نظريته: "وغاية ما أراه في هذا الشأن أن لهذا الحكم كتابًا آخر أو كتبًا متعددة لم يضع اسمه عليها".

فلما رأى الناس عبارته في "رتبة الحكيم" وكانوا يبحثون عن مؤلف "رسائل إخوان الصفاء" دون جدوى، ظنوا أنهم أدركوا الطلبة، وأصابوا

الغرض، فنسبوا له هذه الرسائل، من غير تمعن ولا تدبر[1]".

هذه هي النقطة الغامضة التي أثارها زكي باشا والتي تحتاج منا إلى توضيح فما تقدم ترى أن الآراء ثلاثة:

١- رأي ابن حجر وهو أنها من تأليف الحكيم المجريطي.

٢- رأي الشيخ علي يوسف وهو أن هناك نوعين من الرسائل: رسائل إخوان الصفاء التي بين أيدينا، ورسائل غيرها لحكيم المجريطي.

٣- رأي زكي باشا وهو ينكر إنكارًا تامًا نسبة الرسائل للمجريطي أو أنه ألف شيئًا على نمطها، ويؤكد أنه لا يوجد إلا هذه الرسائل المعروفة المنسوبة إلى جماعة البصرة.

فأي هذه الآراء أصح؟ وما الدليل الذي يقدم على صحته؟

الواقع هو أن هناك نوعين من الرسائل: الأولى لجماعة البصرة، وهي هذه التي نتكلم عنها، والتي تنسب إلى إخوان الصفاء الذين ذكرنا بعض أسمائهم في هذا الفصل نقلًا عن أبي حيان التوحيدي؛ والأخرى ألفها أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي المتوفي سنة (٣٩٥هـ) على نمط رسائل إخوان الصفاء المشهورة، في إحدى وخمسين رسالة مثلها، وجعلها كرسائل إخوان الصفاء على أربعة أقسام: أربع عشرة رسالة في العلوم الرياضية الفلسفية، وسبع عشرة رسالة في الجسمانية الطبيعية وعشر رسائل في النفسانية العقلية، وعشر أخرى في الناموسية الإلهية.

---

[1] رسائل ج ١ مقدمة صفحة ٤١.

وهناك نسختان في دار الكتب المصرية من رسائل الحكيم المجريطي، نسخة تيمور باشا، وهي على ما يظهر أقدم النسختين وأوفاها، وإن وقع بها خرم ما بين صفحتي (١٠٢، ١٠٣) ذهب فيه آخر الرسالة الرابعة عشرة من القسم الأول "العلوم الرياضية الفلسفية" وسبع رسائل من القسم الثاني "العلوم الجسمانية الطبيعية"، وقد أكملته دار الكتب في النسخة الفوتوغرافية الموجودة تحت رقم (٣٠٠٦)، وكذلك في النسخة التي عملت المجمع العلمي بدمشق.

والنسخة الثانية من هذه الرسائل هي نسخة دار الكتب المصرية الموجودة تحت رقم ٤١ حكمة، وهي نسخة خطية غير كاملة، ومكتوب على الصفحة الأولى منها: "هذا سفر فيه وسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وربما نعتت بالرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة، للمجريطي".

فكيف تشابه الاسمان؟، وكيف اتحدا في عدد الرسائل، وفي تقسيمها إلى أربعة أقسام، وفي عدد رسائل كل قسم؟، وهل هناك علاقة بين رسائل إخوان الصفاء للمجريطي، والرسائل التي بين أيدينا؟

لقد وازنت بين هذه الرسائل وتلك، فوجدت مشابهة عجيبة في الأسلوب، وفي الفكرة، وفي المعلومات، بل هناك عبارات بنصها في كليهما، ولكن رسائل المجريطي أقصر، وليس فيها تلك العناية الملحوظة في رسائل إخوان الصفاء بالعلوم الرياضية، نعم، هناك رسائل في العلوم الرياضية، ولكنها توضح أشياء أخرى تتعلق بأسرار الأعداد، وفلسفة العدد، وعلاقته بالله وبالموجودات. ثم إن المجريطي يتصرف في الرسالة

بأكملها، فيقدم فيها ويؤخر، ويعبر بكلمات من عنده عما ورد في رسائل إخوان الصفاء المشهورة، ولقد خرجت بعد الموازنة بالنتيجة الآتية:

وهي أن رسائل المجريطي محاضرات، وتلخيص، وشرح، وتعليق، على رسائل إخوان الصفاء المشهورة، أملاها على تلاميذه بالأندلس، بعد أن درس رسائل إخوان الصفا دراسة جيدة، وفهمها فهمًا تامًا.

أما علاقة المجريطي بإخوان الصفاء، فهناك احتمالان: إما أن يكون المجريطي قد اتصل بإخوان الصفاء بالمشرق، ومعلوم أن الرحلة من الغرب إلى الشرق، ومن الشرق إلى الغرب كانت مألوفة في ذاك الوقت ولاسيما رحلة العلماء، ثم عاد إلى موطنه بالأندلس يحمل هذه الرسائل– وقد كان معاصر الإخوان الصفاء إذ توفي سنة (٣٩٥ هـ)كما تقدم– وأخذ يملي على تلاميذه شرحًا لها وتعليقًا عليها يوضح ألغازها، وقد يكون هذا الشرح نفسه من عمل إخوان الصفاء أنفسهم حمله المجريطي معه فيما حمل، وسماه الرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة، فقد ورد في آخر رسائله ما يأتي:

"فصل: ولما انتهى بنا القول إلى هذا المكان، من شرح الرسائل الإحدى والخمسين رسالة، في هذه الرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة؛ فلنلحقها بشرح رسالة عشرة إخوان الصفا وخلان الوفا".

ونستنتج من هذه الكلمة أمرين:

(١) أن كتابه هذا شرح لرسائل إخوان الصفا، وأيد هذا بقوله: فلنلحقها بشرح رسالة عشرة إخوان الصفاء.

(٢) أنه سمى كتابه الرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة.

أما سبب تسميته لكتابه بالرسالة الجامعة، فهو أن إخوان الصفا قد أشاروا في كثير من المواضع في رسائلهم إلى أن هناك رسالة جامعة، تحل رموز رسائلهم، وتفسر ما غمض منها، بل صرحوا في فهرسهم بهذه الرسالة حيث قالوا: "تم الكلام على الرسائل، وتليها الرسالة الجامعة لما في هذه الرسائل المتقدمة كلها، المشتملة على حقائقها بأسرها، والغرض منها إيضاح حقائق ما أشرنا إليه، ونبهنا في هذه الرسائل عليه أشد الإيضاح والبيان، يأتي على ما فيها فتتبين حقائقها ومعانيها، ملخصة مستوفاة، مهذبة مستقصاه، ببراهين هندسية يقينية، ودلائل فلسفية حقيقية، وبينات علمية، وحجج عقلية، وقضايا منطقية، وشواهد قياسية، وطرق إقناعية، لا يقف على كنهها، ولا يحيط بحقائقها، ولا يحصل شيئًا منها، إلا من ارتاض بما قدمنا، وحذق وعرف وتدرب فيها؛ إذ هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها والمدخل إليها، والأدلة عليها، والنموذجمنها، لا يتفتح غلق مفتاحها، ولا ينكشف مستور غامضها إلا لمن مهذب بهذه الرسائل الاثنين والخمسين أو بما شاكلها من الكتب. والرسالة الجامعة من رسائلنا هي منتهى الغرض لما قدمناه وأقصى المدى ونهاية القصد وغاية المراد[1]".

والرسائل التي بين أيدينا لا تحوي إلا إحدى وخمسين رسالة، أما الرسالة الجامعة التي أشاروا إليها فغير موجودة في النسخ التي بين أيدينا.

فالاحتمال الأول: كما ذكرنا، هو أن المجريطي كان أحد إخوان الصفا، وقد وقف على سر الرسالة الجامعة؛ فأملاها على تلاميذه في هذا السفر

---

[1] رسائل جـ ١ ص ١٩.

الذي ذكرنا أن منه نسختين بدار الكتب المصرية.

والاحتمال الآخر: وهو أن الرسائل قد وصلت إلى الأندلس بطريقة ما، وكان المجريطي أحد المشتغلين بالحكمة المشهورين في العلوم الفلسفية؛ فقرأها، وفهمها، وأغراه ماورد بها من إشارة إلى الرسالة الجامعة، وأنه لا يقف على كنه رسائل إخوان الصفا إلا من ارتاض بما قدموه وحذق وعرف وتدرب وتمهر فيها، فأملى هذا الكتاب شرحًا وتوضيحًا لرسائل إخوان الصفا، مدعيًا أنهاالرسالة الجامعة التي أشاروا إليها في العبارة التي نقلناها عنهم.

ومما يدل على أنه أملاها تكرار هذه العبارة في ثنايا كتابه وهي "قال الحكيم"، والحكيم هو المجريطي فقد اشتهر بهذا، وأما ما ورد من أن الكرماني تلميذه هو أول من أدخل رسائل إخوان الصفاء إلى الأندلس، فيظهر أنه بعد وفاة أستاذه المجريطي عثر في مكتبته على الرسائل الأصلية لإخوان الصفا التي أملى المجريطي عليها هذا الشرح، أو أن الكرماني حملها من المشرق ودفعها إلى المجريطي، فأذاعها في الأندلس وعرف الناس بها.

والقارئ لكتاب المجريطي يدرك من أول وهلةٍ أنه يعلق على رسائل إخوان الصفا ويشرح ما غمض فيها، ويحاول أن يأتي بجديد ليس في الرسائل الأصلية، وإليك مثلًا بعض ما ورد في آخر كتابه في تلك الرسالة التي ختم بها الرسائل الإحدى والخمسين، والتي سماها: "عشرة إخوان الصفا وخلان الوفا"، فهذه الرسالة وردت في الرسائل الأصلية ضمن القسم الأخير "العلوم الناموسية الإلهية" وهي الرسالة الخامسة والأربعون في

مجموع الرسائل، ويمكن الاطلاع عليها بسهولة، ولكن المجريطي أتي في رسالته بما لا يوجد في رسائل إخوان الصفا، قال:

"أعلم أن الذي يجب علينا أن نوصيك به، ونلقيه إليك، ونبلغك إياه، ونعتمد فيه عليك من مراعاة إخوانك، ومن قبلك من أصحابك، ومن استجاب إليك، ويستجيب إن شاء الله، أن تجعل لهم مجلسًا يجمع جماعتهم في كل اثنى عشر يومًا يومًا واحدًا يجتمعون حيث ما اتفق لهم من مواضعهم، وأمكنهم، بحيث يأمنون فيه على أنفسهم، ويكون اجتماعهم على تقوى من الله، ويتطهرون قبل حضورهم. فإذا اجتمعوا بحيث تراهم، ولا يقعد أحد منهم إلا لعذر يمنعه من القدوم عليك، والوصول إليك، فأبرز إليهم واخرج عليهم في زيك، وجليل هيبتك، كبروز النفس الكلية للنفوس الجزئية؛ إذ هم لك كالأولاد، وأنت لهم كالوالد......إلخ".

ويقول في آخرها: "فإذا استخلصتهم ورضيت سعيهم، بعد إيقاعك المحنة بهم، في أمور دنياهم، ومواضع المحبوبات منهم. أما في المطلوبات إذا أمرتهم بفقد الأقارب في الله فعلوا، وصلة الأباعد في الله فامتثلوا، ونفقة الأموال في سبيله فأنفقوا، والجهاد بالأنفس فبذلوا، والسعي فيما يرضي الله فسعوا، والخروج من الأوطان في الله فخرجوا، وفارقوا الأحباب، ويتموا الأولاد، ورملوا النساء، وفارقوا البلاد والأوطان؛ فعند ذلك إذا صبروا على هذه المحن، فاهدهم بعلمك، وطهرهم بماء الحياة، واقرأ عليهم الكتب المصونة، والأسرار المخزونة، والعلوم المكنونة، بشرح ما في هذه الرسالة الجامعة، وما في غيرها من الكتب التي ألفناها إليك وأودعناها عندك.

ويقول بعد هذا: "وأوقفهم على الأسرار، وعلى معاني الأخبار، والروايات، والأمثال، والإشارات، والعلامات... إلخ".

فتعيين يوم يجتمع فيه الإخوان كل اثنى عشر يومًا، وكيفية الخروج عليهم وامتحانهم بهذه المحن الكثيرة، كلها أمور لم ترد في الرسائل الأصلية، وتفصيلات لم يشيروا إليها. وعلى هذا النمط جميع رسائل المجريطي بالنسبة لرسائل إخوان الصفا.

والخلاصة: أن زكي باشا لم يطلع على رسائل المجريطي فأنكر وجودها إنكارًا تامًا، والشيخ على يوسف سمع بها ولكن لم يقرأها فحكم أنها غيرها، وقال: "وبعد أن شاع اسم هذه الرسائل بالأندلس، وتطلعت لها علماء الغرب ألف أبو مُحَمَّد مسلمة المجريطي القرطبي رسائل على مثالها، وكتب اسمه فيها...إلخ".

ورأيه مع هذا أصح الآراء الثلاثة، أما رأي ابن حجر، وهو أن الرسائل جميعها من تأليف المجريطي فغير صحيح البته لوجود نوعين من الرسائل كما بينا.

وقد ورد في مجلة **Revue de l' histoire de religions** تعليقًا للأستاذ **M, Basset**

على مقالة[١] للأستاذ كازانوفا، يدعي فيها: أنه عثر على مخطوط فيه الرسالة الجامعة التي أشار إليها إخوان الصفاء، بقوله: "يجب أن نلاحظ أن

---

[١] هذا المقال منشور بالمجلة الأسيوية عدد يناير وفبراير سنة ١٨٩٨ ص ١٥١- ١٥٩ وسنشير إليه مرة أخرى.

هناك مجموعة أخرى من رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا المعروفة بالرسالة الجامعة ذات الفوائد النافعة للمجريطي القرطبي، وتوجد في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم (٢٣٠٦) والموجود ليس كاملًا إذ يحتوي على ست وعشرين رسالة من الأول.

وهناك جزء تحت رقم (٢٣٠٧). وقد أشار ابن خلدون وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء (جـ ٢ ص ٣٩) إلى هذه الرسائل التي ألفها المجريطي.

ويجب قبل البت في كلام كازانوفا، وأنه عثر على الرسالة الجامعة لإخوان الصفا الموازنة بين هذه الفصول التي وجدها، ورسائل المجريطي".

–٤–

هل ألفها أحمد بن عبد الله؟: وقد أثار المرحوم زكي باشا كذلك في مقدمته المنشورة في الجزء الأول من الطبعة الأخيرة لرسائل إخوان الصفا– مصر(١٩٢٧)– موضوعًا استدعى نظري وهو: "أن هذا الكتاب قد تم طبعه كله في بلاد الهند، وقد قيل في آخره: إن المؤلف هو رجل يُدعَى أحمد بن عبد الله ولا أرى هذا الاسم إلا مرادفًا لهي بن بي، والأغرب من هذا وذاك قوله بأن الرجل مترجم في كتاب اسمه "عيون الأخبار" لمن يدعي "إدريس عماد الدين"، مع أن لهذاالكتاب أثر لاعين، وليس له مسمى في الوجود. وقد تحققت بأن هذه العبارات إنما هي تلفيق ومحض اختلاق، وذلك لأنني كابدت مشقة عظيمة في البحث عن أمر هذا الكتاب المزعوم، وعن شأن ذلك الرجل الموهوم، وكل ما يتعلق به مما هو مدون زورًا وبهتانًا

بآخر تلك الطبعة، ولما لم أعثر على شيء، وداخلتني الريبة، واختلفت عندي الظنون، كاشفت بهذا الأمر أحد العارفين[1]"، وهنا ذكر زكي باشا جواب هذا العارف: بأن السبب في ذكر اسم مؤلف إخوان الصفا هو رغبة أصحاب المطبعة في احتكار طبع الكتاب وبيعه في بلاد الهند.

ولكن الأمر أعمق مما وهم زكي باشا، ولم يُذكَر اسم مؤلف إخوان الصفا بطبعة بومباي إلا لأمر أهم وأعظم من احتكار الطبع، وتحقيق هذه المسألة: أن الشيعة بعامة، والإسماعيلية منهم خاصة يعتقدون أن رسائل إخوان الصفاء من الكتب ذات الأثر العظيم في مذهبهم- وسنتكلم عن هذا بتوسع فيما بعد ولهذا نسبوها إلى أحد الأئمة من آل البيت، وقد ذكرنا آنفًا أن ابن حجر كان "ينسبها كثيرًا إلى جعفر الصادق"، ونجد الآن أن طبعة الهند التي يشير إليها زكي باشا تنسبها إلى أحمد بن عبد الله".

فمن أحمد بن عبد الله هذا؟ وهل هو اسم منتحل أو حقيقي؟ وهل هو مؤلف رسائل إخوان الصفا؟

لقد رد على زكي باشا عبد الحي الحويزي العربي[2] في رسالة تسمى

---

[1] ج ١ مقدمة س ٣٦.

[2] عثرت على هذه الرسالة في مكتبة صديقي العلامة السيد محب الدين الخطيب، ووجدته قد علق عليها وعلى اسم مؤامها بقوله: هذا الرجل من أتباع مُحَمَّد على اللاهوري تأمين غلام أحمد القادياني وكل مزيته في هذه الرسالة اطلاعه على كتاب عيون الأخبار في مكتبة طاهر سيف الدين سلطان البهرة في الهند.. أما وصفه الطاهر سيف الدين بأنه العالم الرباني فيدل على عدم مبالاته بما تفترق به البهرة الإسماعيلية عن قافلة المحمديين، وكنا نود لو أنه زاد في هذه الرسالة شيئًا من المعلومات عن أحمد بن عبد الله لجلاء شخصيته التاريخية إن كان في عيون

"العسل المصفى في تحقيق اسم مصنف رسائل إخوان الصفا"، وذكر أن أحمد بن عبد الله بن عقب جعفر الصادق، وأنه وجد في كتاب "عيون الأخبار" لإدريس عماد الدين- الذي أنكر زكي باشا وجوده- ترجمة أحمد بن عبد الله، وأن إدريس عماد الدين قد ألف كتبًا كثيرة وكل كتبه خطية، ومنها كتاب عيون الأخبار في سبعة مجلدات خطية صنفها جميعها في القرن التاسع ما بين سنة اثنين وثلاثين وبين سنة اثنين وسبعين بعد ثمانمائة من الهجرة، وأنه نقل من الجزء الرابع منه العبارة الآتية: "ولما خشي السيد أحمد بن عبد الله أن يزيغ المسلمون عن الشريعة المحمدية إلى علوم الفلاسفة، ألف رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وجمع فيها من العلوم والحكمة والمعارف الإلهية والفلسفية والشرعية"، ويذكر أن صاحب كتاب قلائد الجواهر المصنف بالفارسية، قال في الصفحة السابعة والعشرين من كتابه: "إن العلامة الفهامة أحمد بن عبد الله هو مصنف ثلاث وخمسين رسالة موسومة بإخوان الصفا، وخلان الوفا". ويظهر لي من التحقيق الذي قمت به أن الشيعة الإسماعيلية مجمعون على أن رسائل إخوان الصفا من تأليف أحد الأئمة من آل البيت، وأن هذا الإمام هو أحمد بن عبد الله.

وقد وجدت في الكتاب الذي ألفه أغاخان زعيم طائفة الإسماعيلية وعنوانه "نور مبين حبل الله المتين[١]"، أن سبب تأليف رسائل إخوان الصفا

الأخبار شيء من هذا. وهذه الرسالة لا تتجاوز تسع عشرة صفحة صغيرة، وليس فيها شيء من التحقيق إلا النقل عن عيون الأخبار.

[١]وجدت هذا الكتاب كذلك في مكتبة صديقي السيد محب الدين الخطيب وهو باللغة الأردية في ستمائة وستين صفحة من القطع الكبير، محلى بالصور الكثيرة لأغاخان وأسرته، وشجرة نسبه. والأماكن المقدسة لديهم.

أن عامة المسلمين توجهوا إلى الأمام "وفيّ أحمد"- وكان باب العلم- ليعرفهم الفرق بين الدين والفلسفة فاستجاب لهم، وألف رسائل إخوان الصفا في اثنين وخمسين رسالة وأخفى اسمه لأسباب سياسية ونشره باسم "مايون" وحروفها بالجمل تساوي "وفي أحمد".

ولما اطلع المأمون على هذه الرسائل ذُهِلَ، وأيقن أن مؤلفها ليس من العلماء المغمورين، بل لابد أن يكون أحد الأئمة، ورأى أنه في حاجة إليه؛ لإصلاح أمور الدولة وشئونها، حد في البحث عنه.

ثم جاء أحد دعاة "وفى أحمد" ويُدعى أبا ترمذي، وقابل الخليفة، وأظهر المأمون أثناء محادثته معه أنه من المعتقدين المخلصين في الإمام، وطلب من أبي ترمذي أن يدله على مكانه فأبى، فقتله المأمون.

ولما بلغ الإمام الخبر وهو بلدة "سلمية" خشي على نفسه، فقام بسياحة كبيرة زار فيها الكوفة ثم بلاد الديلم، ثم رجع إلى "سامية" مارًا بمعسكر مكرم، وبعد أن أقام مدة بسلمية قصد بلدة محمود آباد، ومات هناك في سنة (٢١٢ هـ). وتولي الإمارة بعده ابنه "تقي مُحَّد"، واسمه الحقيقي أحمد بن عبد الله بن مُحَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، و"تقي مُحَّد" لقب له، وإليه تنسب رسائل إخوان الصفا[1]، لأنه هو الذي أذاعها بعد وفاة أبيه.

ومما تقدم تبين أن زعيم الإسماعيلية يعتقد، وأتباعه كذلك يعتقدون تبعًا له، أن رسائل إخوان الصفا من تأليف أحمد بن عبد الله بن مُحَّد بن إسماعيل

---

[1]ص ١٤٦ من الكتاب المذكور في الصفحة السابقة.

بن جعفر الصادق، وقد ذكر الدكتور حسين الهمداني في مقالٍ له بعنوان "الدعوة الإسماعيلية وآدابها[١]" أن آداب الدعوة محفوظة في خزائن اليمن والهند، وأن تاريخ الدعوة الإسماعيلية باليمن موجود في مؤلفات الداعي إدريس عماد الدين القرشي المتوفي في القرن التاسع الهجري.

ثم قال: "وفرقة الإسماعيلية يعتقدون في إمامة إسماعيل بن جعفر وابنه مُحَّد بن إسماعيل، وأولاده الثلاثة: عبد الله بن مُحَّد، وأحمد بن عبد الله، والحسين ابن أحمد، وهؤلاء الثلاثة هم من الأئمة المستورين" ويستشهد في مقاله بعبارات من كتاب عيون الأخبار للداعي إدريس عماد الدين، ويذكر أنه سبعة أجزاء من كل هذا يتضح لنا:

١- أن أحمد بن عبد الله هو من نسل جعفر الصادق.

٢- وأن الإسماعيلية يعتقدون أنه مؤلف رسائل إخوان الصفا.

٣- وأن وجود اسمه على طبعة بومباي، إنما جاء بناءً على هذا الاعتقاد لا لسببٍ آخر كما ذكر زكي باشا.

٤- وأن كتاب "عيون الأخبار" لإدريس عماد الدين موجود بالهند واليمن، وهو في الهند في مكتبة طاهر سيف الدين سلطان البهرة وزعم إسماعيلية البهرة[٢].

---

[١] مجلة المعرفة السنة الأولى نوفمبر سنة ١٩٣١ ص٧٩٧ والدكتور حسين الهمداني يمني الأصل متخرج في جامعة لندن وهو من متعصبي إسماعيلية البهرة ودعاتهم ومستعرض البعض آرائه عند الكلام على علاقة إخوان الصفا بالإسماعيلية.

[٢] هم غير إسماعيلية أغاخان.

ولسنا ندري على وجه التحقيق مدى علاقة أحمد بن عبد الله بمؤلفي إخوان الصفاء، وربما كان واحدًا منهم؛ لأنه حسب ما ذكر التاريخ عاش في أواخر القرن الثالث، ولكن مما لا جدال فيه أن رسائل إخوان الصفاء، ليست من تأليف شخصٍ واحد بل من تأليف جماعة متعددة، تابينتمعارفهم، وأساليبهم، وهذا واضح جدًا في رسائلهم، وربما كان منهم بعض آل البيت، فقد ظهر ما نم عنهم في كثير من الرسائل، وعلى كلٍ، فستعلم فيما بعد علاقة إخوان الصفاء بالشيعة بعامة، والباطنية منهم بخاصة.

الفصل الرابع

زمانهم ومكانهم

-١-

زمانهم: مر بنا أن الخلافة العباسية قد أصيبت بضربة قاضية، لم تترك فيها إلا ذماءً يسيرًا، على يد أحمد بن بوية الملقب بمعز الدولة في سنة (٣٣٤هـ)، إبان خلافة المستكفي بالله. وعرفنا أن آل بوية كانوا من الشيعة، وأن أحمد هذا همَّ بإزالة الخلافة العباسية من أساسها، لولا أن نصحه بعض المخلصين له.

كان استيلاء آل بوية على ملك بغداد فوزًا للشيعة، وتشجيعًا لهم على الظهور، والعمل على توطيد دعوتهم ونشرها في مختلف الأمصار، نعم قد ظهر القرامطة في البصرة من قبل، ولكن ثورتهم وجموحهم، وما صاحب أعمالهم من شذوذ وجرائم أغضبت عامة المسلمين، جعلت كثيرًا من الشيعة المعتدلين ينفرون من اسمهم، وقد مر بنا كتاب المهدي عبيد الله العلوي إلى أبي طاهر زعيم القرامطة، ينكر عليه أعماله، ويقول له: "لقد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد"، ومر بنا كذلك أن القرامطة قد هاجموا مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي؛ ولذلك لم يكن أصحاب الدعوة السرية راضين عنهم كل الرضا.

ولم تسمع بإخوان الصفاء، ورسائلهم قبل سنة (٣٣٤ هـ)، ويظهر

أنهم تشجعوا بمجيء آل بوية وأظهروا من أمرهم ما كان خافيًا، وأنهم كانوا موجودين قبل هذا ولكنهم لم يتجرؤوا على إظهار رسائلهم قبل هذا التاريخ.

وقد مر بنا كذلك حديث أبي حيان مع وزير صمصام الدولة بن بوية، وأنه حمل عدة من الرسائل إلى شيخه أبي سليمان المنطقي، وأن هذا كان في حدود سنة (٣٧٣)، أي الوقت الذي تولى فيه صمصام الدولة ملك العراق.

مما تقدم نرجح أن الرسائل ألفت بين سنتي (٣٣٤ هـ، ٣٧٣ هـ)، أما الأستاذ "كازانوفا" في المجلة الأسيوية فيسلك سبيلًا عجيبًا في تحديد تاريخ إخوان الصفاء حين يعلق على مقال للأستاذ "ماسينيون" في هذا الموضوع[1]؛ فيقول:

"إني أجد في النسخة التي بين يدي المطبوعة في بومباي(١٣٠٥-١٣٠٦هـ) ما يطابق النسخة الخطية الموجودة بمكتبتنا، وإنني سأحاول أن أعين التاريخ بناءً على إشارة فلكية عجيبة، يمكن تفسيرها بثقة واطمئنان. فقد جاء في الجزء الرابع من الطبعة المذكورة (ص١٩٤): "إن من خواص إخواننا الفضلاء أهم العلماء بأمور الديانات، العارفون بأسرار النبوات، المتأدبون بالرياضيات الفلسفية، وإذا لقيت أحدًا منهم، وآنست منه

---

[1] مقال ماسينيون هو: Sur la date de la Composition de Rasil Ikwan-al-Sate وقد ذكر ديبور هذا المقال في دائرة المعارف الإسلامية ضمن المراجع التي لم يذكرها بروكلمان، وهو موجود عجلة Der Islam العدد الثاني عشر. أما مقال كازانوفا، فهو منشور في المجلة الأسيوية عدد يناير سنة ١٩١٥ وعنوانه Une date Astoronomique dans les Epitre des Ikhwan Assafa.

رشدًا، فبشره بما يسره، وذكره باستئناف دور الكشف والانتباه، وانجلاء الغمة عن العباد بانتقال القران من برج مثلثات النيران إلى برج مثلثات النبات والحيوان، في الدور العاشر الموافق لبيت السلطان، وظهور الأعلام[١]".

ويقول كازانوفا: "إن إخوان الصفاء قد علموا أن ثمة ظاهرة فلكية ستظهر في السماء وتكون ملائمة لهم. وكتابة الرسائل يجب أن تكون في هذا التاريخ".

ثم يحاول أن يفك هذا الطلسم، ويحل اللغز، وينتهي بقوله: "إن التاريخ المشار إليه هو(١٩ من نوفمبر ١٠٤٧ أو ٢٦ من جمادى الأولى ٤٣٩ هـ)".

ثم يقول فيص(ص ١٥): "وهذا التاريخ هو انتصار منتظر للفاطميين، الذين ينتمي إليهم إخوان الصفاء بلا شك.ففي(١٣ من ذي القعدة ٤٥٠ هـ) الموافق أول ينار (١٠٥٩) أي بعد أحد عشر عامًا وأربعة عشر يومًا، بعد هذا التنبؤ، دُعِي للخليفة الفاطمي المنتصر ببغداد[٢]".

---

[١] في طبعة مصر سنة ١٩٢٨، وردت هذه الفقرة في ص ١٩٨ الجزء الرابع.

[2] **CI Huart Histaire des Arabs. I. p 354**

وتاريخ الأمم الإسلامية– الدولة العباسية للمرحوم الحضري بك ص ٤١٧، ٤٢٣ ويشير إلى محاولة البساسيري، "وهو غلام ذكي من مماليك بهاء الدولة، إزالة الخلافة العباسية عند ضعف آل بوية، واستهانة الخليفة بالسلطان طغرل بك السلجوقي، ودخول طغرل بك بغداد في سنة ٤٤٨ هـ، ثم تمكن البساسيري بمعاونة جند مصر من دخول بغداد في ٤٥٠، وخطبته في مسجد المنصور لصاحب مصبر، وأذانه بخير العمل، واستمر فيها سنة كاملة، إذ خرج منها على يد السلجوقيين في ٦ من ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ.

"حقًا أن هذا الانتصار لم يستمر إلا أمدًا يسيرًا، وأعقبه عصر انحطاط وخمول، ولكن الفرقة المذكورة كان لها عزاء في ظفر آخر مرتقب".

"ومن هذا يظهر أن تاريخ كتابة الرسائل بلا شك قد وقع قبل هذا التاريخ".

ويقول الأستاذ كازانوفا بعد هذا: "ألا يمكن أن نعين التاريخ تعيينًا أدق من ذلك؟ نعم، ولا شك؛ فإذا نظرنا إلى فقرة أخرى من الرسائل، وعلمنا أن الشيعة اختلفوا فيما بينهم حول المهدي، أو الإمام المنتظر، فمنهم من قال إنه مختف، ولن يظهر إلا في آخر الزمان، وهذه هي فرقة الإثنى عشرية، التي تقول بأن الإمام الثاني عشر اختفى ولن يرجع إلا في آخر الزمان، وهو لم يمت بل ينتظر نهاية العالم؛ حتى يظهر في صورة المهدي".

"وقد ترك الفاطميون حين ملكوا مصر فكرة الإمام المختفي، ودعوا للإمام الحاكم في الخطبة، والذي تضرب باسمه النقود، أو الإمام الظاهر الحاكم وهذه الفقرة من إخوان الصفا تثبت صلتهم بالفاطميين، أو أنهم على آرائهم، ولاسيما في الإمامة: "ومن الشيعة من يقول إن الإمام المنتظر مختفٍ من خوف المحلقين، كلا بل هو ظاهر بين ظهرانيهم، يعرفهم، وهم له منكرون".

ج ٤، ص ١٩٦ طبعة بومباي[1]".

ويقول كازانوفا: "أو ليس في كلمة (ظاهر) هنا تلاعب باللفظ، وإشارة خفية دقيقة للخليفة الفاطمي- الظاهر لإعزاز دين الله- الذي حكم بين

---

[1] في الطبعة التي بين أيدينا سنة ١٩٢٨ جاءت هذه الفقرة في ص ١٩٩١٩٩ج٤، ووردت فيها كلمة المخالفين بدل المخلفين.

(٤١١– ٤٢٧هـ) فيه بعد الحاكم بأمر الله". "وبذلك تكون كتابة الرسائل وقعت بين(٤١٨– ٤٢٧هـ)".

وهذه طريقة عجيبة في تحقيق الحوادث التاريخية، فلا بدع إذا أدت إلى نتيجة أعجب، ظاهر بطلانها؛ لأسباب واضحة منها:

١– أن ما ذكره إخوان الصفا لا يتوجب أن تكون رسائلهم قد اختير لها هذا الوقت الملائم الذي أشاروا إليه؛ لأن التنبؤ بالمستقبل قد يكون لسنين عديدة، وقد يصدق، وكثيرًا ما يكذب. ثم إن العبارة التي يذكرون فيها الإمام المنتظر بأنه ظاهر، ليس فيها ما يشير أبدًا إلى الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، وهو توهم محض من الأستاذ كازانوفا.

٢– تبين من كلام أبي حيان التوحيدي الذي تقدمت الإشارة إليه، أن الرسائل كانت مؤلفة في ذلك الوقت، لأنه قرر أنه حمل طائفة منها إلى شيخه أبي سليمان المنطقي، وقد علمنا أن حكم صمصام الدولة انتهي في سنة(٣٧٦ هـ) وأن أبا حيان قد توفي في سنة (٣٨٠هـ) على حد قوله.

٣– مر بنا أن المجريطي قد لخص الرسائل وشرحها، وأنه قد توفي في سنة(٣٩٥هـ) بالأندلس. فلا شك أن الرسائل كانت معروفة له من قبل؛ لذا أعتقد أن الأستاذ "كازانوفا" لم يكن موفقًا في الطريقة التي لجأ إليها، ولا في الحكم الذي وصل إليه، وأن تاريخ كتابة الرسائل، وظهور إخوان الصفاء كان بحسب ما قررناه آنفًا بين سنتي(٣٣٤–

٣٧٣ هـ)، ويؤيدنا في هذا "ديبور" في دائرة المعارف الإسلامية وإن لم يعلل؛ لأن المعروف في التاريخ أن إخوان الصفا ظهروا في منتصف القرن الرابع الهجري دون تحديد السنة.

-٢-

مكانهم: هذا ما كان من تحقيق زمانهم، والوقت الذي ظهروا فيه، وما دار حوله من جدل، أما مكانهم فلا خلاف في أنهم ظهروا بالبصرة، واتخذوا مركزهم الرئيس بها، ولا يوجد بالرسائل نصٌ واحد يدل على ذلك، بيد أن القفطي، قال: "وقد أقام زيد بن رفاعة بالبصرة زمانًا طويلًا، وصادق بها جماعة أصناف العلم... إلخ"، وقد تقدم أن زيد بن رفاعة كان أحد إخوان الصفا.

ولا غرابة في أن تكون البصرة مباءة هذه الجماعة، وهي منذ أُسسِت في عهد عمر بن الخطاب عاصمة الإسلام في العلم، ومحط كثيرٍ من رجال الفرق الدينية الكثيرة التي حادت عن جادة الدين، أو حاولت تحميل العقيدة الإسلامية ما تأبه أو تضيق به، ففيها ظهر المرجئة والقدرية، وفيها نشأ الحسن البصري، وواصل بن عطاء زعيم المعتزلة، وفيها ظهر النظام الذي خلط الدين بالفلسفة وخاض في الجزء الذي لا يتجزأ، وفي الطفرة والتوالد والجوهر والعرض، وغير ذلك من المسائل التي تبعد عن منهج الدين الفطري.

وفيها قام عبد الله بن ميمون بن ديصان بفتنة القرامطة، التي أزعجت المسلمين، وهاجمت الحجيج، وغلت في التشيع، وهم أصل مذهب

الإسماعيلية. وفي البصرة قام أبو الحسن الأشعري يتنصل من الاعتزال، ويفند أقوال أمته، ويجادل وينافح عن عقيدة أهل السنة.

وكان بالبصرة حلقات للعلم من كل فنٍ وصنف، وفي مربدها ينشد الشعراء قصائدهم، وفيها ظهر النحاة والأدباء وأئمة اللغة.

فبما تقدم ترى أن البصرة كانت مركز الفكر الإسلامي، ولقد كانت كذلك لأنها أدنى مدينة عربية إلى الأهواز ففارس، وتقع على باب الصحراء التي يفر إليها، ويتخذها حمى له كل خارج مخالف للخليفة؛ فقد كانت البصرة بحكم موقعها الجغرافي ملتقى رجال الشرق الوثني من فرس وهنود وديلم برجال الإسلام، فيها التقت المانوية، والزرادشتية، والبرهمية، والصابئة، والدهرية، وغيرها من تلك الديانات القديمة التي جاء الإسلام بغزوها في ديارها بالدين الفطري اليسير.

وقد أثار علماء هذه الديانات ومنهم من دخل الإسلام، موضوعات للجدل لم يكن يعرفها المسلمون الأوائل، ألبسوا هذه المسائل لباس الإسلام؛ فاضطر علماء المسلمين، وعلى رأسهم المعتزلة، إلى دراسة هذه الديانات والإحاطة بتعاليمها حتى يتسنى لهم الرد على ما أثاروه من جدل واعتراضات في وجه الإسلام.

هذا وقد كانت بعض هذه الديانات، كاليهودية والنصرانية، قد تسلحت بالفلسفة اليونانية، والمنطق، فلجأ المعتزلة إلى نفس السلاح، حتى لا يهنوا أمام خصومهم فدرسوا الفلسفة، وصارت البلاد الإسلامية ساحة تعرض فيها كل الآراء وكل الديانات، ويتجادل فيها أقوام من شتى الملل والأجناس.

وقد كانت البصرة مأوى كل من يكيد للإسلام، والخلافة، لقربها من منبت الفكر؛ فلم ينسَ الفرس والديلم وغيرهم من الأمم، التي دخلت في الإسلام ما كان لهم من حضارة، وملك وديانات، فتآمروا على الإسلام في أشكال مختلفة، ووجدوا الأنصار قريبًا منهم في الأهواز وفارس. وإذا طاردهم الخليفة ورجاله ركبوا الصحراء العربية، أو البحر حتى تُتَاح لهم فرصة أخرى.

في هذه البيئة العالمية التي تتطاحن فيها الأفكار، وتغص بالعلماء والأدباء،والشعراء، والمتكلمين، وأهل الديانات المختلفة، وفي هذا الموقع الجغرافي الممتاز، وهذا البلد الذي يسهل على أهله حرية الرأي والجدل، ظهر إخوان الصفاء.

كانت البصرة المركز الرئيس لإخوان الصفا، ومنها انتشر دعاتهم في مختلف الأمصار والبلدان، ووجدوا لهم أنصارًا في مواطن عدة ينشرون مذهبهم بطرق سرية منظمة، وفي هذا يقولون: "إن لنا إخوانًا، وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد".

أما إخوان الصفا ببغداد الذين ذكر المؤرخون أن أبا العلاء قد اتصل بهم فقد ذكرنا آنفًا مدى صلتهم بجماعة البصرة، وتأثرهم بآرائهم.

الفصل الخامس

نظام جماعتهم

-١-

طبقاتهم: كانت جماعة إخوان الصفاء متكونة من أربع طبقات: أولاها شبان تتراوح أعمارهم من خمس عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، عُرِفوا بصفاء جوهر نفوسهم، وجودة القبول وسرعة التصور، وهم الذين يدعون في الرسائل بالإخوان الأبرار الرحماء. ويظهر أن الرسائل قد ألفت لهؤلاء؛ لأن الخطاب فيها موجه دائمًا إلى الأخ البار الرحيم.

أما الطبقة الثانية: فرجال بين الثلاثين والأربعين، يتلقون الحكمة، وهي مرتبة الرؤساء ذوي السياسات، ويظهر أن مهمة هذه الطبقة مراعاة الإخوان وتعهدهم، وإظهار العطف عليهم ومساعدتهم، وهم الذين يسمون في الرسائل بالإخوان الأخيار الفضلاء.

والطبقة الثالثة: أفراد بين الأربعين والخمسين من العمر، وهم يعرفون الناموس الإلهي معرفة مطابقة لبرجهم، كما أنهم أصحاب الأمر والنهي، ونصر الدعوة، والقيام بدفع المعاندين ومن يظهرون الخلاف لفكرتهم ودعوتهم بالرفق واللطف والمداراة، وهم الذين يسمون في الرسائل بالإخوان الفضلاء الكرام، والذين ألفوا الرسائل وعملوا على نشرها.

والطبقة الرابعة: وهي مرتبة من يزيد على الخمسين سنة، وهي أعلى المراتب في نظرهم، ومن يصل إليها يكون فوق الطبيعة والناموس، ويكون ذا كشف يستطيع به أن يشاهد "أحوال القيامة من البعث والنشور والحساب والميزان[1]".

ويجدر بنا أن نتساءل: هل ابتدع الإخوان هذا النظام حين وجدوا حاجتهم ماسة إليه؟ أو أنهم تأثروا فيه بفكرة فلسفية، أو اقتبسوه من نظامٍ آخر؟ قد يخيل إلينا أنه نظام طبيعي يتمشى مع الدعوة السرية؛ فالذين يتقبلون الدعوة يختارون من الذين عرفوا بالذكاء، وسرعة التصور والإدراك لمغزى الدعوة؛ ويشرف عليهم، ويعنى بهم جماعة أقدم منهم في نظام الجماعة، عرفوا بالنشاط والشفقة، يحببونهم في الدعوة ويسخون عليهم حتى تتمكن من قلوبهم، ويكونون صلة بينهم وبين رؤسائهم وذوي الأمر والنهي فيهم، ومن عندهم خبر بأسرار الدعوة وغايتها، والطبقة الأخيرة طبقه الأئمة المستورين، الذين يُدعى باسمهم وقد أحيطوا بهالة من القداسة والكتمان؛ لأن ذلك أدعى إلى التعظيم والإكبار، أو أنها الطبقة التي يطمح للوصول إليها إخوان الصفاء.

وقد يخيل إلينا من جهةٍ أخرى أن إخوان الصفا قد تأثروا في نظامهم هذا بالأفلاطونية الحديثة– وستعلم حين الكلام عن فلسفتهم– أنهم من هذه المدرسة الفلسفية، وأن آراءهم صدى للأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية الحديثة.

---

[1] الرسائل جـ ٤ ص ١١٩، ١٢٠.

فمن آراء أفلاطيون الشهيرة: أن غاية الحياة التحرر من ربقة المادة، وأول خطوة لذلك التحرر من سلطة الجسم والحواس، بالعبادة والتقشف والزهد، ومن هذا تنشأ الفضائل المألوفة، والخطوة الثانية الفكر والتفلسف، والخطوة الثالثة أن تسمو النفس فوق التفكير، وتصل إلى الإقامة والعلم اللدني. وكل هذه الخطوات إعداد الدرجة الأخيرة، وهي أن يفنى الإنسان في الله وذلك بالهيام والذهول، والغيبوبة والوجد، عند ذلك تتحد النفس بالله، وتصل النفس البشرية الراقية إلى هذه الدرجة في لحظات من الحياة، ثم تعود إلى حالتها البشرية، وقد ذكر أفلاطيون أنه سما إلى هذه الدرجة وذاق لذة الاتحاد، وأدرك ساعات التجلي، بضع مرات في حياته، يقال إنها أربع.(١)

فإذا وازنا بين رأي افلاطوين هذا وبين طبقات إخوان الصفاء وجدنا مشابهة مبينة، فمرتبة الإخوان الأبرار الرحماء تشبه مرتبة التصوف والعبادة، وتربية الفضائل المعتادة. ومرتبة الإخوان الأخيار الفضلاء، تشبه مرتبة التفكير والتفلسف عند افلاطوين. ومرتبة الإخوان الفضلاء الكرام الذين يعرفون الناموس الإلهي، تقابل مرتبة اللقانة. والمرتبة الأخيرة عند إخوان الصفا، الذي يكون فيها المرء فوق الطبيعة والشريعة والناموس، ويكون ذا كشف يستطيع به أن يشاهد أحوال القيامة... إلخ، تقابل مرتبة الاتحاد مع الله عند أفلاطيون مرتبة التجلي والكشف والسمو فوق الطبيعة البشرية.

وقد يخيل إلينا من جهة ثالثة أن هذه الطبقات الأربع التي أطلق

---

(1) **Dresser: History of Ancient and Medieval Philosophy**

من فصل عن الأفلاطونية الحديثة.

عليها ماكدونالد[1]: طبقة المريدين، ثم المعلمين، ثم القادة، ثم المقربين من الله تتمشى مع النظام العام لطبقات الشيعة الباطنية وأنظمتهم، حيث تبتدئ الدعوة بسؤال المدعو عن بعض المسائل الدينية والشرعية والمشكلات الغامضة، ويلقن أن الدين أمر مكتوم يجهله السواد والكافة، وأن أصل الشر هو انصراف الناس عن الأئمة الصادقين، ثم يندرج هذا المدعو في مراتب تسع، يصل في نهايتها إلى حظيرة الأسرار الأخيرة، وما بعد الطبيعة[٢]، التي تشبه الطبقة الرابعة عند إخوان الصفا، وقد يكون هذا التقسيم الذي اقتبسه الفاطميون، مأخوذًا عن إخوان الصفا؛ وستعلم فيما بعد– إن شاء الله– مدى ما بين إخوان الصفاء والفاطميين من صلات.

وأغلب الظن أنهم تأثروا في نظام جماعتهم هذا بآراء الأفلاطونية ،ووجدوها في الوقت نفسه نظامًا ملائمًا لطبيعة الدعوة السرية، وإحاطة الأئمة بالكتمان، وتحميس الأتباع للوصول إلى درجة أعلى من درجتهم دائمًا ليزدادوا فناءً في الدعوة.

–٢–

كيف يقبل المرشح لعضوية هذه الجماعة؟: تجيبنا الرسائل: "بأنه ينبغي لإخواننا– أيدهم الله– حيث كانوا في البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ

---

(1)Muslim Theology p 168

(٢)خطط المقريزي جـ ٢ ص ٢٢٧– ٢٣٣ عند الكلام على نظام الدعوة الفاطمية وهي هناك مفصلة فليرجع إليها من شاء.

صديقًا مجددًا، أو أخًا مستأنفًا أن يعتبر أحواله، ويتعرف أخباره، ويجرب أخلاقه، ويسأله عن مذهبه واعتقاده؛ ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أم لا؟ لأن في الناس أقوامًا طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال وعاداتهم رديئة مفسدة، ومذاهبهم مختلفة حائرة[1]".

ومعلوم أن الغرض من هذه الأسئلة معرفة مدى استعداد هذا المدعو وسرعة تصوره وإدراكه لمغزاها ومرماها، وهل يصلح أن يكون من حملتها أم لا؟

وكانوا يتحرون عن الشخص، الذي يراد ضمه إليهم، كل التحري، ويحذرون إخوانهم من الاغترار بالظواهر: "وأعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق، ويدلس عليك بشبه المنافق، ويظهر لك المحبة، وخلافها في صدره، وأعلم يا أخي أن من الناس من لا يصلح للصداقة والأخوة والمقاربة أصلًا، فانظر من تصحب وتعاشر، ولا تغتر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها واعتبر أحواله، واختبر أخلاقه، وسله عن مذهبه واعتقاده، وانظر في عادته وسجيته، وشمائله وحركاته، فإنه لا يخفى على المتفرس بواطن الأمور إذا نظر إلى ظواهرها[2]، بل ينبغي أن تنتقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة التربة للزرع والغرس، وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر الترويج، وشرى المماليك، والأمتعة التي يشترونها".

"وأعلم أن الخطب في اتخاذ الإخوان أجل وأعظم خطرًا من هذاكله؛ لأن

---

[1] الرسائل جـ ٤ ص ١٠٧.

[2] الرسائل جـ ٤ ص ١٠٩.

إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعًا، وهم أعز من الكبريت الأحمر، وإذا وجدت منهم واحدًا فتمسك به، فإنه قرة العين، ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة".

"وابذل له نفسك ومالك، وافرش له جناحك، وأودعه سرك، وشاوره في أمرك، وإن هفا هفوةً فاغفر له[1]".

ولا يريدون أن يدخل في دعوتهم المعجب الصلف، أو الفظ الغليظ، أو المماحك المماري، أو الحسود الحقود، أو المنافق الرائي، أو البخيل الشحيح، أو الجبان المهين؛ لأن كل هذه صفات تنفر منه إذا كان داعية، وتدعو إلى الشك فيه إن كان مدعوًا، وتدل على أنه من أن يتقبلوا الدعوة بسهولة، أو يضحوا في سبيلها، أو يعتقدوها من قرارة نفوسهم؛ولهذا حذروا منه الإخوان.

وكانوا يحثون الإخوان على أن يعاون الغني منهم الفقير، والمتعلم الجاهل ويؤثرون أصدقاءهم على أنفسهم وأولادهم وأزواجهم: "فينبغي إذا ظفرت بواحد منهم أن تختاره على جميع أصدقائك وأقاربك، وعشيرتك، وجيرانك، الذين نشأت معهم، فإنه خير لك من ولدك الذي من ظهرك، وأخيك من صلب أبيك، ومن زوجك التي جعلت كل كسبك لها، وجميع سعيك من أجلها، فاعرف حقه كما تعرف حقوقهم، بل ينبغي أن تؤثره عليهم كلهم؛ لأنهم يحبونك من أجل منفعة تصل منك[2]".

---

[1] الرسائل جـ ٤ ص ١٠٩.

[2] الرسائل جـ ٤ ص ١١٢.

-٣-

غايتهم: فإذا أُختبِر العضو الذي تقدمت صفاته، ووثقوا به، قرءوا عليه خطبة فيها دعوتهم وغايتهم.

وينبغي لإخواننا إذا حضروا المجلس ومعهم أخ مستجيب مستحدث أن يقرأ عليهم هذه الخطبة:

"اعلموا أيُّها الإخوان أيدكم الله وإيانا بروحٍ منه، وهداكم للحق، وجعلكم من أتباعه، وسهل لكم سبيل الخير، وأرشدكم إلى معرفة أهله، وعصمكم من الشر وجنبكم محبة أهله، وحرسكم من غرور الشيطان، ووقاكم جور السلطان، ونكبات الزمان، ونوائب الحدثان، ووفقكم لقبول نصيحة الإخوان إنه ودود منان.

واعلموا أن كل دولة لها وقت منه تبتدئ، ولها غاية إليها ترتقي، وحد إليه تنتهي، وإذا بلغت إلى أقصى مدى غاياتها، ومنتهى نهاياتها، أخذت في الانحطاط والنقصان، وبدا في أهلها التشاؤم والخذلان. واستأنف في الأخرى القوة والنشاط، والظهور والانبساط، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد، ويضعف ذاك وينقص، إلى أن يضمحل الأول المتقدم، ويتمكن الحديث المتأخر.

فهكذا حكم أهل الزمان، في دولة الخير، ودولة الشر: فتارةً تكون القوة والدولة، وظهور الأفعال في العالم لأهل الخير، وتارةً تكون القوة والدولة، وظهور الأفعال لأهل الشر.

وقد ترون أيها الإخوان أيدكم الله وإيانا بروح منه أنه قد تناهت قوة أهل الشر، وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط والنقصان.

وأعلم أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان، ودور وقرن من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت آخر، ومن أهل بلد إلى أهل بلد آخر .

واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء، يجتمعون في بلد، ويتفقون على رأي واحد ودين واحد، ومذهب واحد، ويعقدون بينهم عهدًا وميثاقًا بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضًا، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم[(١)]"

فواضح من هذه الخطبة أن الغاية التي يسعى إليها إخوان الصفا، هي إسقاط دولة قائمة، قد دبَّ في جسمها الوهن والانحلال، يعتقدون أنها دولة الشر، وإقامة دولة أخرى فتية يعتقدون أنها دولة الخير، يريدون نقل السلطان والقوة من أهل بيت إلى أهل بيتٍ آخر، ومن بلد إلى بلدٍ آخر.

وظاهر كذلك، أن الذي يتولى هذه الدعوة، ويعمل لها جاهدًا، هم الإخوان الأخيار الفضلاء، الذين يبدئون أمرهم بالتفكير والاتفاق على الغاية، ويعقدون بينهم عهدًا وميثاقًا، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم. "والمطلوب من المدعوين إلى هذا الأمر أربعة أحوال: أولها الإقرار

[(١)] ج ٤ ص ٢٣٤، ٢٣٥، ج١ ص ١٣٠.

باللسان. والثاني التصور لهذا الأمر بضروب الأمثال للوضوح والبيان، والثالث التصديق له بالضمير والاعتقاد، والرابع التحقيق له بالاجتهاد في الأعمال المشاكلة لهذا الأمر[١]"، فغرضهم سياسي وهو إسقاط الدولة العباسية، واتخذوا من الفلسفة والعلوم وسيلة لغزو القلوب، والتمكن منها، وسترًا يخفون وراءه أغراضهم الحقيقية، وسترى فيما بعد هذا واضحًا.

– ٤ –

فروع الجماعة وأتباعها: وقد كان للجماعة دعاة ومبشرون يجتهدون في اختيار أعضاء جدد يضموهم إلى صفوف الإخوان، وكان هؤلاء الدعاة يدربون تدريبًا خاصًا على الدعاية:"وأعلم أيُّها الأخ أيدك الله وإيانا بروحٍ منه، أنَّ لنا إخوانًا وأصدقاء من كرام الناس، وفضلائهم متفرقون في البلاد؛ فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعمال، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والثناء[٢] والتجار، ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس، وقد ندبنا لكل طائفة منهم أخًا من إخواننا ممن ارتضينا في بصيرته ومعارفه لينوب عنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم.

وقد اخترناك أيُّها الأخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا بروحٍ منه

---

[١] رسائل جـ ٤ ص ٢٢٤.

[٢] الدهاقين جمع دهقان بكسر الدال وضمها، وهو حاكم الإقليم المتصرف وحده، فارسية معربة، والتناء بالكسر جمع تاني من تاء بالمكان أقام به، ومعناه المرابط

لمعاونتهم، وارتضيناك لمشاركتهم، فامضِ على بركات الله وحسن توفيقه إلى أخٍ من إخواننا وتوصل إليه بالرفق على خلوة، وفراغ من مجلسه، وطيبة من نفسه، فاقرأ عليه منا التحية والسلام، وبشره بما يسره من نصيحة الإخوان، وعرفه شدة شوقنا إلى إخائه ومودته، ثم اقرأ عليه هذه الخطبة وعرفه معانيها، وفهمه مغزاها ومقصدها، ثم عرفنا ما يكون منه من الجواب[1]".

وقد رسموا للداعية كذلك طرقًا توصله للنجاح في دعوته معظمها مبني على دراسة نفسية الجماهير فمن ذلك:

١- أن يعرف خبر كل واحد من أهل دعوته صغيرًا أو كبيرًا، ما اسمه ونسبه وصناعته وعمله، وما هو بسبيله في أمر معاشه، وعاداته السيئة والجيدة، حتى يستعين بكل واحدٍ منهم فيما يلائمه، وألا يمكنهم من معرفته تمام المعرفة حتى لا يؤتى من قبلهم.

٢- أن يؤكد الصلات والمودة بين أتباعه، ويؤلف قلوبهم، ويوحد كلمتهم، حتى يصيروا كرجلٍ واحد ونفسٍ واحدة، ويكون هو منهم بمثابة الرأس من سائر الأعضاء، يتصرف فيهم كتصرف العقل في الجسد.

٣- أن يعود نفسه، ثم يعود أتباعه، على الاستهانة بالمال والنفس في سبيل الدعوة.

٤- أن يكون قدوة حسنة لأتباعه في كل شيء.

٥- أن يقسمهم جماعات، على كل جماعة رئيس يتلقى تعاليمه،

---

[1] رسائل جـ ٤ ص ٢٣٥، ٢٣٦.

ويشرف عليهم من قرب[1].

هذا إذا كان المراد ضمه إلى صفوف الإخوان رجلًا من أوساط الناس، لا ملكًا لهم ولا سلطانًا، فإن كان من الحكام أو الملوك فعلى الداعي أن يتلطف في الحصول إليه في رفق ومداراة حتى يلقاه على خلوة من مجلسه، وفراغ من قلبه، وطيبةٍ من نفسه، ويجيبه، ثم يبلغه أنه رسول جماعة إخوان الصفاء إليه، ويعرفه بهم، ثم يبشره بما ألقوه إليه من الأسرار، ويعرض عليه هذه التذكرة "ولعلها الخطبة التي أوردناها آنفًا أو مغزاها" ليتأملها، ويتفكر فيها، ويعرفه أن لإخوان الصفاء مجلسًا يجتمعون فيه في الخلوات فيتذاكرون العلوم، ويتحاورون في الأسرار، ويبحثون عن خفيات الأمور، وأنهم تذاكروا يومًا فيما بينهم حوادث الأيام، وتغيرات الزمان، والخطوب والحدثان، وما تدل عليه دلائل القرون، من تغييرات شرائع الدين والِملَلْ، وتنقل الملك والدول، من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن أهل بيت إلى أهل بيت؛ فاجتمع رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنه لابد من كائن في العالم قريب، وحادث عجيب، فيه صلاح الدين والدنيا، وهو تجديد ملك في المملكة، وانتقال الدولة من أمة إلى أمة، وأن لذلك دلائل بينة وعلامات واضحة، وأنهم قالوا: "قد عرفنا– هذه الدلائل– بفراغ عقولنا، وتجارب الأمور، واعتبار تصاريف الزمان فيما مضى من الحدثان، وما يعرف منها بالزجر والفال، والكهانة والفراسة، وبدلائل المتحركات من النجوم، والمنامات مما تدل عليه من الكائنات قبل أن تكون.

وقد اعتبرنا بهذه الوجوه التي ذكرناها، وأشرنا إليها، حتى عرفنا

[1]راجع الرسائل جـ ٤ ص ١٨٤– ٢٩٩.

صاحب الأمر بصفاته، والسنة والشهر الذي يكون فيه الحادث في شأنه".

فإن وقعت هذه التذكرة في نفس المدعو أميرًا كان أو غيره مكانها، وسَمَتْ نفسه إلى ما أشاروا إليه فذلك ما أرادوا، وإن توقف وقال: ما علامة ما يقولون، وما تصديق ما يزعمون من الرأي والحديث؟ قالوا: عندنا دلائل واضحة، وبراهين بينة، وعلامات وشواهد، يعلمها من كان ينظر في العلوم كنظرنا، ويعتبر الأمور كاعتبارنا، وكان في المعارف بصيرًا مثلنا.

فإن أراد أخونا الفاضل الكريم، فليبعث إلينا ثقة من ثقاته، وأمينًا من أمنائه، ومن أبناء جنسنا، ومن يشاكلنا في العلوم والمعارف، ومن يحاجنا على ما تقول، ويناظرنا على ما نشير إليه؛ ليتضح له حقيقة ما قلنا[١]".

ويظهر أن هؤلاء الذين تُوجَه إليهم الدعوة، والمنتشرين في أنحاء الأرض كانت ميولهم وأغراضهم السياسية، تشبه ميول إخوان الصفاء وأغراضهم، ولم يكونوا قد انضموا إليهم بعد أو لم يعلموا بوجودهم، وفي ذلك تقول الرسائل: "وأعلم أن من إخواننا وأهل شيعتنا طائفةٌ أخرى بوجودنا شاكون، وفي بقائنا متحيرون فيما يعتقدون من موالاتنا، وطائفة أخرى موقنون ببقائنا، لكنهم غافلون عن أمرنا غير عارفين بأسرارنا، وكلهم منتظرون لظهور أمرنا، مستعجلون لمجيء أيامنا، مشتهون نصرة أمرنا[٢].

[١] رسائل جـ ٤ ص ٢٣٧، ٢٣٨.

[٢] جـ ٤ ص ١٩٨.

الفصل السادس

هل هم شيعة باطنية؟

اعترافهم بالتشيع: لقد أقر إخوان الصفاء على أنفسهم بالتشيع في غير ما موضع من الرسائل، فمن ذلك قولهم بعد كلامهم على الرسائل وعددها، والسبب الذي دعاهم لكتابتها: "لكيما إذا نظر فيها إخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا، وفهموا بعض معانيها، وعرفوا حقيقة ما هم مقرون به، من تفضيل أهل بيت النبي ﷺ؛ لأنهم خزان علم الله، وورثوا علم النبوات، تبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم، والمعرفة، والفهم، والتمييز، والبصيرة في الآفاق[١]".

ومنها: "وأعلم يا أخي بأن لكل نفس من المؤمنين أبوين في عالم الأرواح، كما أن لأجسادهم أبوين في عالم الأجساد، كما قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه، أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة، وهذه الأبوة روحانية لا جسدية[٢]".

هذا وقد عقدوا فصلًا خاصًا بينوا فيه الطوائف التي تنتسب إلى الشيعة، وقد انتقدوا بعضها، وأظهروا الرضا عن بعضها، وأخذوايتبرؤون ممن يدعي التشيع وهو يرتكب المنكرات، ويقترف الموبقات، ويحملون على

---

[١] ج ٤ ص ٢٣٤.

[٢] رسائل ج ١ ص ١٥٧.

من يقول بأن المهدي المنتظر مختف من خوف المخالفين. كما أنهم حملوا على الشيعة الذين يبكون على الأموات من أهل البيت حملة شعواء، وقد قالوا في كل هذا: "إن قومًا من أشرار الناس جعلوا التشيع سترًا لهم، عما يحذرون من الأمرين عليهم بالمعروف، والناهين لهم عن المنكر فيما يفعلون. وذلك أنهم يرتكبون كل محظور ويتركون كل مأمور به، وإذا نهوا عن منكر فعلوه،وبادروا بإظهار التشيع واستعاذوا بالعلوية على من ينكر عليهم أو ينهاهم عن منكر فعلوه، ولبئس ما كانوا يعملون.

ومن الناس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم، وهم أبرياء بنفوسهم منا، ويسمون أنفسهم العلوية وما هم من العلويين، ولكنهم من أسفل السافلين، لا يعرفون من أمرنا إلا نسبة الأجساد. فهم أبعد الناس من أهل ملتنا وأعدى الناس لشيعتنا، وأجهل الخلق بعلومنا، وأغفل الناس عن حقيقة أمرنا وأسرار حكمتنا.

ومن الناس طائفة قد جعلت التشيع مكسبًا لهم، مثل النائحة والقصاص، لا يعرفون من التشيع إلا التبري والشتم والطعن، واللعنة والبكاء مع النائحة، وحب المتدينين بالتشيع، وترك طلب العلم، وتعلم القرآن. وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد، وزيارة القبور كالنساء الثواكل، يبكون على فقدان أجسادنا[١] وهم بالبكاء على نفوسهم أولى.

ومن الشيعة من يقول: إن الأمة يسمعون النداء، ويجيبون الدعاء، ولا يدعون حقيقة ما يقرون به، وصحة ما يعتقدون.

---

[١] يحتج بهذا النص من يقول إن الرسائل أملاها بعض الأئمة من آل البيت.

ومنهم من يقول: إن الإمام المنتظر مختف من خوف المخالفين، كلا بل هو ظاهر بين ظهرانيهم يعرفهم وهم له منكرون[١]".

ومما تقدم نرى أنهم لا ينكرون التشيع، بل يقرون به. ويريدونه على وجه خاصٍ، ويتبرؤون من هؤلاء الذين لوثوا اسمهم، وارتكبوا المنكرات والموبقات وادعوا أنهم علويون.

لقد قالوا بالمهدي المنتظر، وصرحوا بأنه كان موجودًا، إبان تأليف هذه الرسائل، ولعلهم كانوا يشيرون إلى واحد منهم. وكانوا يؤمنون بفكرة الوصي وأن عليًا هو وصي النبي عليه السلام، وليس في ذلك أصرح من قولهم في باب مخاطبة المتشيعين: "ومما يجمعنا وإياك أيُّها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل نبيه الطاهرين، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين[٢]".

-٢-

آراء العلماء في تشيعهم: أما عن انتسابهم للشيعة الباطنية، وصلتهم بالفاطميين، وبالإسماعيلية، فلا أستطيع على وجه التحقيق الجزم بهذا، وكل ما بين يدي من أدلة لا يوصلني إلى مرتبة اليقين؛ وذلك لأنهم قد بالغوا في كتمان أمرهم مبالغة شديدة، والشاعر العربي يقول:

الستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر فهذا التكم

---

[١] رسائل جـ ٤ ص ١٩٩.

[٢] رسائل جـ ٤ ص ٢٤٢.

الشديد، وهذه الحيطة العظيمة، التي جعلوها شعارًا لهم، حتى في تداول رسائلهم التي وصلت إلينا، ما يدعو إلى التشكك في أمرهم، استمع إليهم كيف يوصون بتداول هذه الرسائل؛ فهكذا ينبغي لمن حصلت عنده هذه الرسائل، والرسالة "لعلها الجامعة" ألا يضيعها بوضعها في غير أهلها. وليتحرز في حفظها وإسرارها وإعلانها، وإظهارها كل التحرز، ويحرسها غاية الحراسة[(١)].

ويقولون في موضع آخر: "كذلك الواجب على من حصلت عنده هذه الرسائل، وهذه الرسالة أن يتقي الله تعالى فيها بأن يهتم ويعتني بها غاية العناية ولا يبخل بهذه الوصاية، ويتلطف في استعمالها وإيصالها تلطف الأخ الشقيق والولد الصديق، والطبيب الرفيق، بعد بذل وسعه واستفراغ جهده في توخي العقد، وتحرى الصواب[(٢)]".

وقد رأينا في الفصل السابق كيف يختارون أعضاء هذه الجماعة، وأي حذر بالغ، وحيطة شديدة، وامتحان عنيف، يكتنف العضو الذي يريدون ضمه إلى صفوفهم.

وقد رأينا كذلك في الفصل السابق أنهم يبشرون بقيام دولة جديدة، تتولاها أسرة جديدة، وأنهم يدعون لذلك، ويبذلون له جهدهم. ولا شك أن هذا الغرض السياسي، الذي يراد به مثل عرش من العروش، وتولية أسرة أخرى شئون المسلمين دعاهم إلى كتمان أمرهم، حتى تُهيأ لهم فرصة

---

(١) رسائل جـ ١ ص ٢٠.

(٢) ج١ س٢١.

النجاح فيظهرون للناس. وقد مر بنا في الفصل الأول ما قام به عبد الله بن ميمون ومن أتى بعده، وكيف تطورت دعوتهم إلى قيام الدولة الفاطمية، وكيف كانت التقية والكتمان شعار هذه الطائفة حتى تم لها الانتصار، وسنذكر فيما بعد وجوه شبه أخرى بين إخوان الصفاء والإسماعيلية والفاطميين.

كل هذا دعا كثيرًا من العلماء إلى أن ينسبوا إخوان الصفاء إلى طوائف الشيعة الباطنية.

فقد جاء في كتاب" أجلاء العينين في محاكمة الأحمدين" خير الدين الألوسي البغدادي المطبوع ببولاق سنة (١٢٩٨هـ). [١]كلام على هذه الرسائل منقولًا من كشف الظنون، ومن شرح عقيدة السفاريني،وهي: أصل مذهب القرامطة، وربما نسبوها إلى جعفر الصادق ترويجًا، وقد صنفت بعد المائة الثالثة في دولة بني بوية.

وقد ذكر الإمام ابن تيمية في فتاويه عند الكلام على الباطنية الإسماعيلية: "إنهم يبنون قولهم على مذاهب المتفلسفة كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفاء".

وفي مقالة الكازانوفا في عدد يناير وفبراير (١٨٩٨) من المجلة الأسيوية (ص ١٥١- ١٥٩)[٢] "كم يندر أن يحصل امرؤ على مخطوطات أصيلة حقيقية حول الإسماعيلية، وفرعهم الشهير بالحشاشين،

---

[١]مقدمة الرسائل ص ٣١.

[٢]عنوان المقال: **Notice sur un Manuscrit de la Secte des Assassins**

وقد عُثِرَت بالمكتبة الأهلية باريس تحت رقم (٢٣٠٩) على رسالة من تأليف أحد الحشاشين.

ويظهر أنها جزء من رسالة كبيرة لأنها لا تحمل عنوانًا، ولا إشارة ما، ويبتدئ من الصفحة السادسة بهذه الكلمات: "فصل من رسائل إخوان الصفاء".

وقد أشار **Stansilas Guyard** "استانسيلاس جيارد" إلى العلاقة بين نظريات إخوان الصفا الفلسفية، ونظريات الإسماعيلية في نشرة بعنوان "فصول متعلقة بنظريات الإسماعيلية[١]".

وفي المخطوطة التي أشير إليها كثير من الفصول الموجودة برسائل إخوان الصفا، ولكنها تحتوي كذلك على الرسالة الجامعة، التي لا توجد في أي مجموعة أخرى ابتداءً من الصفحة (١٢٣)[٢].

وفي صفحة (١٢٥) يذكر المؤلف تواريخ ملوك الإسلام، ويذكر أنه قد مر "بمصيف" أحد الأمراء في التاسع من جمادي الأولى سنة (٧١١ هـ)، وأنه رحل عنها في السادس عشر من الشهر نفسه، وهذا يدل على أن المؤلف كان يسكن "مصيف" وهي مقر الحشاشين كما هو معروف، وفي صفحة (١٢٥) كذلك: "تاريخ فتح الحصون في ابتداء الدعوة الهادية"، ويشير بهذا إلى الحصون التي فتحها الحشاشون، فكلمة الدعوة الهادية من

---

[١] لم أستطع الحصول على هذه النشرة، إذ لم أعثر عليها على الرغم من الجهد الكثير.

[٢] وقد ذكرنا آنفًا قول العلامة **Basset** في تعليقه على الدعوى كازانوفا العثور على الرسالة الجامعة.

خصائص الحشاشين في الشام[1].

وفي صفحة(١٢٧) رسالة من صلاح الدين إلى رشيد الدين رئيس فرقة الحشاشين، وتتقدم اسم رشيد الدين كلمة الصاحب "الصاحب رشيد الدين"، وهذه الكلمة من خصائص الحشاشين في سوريا، وألقاب رؤسائهم، ويضيف المؤلف بعد اسم رشيد الدين "قدس الله سره" مرة، ومرة "قدس الله روحه".

وبعد أن ذكر كازانوفا معنى كلمة الجامعة، مشيرًا إلى قول إخوان الصفا أنهم سيختمون بها رسائلهم، لأنها تحتوي على مفتاح ما تقدم من الأسرار، ومشتملة على حقائق الرسائل بأسرها... إلخ كما ذكرنا سابقًا.

قال: "وفي الرسالة الجامعة في هذه المخطوطة التي نتكلم عنها تظهر سيطرة الأعداد على الكون فكل شيء يسير وفق قانون العدد، حيث يحتل العددان(٧، ١٢) المكان الأول.

والشيعة تشير إلى أن هناك سبعة أئمة، وكل منهم له اثنا عشر حواريًا، والإنسان له سبع مواهب أو حواس:

السمع والبصر،والذوق، والشم، واللمس، والذكاء، والكلام. والكلام انعكاس الذكاء، كما أن القمر انعكاس الشمس، والحواس الخمس الأخرى مثل الكواكب السيارة الأخرى. ونحن نعلم أن موازنة كهذه قام بها الإسماعيلية وسأكتفي بعقد موازنة مع أحد الفصول التي نشرها "جيارد" الفصل (١٤). ومن المستحسن أن نتذكر أن لدى العلويين كتابين:

---

[1] فان برشام Van Bercham في المجلة الأسيوية ١٨٩٧ ص ٤٦١.

الجفر والجامعة، فإن الإمام موسى الرضا[١] الذي ولاه المأمون ولاية عهده قد قال: "إني قد أجبتك، وإن كان الجفر والجامعة يدلان على ضد ذلك[٢]". ويذكر "حاجي خليفة" تحت كلمة "جفر" و"جامعة" كلامًا طويلًا لم يفطن إليه المستشرقون أمثال "سلفستردي ساس"، و"جيارد" و"جولد تسهير" ويذكر لنا "جولد تسهير" في مقابل هذا فقرة من كلام المؤلف نور الله،وهي: أن الجفر كتاب من سبعين ذراعًا طولًا أملاه الرسول عليه السلام على علي فيه والله جميع ما يحتاج الناس إليه إلى قيام الساعة[٣]".

---

[١]هو الإمام على الرضان موسى بن جعفر الصادق (ذكر كازانوفا اسمه محرفًا) وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية، وسماه المأمون: (الرضا من آل مُحَمَّد) وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين، ولبس ثياب الخضرة الذي اختاره شعارًا للدولة الجديدة، وقد مات على الرضا مسمومًا في سنة ٢٠٢ هـ. ويظهر أن بعض بطانة المأمون ممن لم يرض عن انتقال الخلافة إلى العلويين دس له السم فمات.

[٢]راجع حاجي خليفة في كشف الظنون والنسخة التي نشرها فلوجل ص ٦٠٤ ج١١ أو راجع الفخري تحرير آل ورد ص ٢٦٠.

[٣]راجع تاريخ الأدب الشيعي Litteratur=Geschichte de Sia p55 يقول جولد تسير في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام): يدعى الشيعة أن لديهم مؤلفات خفية ينسبونها إلى علي، ويقولون عنها تارة: إنها خلاصة العلوم الدينية التي كانتلكافة الأنبياء، وطورًا يزعمون أنها كتابات نبوية رمزية تكشف طلاسمها عن حوادث المستقبل، وقد أودعها النبي عليه السلام عليًا، وانتقلت بعده من جيل إلى جيل في أعقاب الأئمة الشرعيين، وكل إمام منهم كان حائزًا في وقته كل علوم العلويين الباطنية، وأكثر ما يستشهدون به كتاب الحفر والجامعة، وقد قال بشر بن المعتمر أحد قدماء المعتزلة عن الشيعة: إنهم قوم قد غرهم الجفر "لست أباضيًا غبيًا ولا كرافضي غره الجفر" (الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ٩٤)، بل إن كتب الشيعة قد أتت على الوصف الظاهري لهذه الكتب السرية المزعومة، فكتاب الجامعة وصفته بأنه لفافة طويلة طولها سبعون ذراعًا قياسًا على ذراع النبي) هذا ما ذكره جولد تسهير، وفي كتاب الكافي لمحمد بن يعقوب الكلبي، وهو من أفاضل الشيعة ورؤسائهم، وكتابه هذا يشبه البخاري عند أهل السنة

والجفر معروف وفي كل المكاتب نسخ منه، وهو يحتوي على حساب الجمل وعلى أرقام تدل على تنبؤات بالحوادث، أما الجامعة فلا أعرف لها مقرًا".

"ولا نستطيع أن نجزم أن الجامعة التي أشار إليها علي الرضا، واستشارها في الساعة الفاصلة في حياته هيالجامعة نفسهاالتي يشير إليها إخوان الصفاء" واستطيع أن أؤيد كلام كازانوفا في هذا الرأي بما ورد على لسان إخوان الصفاء.

فإننا نجد في الرسائل كلامًا كثيرًا عن اختصاص آل البيت بالعلوم الخفية وهذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة عليهم السلام لا يحتاجون فيها إلى مديرين غيرهم، وإلى علماء سواهم، ولا يطلع الناس على أسرارهم، ولا يعرفون أخبارهم، ولا يطلعون على مواليدهم، ولا يعرفون سنهم في موتاهم، ولهم علوم يتميزون بها وينفصلون عن العالم بمعرفتها، وأعمال لا يشركون فيها غيرهم[1]"، ويقولون كذلك: "وأعلم يا أخي، أن

وهو ثلاثة أجزاء: الأول في الأصول، والثاني والثالث في الفروع ومات ببغداد سنة ٣٢٨هـ، ويلاحظ أنه معاصر الإخوان الصفا– في كتابه هذا ذكر هذه الكتب التي يدعي العلويون أنهم اختصوا بها فقال: وعند الأئمة اسم الله الأعظم [أصول الكافي ص ١١٠– ١١٢] وعندهم الجفر وهو وعاء من أدم فيه على النبيين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل، وعندهم مصحف فاطمة وفيه مثل قرآننا ثلاث مرات، وليس فيه من قرآننا حرف واحد [ص ١١٥]. وقد كذب من ادعى من الناس أنه جمع القرآن كله، فما جمعه وحفظه كما نزل الله إلا على بن أبي طالب والأئمة من بعده [ص ١١٠].

وكان كل إمام يعهد إلى الذي يليه ويترك له كتابًا ملفوفًا ووصية ظاهرة [ص ١٤٩].

[1] ج٤ ص٤٠٣.

البيت الذي فيه سر الخلافة وعلم النبوة، هو البيت الذي وسموا أهله بالسحر العظيم في الجاهلية والإسلام، لما يظهر منهم من الآيات ويعلمونه من المعجزات. فلم يجد أعداؤهم حالًا يضعون بها من منازلهم، لما عجزوا عن العمل بمثل ما يعملونه، وجهلوا العلم الذي يعلمونه، إلا أن قالوا إنهم سحرة، وإن لهم أعوانًا من الجن يمدونهم بذلك.

"وهيهات، حيل بينهم وبين ما يشتهون. وإن هو إلا علم إلهي، وتأييد رباني تُنزل به ملائكة كرام كاتبون، وحفظة حاسبون، يلقونه بأمر الله عز اسمه على من اصطفاه من خالقه وارتضاه بخلافته في أرضه[(١)]".

وأوردوا حديثًا يؤيدون به فكرهم هذه في آل البيت: "قيل يا رسول الله، من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: نعم، من قالها مخلصًا دخل الجنة، قيل له: وما إخلاصها؟ قال: معرفة حدودها وأداء حقوقها، فقيل يا رسول الله: ما معرفة حدودها وأداء حقوقها؟ فقال: نعم، أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد ما في المدينة فليأت الباب، فأرشدهم إلى من يشرح لهم ذلك[(٢)]".

ونعود إلى "كازانوفا" حيث قال: "وأؤكد أن آراء الإسماعيلية الفلسفية توجد كلها في رسائل إخوان الصفاء، وكلاهما يتفق في القول بالإمام المستور والمهدي المنتظر. ويعقد "كازانوفا" موازنة بين إخوان الصفاء والإسماعيلية من جهة، وبين المحافل الماسونية من جهة أخرى، وأهم نقطة في

[(١)] رسائل جـ ٤ ص ٤٠٥.

[(٢)] جـ ٤ ص ٤٨٦.

الموازنة، هي خلط الآراء السرية بالنظريات السياسية.

وإنني أقول مع الأستاذ **Basset** "باست[1]" من أنه يجب الموازنة بين هذه المخطوطة التي عثر عليها كازانوفا، وبين المجموعة التي ذكرها، والتي تنسب إلى المجريطي.

وإنني أستنتج من مقالة كازانوفا هذه:

أن ما عثر عليه كتاب ينسب إلى أحد الحشاشين، وهم فرع من الإسماعلية وليس بمستغرب أن يخلط هذا الكتاب رسائل إخوان الصفا، أو يقتبس منها؛ فالإسماعيلية يعدون الرسائل دستورهم، ومستودععلومهم الباطنية، وقد ذكر **M, C. Defremory** دفريموري في عدد يناير (١٨٥٥) من المجلة الأسيوية في مقال بعنوان "بحث جديد على الإسماعيلية الباطنية بالشام المعروفين بالحشاشين في علاقاتهم على الخصوص مع ممالك الإفرنج": أن سنان بن سلمان الملقب برشيد الدين، وهو من أجل وأفخم رؤساء الإسماعيلية، قد خدم في الموت المقدمين الذين كانوا قبله، وزاول علوم الفلسفة، وأطال نظره في كتب الجدل والخلاف، وانكب على مطالعة رسائل إخوان الصفا.

فذكر انكبابه على رسائل إخوان الصفا، يدل على ما لهذه الرسائل في نفوس هذه الطائفة من الإسماعيلية من منزلة.

ويقول الأستاذ ماكدونالد: "لقد تلقي الإسماعيلية تعاليم إخوان الصفا،

---

[1] **Revue de la Histoire de Relegions** عدد ١٨٩٩ ص ٣٥٦- ٣٥٧ وراجع ص ٦٠ من هذا الكتاب.

وزادوا فيها في حصونهم الجبلية ومقر قواهم، تلك الحصون المنتشرة من بلاد الفرس إلى سوريا. وهؤلاء يعرفون بالحشاشين، ويقال لهم أحيانًا الباطنية، وإن دلت هذه الكلمة في معناها الواسع على من يجد في القرآن معنى خفيًا باطنًا غير معناه الظاهر.

"وحسبنا الآن أن تلاحظ كيف أن هذه الفلسفة السامية الهادئة التي وضعها إخوان الصفا، حولها الطموح والتعصب إلى سياسة حربية على أيدي هؤلاء الحشاشين وخناجرهم[١]".

ويقول في مكان آخر[٢]: "يجب أن تكون على ذكر من أن الحشاشين لم يكونوا عصابات من اللصوص تنشر الرعب بأساليبها الشنيعة، ولكن كلا الفرعين الشرق والغرب قد عكف على العلم، وربما وجد في خصومهم الجبلية أشد أنواع الفناء في طلب العلم الصحيح، وحينما استولى المغول على قلعة[٣]الموت، وجدوها غنية برسائل إخوان الصفا وبآلات هندسية

---

[١] Muslim Theology p. 197

[٢]نفس المصدر ص ١٦٩، ١٧٠.

[٣]وقلعه ألموت كانت وكر هؤلاء الحشاشين، استولى عليها الحسن بن الصباح أميرهمفي سنة ٤٨٣ هـ وهو من نسل الإمام علي، وقد اشتهروا أيام الحروب الصليبية حيث كان زعيمهم رشيد الدين بن سنان الملقب بشيخ الجبل بهادي ملوكهم، وقد تلقى تعاليمه في المدرسة الفاطمية مصر، وقد ظل الحسن مالكًا للقلعة ما يقرب من ثلاثين عامًا، وذهبت كل محاولات الخلافة للقضاء عليه أدراج الرياح، وقد كثرت غزواته لمن جاوره من الأمراء وقد سقطت القلعة في سنة ٥٢٤هـ على يد المغول. وكان ابن الصباح وخلفاؤه يقسمون أشياعهم إلى سبع طبقات: طبقة شيخ الجبل وطبقة الداعي الأكبر، وطبقة الدعاة، وطبقة الرفقاء، وطبقة الفدائيين، وطبقة اللصقاء، وطبقة الدهماء. وكان الفدائيون أداة بطش وإرهاب في أيدي أمراء الحشاشين، وعلى يديهم قتل الخليفة المسترشد بالله على باب مدينة مراغة، ومثل به شر تمثيل، ثم قتل

ورياضية وفلكية من كل نوع. إذًا من المحتمل أن تكون تعاليم إخوان الصفا وما تخفيه في طياتها هي الآراء الخفية للفاطميين، والحشاشين، والقرامطة والدروز".

ونستنتج كذلك من مقالة كازانوفا: أن إخوان الصفا يقولون مع الشيعة بوجود كتاب أو رسالة تسمى الجامعة، وهو مستودع لأسرارهم ومفتاح لرسائلهم. ومصداقًا لكلامه نقول: أن الشيعة يدعون أن "الجامعة" موروثة عن علي بن أبي طالب، وأن الأئمة يورثوها لأعقابهم على مدى الأجيال.

الخليفة الراشد بنواحي أصبهان: كما قتل اثنان من كبار الأمراء الصليبيين مع أنهم كانوا يحالفون الدول الصليبية، وهما ريموند صاحب طرابلس وكونراد صاحب مونتفرات.
وقد اتخذوا من (الحشيش) وسيلة يمكنون بها طاعتهم ويثبتون عقائدهم في قلوب هؤلاء الفدائيين، يخدرون به الفتيان الذين ترقوا من طبقة الدهماء إلى طبقة اللصقاء، إلى طبقة الفدائيين، ثم تتاح لهم فرصة التمتع بمجالس اللهو حيث القيان الحسان والغناء الشجي والرقص والموسيقى، ويوهمون أن (الرب) قد نقلهم إلى الفردوس، وأنه متى شاء نقلهم إليه بعد الممات، أو نقلهم إليه وهم على قيد الحياة. فيستميتون في طاعة هذا (الرب) ويتسللون إلى قصور الملوك والأمراء ليغرسوا خناجرهم في وسائدهم على سبيل الإنذار أوفي صدورهم على سبيل الانتقام. ومن هنا أخذ الصليبيون كلمة الحشاشين وأطلقوها على القتلة السياسيين ولا تزال كلمة **Assassin** باللغات الإفرنجية تدل على (المغتال) وقد حاول هؤلاء الحشاشون أن يغتالوا "صلاح الدين الأيوبي" غير مرة فأخفقوا في جميع المحاولاتإلا أنهم نشروا الرعب في قلوب أمراء المشرق من تخوم الهند إلى الديار المصرية، وقد بلغ من سطوتهم أن هابهم هولاكو وخاف أن يبطئوا به لجسارتهم، وأيقن أن لا راحة له إلا بالتخلص منهم فقتل من اتباعهم ما يزيد عن اثني عشر ألفًا بين فارس والعراق، ثم جاء "بيبرس" تقضي على ألوف منهم بجبال العلويين. ومن نسل حسن بن الصباح الذي ابتدع هذه الطرق الشنيعة في القتل السياسي آغا خان زعيم الإسماعيلية بالهند في العصر الحاضر، وإليه يجبي الإسماعيلية أموالًا طائلة، ويزنونه ويقدمون له مقدار وزنه ذهبًا أو ماسًا، وينظرون إليه نظرة تقديس.

وقد عظّم إخوان الصفا من أمر هذه الرسالة الجامعة، وشوقوا القراء إلى الاطلاع عليها، ثم لا نرى لها أثرًا في أي مجموعة من المجموعات المخطوطة أو المطبوعة مما يدل على أنهم أخفوها، وقد طبعت في مصر رسالة الإنسان والحيوان خطأ تحت عنوان (الجامعة) وقد جاء فيها: "نحن لبسنا السواد، وطلبنا بثأر الحسين بن علي عليهما السلام، وطردنا البغاة "بني مروان" ونحن نرجو أن يظهر من بلادنا الإمام المنتظر[١].

فهذه الجامعة التي يشيد إخوان الصفا بذكرها، وأنها مفتاح رسائلهم، ومجمع أسرارهم، ثم عدم العثور عليها يؤيد صلتهم بالشيعة الباطنية.

أما الجفر وحساب الجمل، والتنبؤ بالمستقبل، وتأثير الأعداد في الكون، فقد عنوا بها عناية خاصة في رسائلهم، وحسبك أن تقرأ الجزء الأول من رسائل إخوان الصفا وتطلع على القسم الرياضي معه، ثم باب الطلسمات والعزائم في آخر الرسائل، لتعرف مدى اهتمامهم بهذا النوع من العلم، وهاك مثلًا مما قالوه في ذلك: "وأعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروحٍ منه، أن ماهية السحر وحقيقته هو كل ما سُحِرَت به العقول، وانقادت إليه النفوس من جميع الأقوال والأعمال بمعنى التعجب، والانقياد، والإصغاء، والاستماع، والاستحسان، والطاعة، والقبول[٢]".

فهم هنا يبينون أن السحر يستخدم في الإقناع وانقياد النفوس لهم

---

[١] الرسالة الجامعة ص ٨٢.

[٢] ج ٤ ص ٣٤٨.

وقبول مذهبهم وما يدعون إليه، ويحثون إخوانهم ودعاتهم على تعلم السحر والتنجيم والرقي، وكل ما يمكن أن يؤثر على الناس، حتى تعظم مكانتهم لديهم ويتعرفوا بهم، وهذا ما كان يعمله الإسماعيلية في الهند حين دخلوها أول مرة. وأعلم يا أخي، أنه بهذه الصناعة يكون لك معرفة الملوك والرؤساء والسلاطين والمديرين وأتباعهم، وما يكون من أمورهم وحال من يعاديهم، ويخرج عليهم في زمانهم ويضايقهم في مكانهم. وإذا عرفت ذلك واطلعت عليه طابت نفسك بذلك وسكنت إلى ما علمته، ومالت نحو الخليفة الذي عنده الحق واليقين، واستخلفته على نفسك الزكية وروحات المضيئة، وإن قدرت عليه ووصلت إليه فقد نجوت ووقفت على الطريقة الواضحة والحجة اللائحة[١]".

ففي العبارات السابقة يبينون له ما لمعرفته بالسحر والعزائم والتنجيم من فائدة، وأنه سيتصل بالملوك والرؤساء وغيرهم، ومتى احتل في المكان الذي اختاره لدعوته هذه المنزلة فقد سهلت مهمته. ثم إنهم يغرونه بأن هذا العلم سيوصله إلى معرفة الخليفة الحق (ويقصدون الخليفة المستور)، وأنه متى وصل إليه فقد نجا، ولعل إتقانه للدعوة، والافتنان في الإقناع، وإجادة ضروب السحر وجذب العقول إليه تحله مكانة سامية في دائرة الإخوان، وتقربه من مركز الدائرة وهو الخليفة الذي يدعون إليه، ثم ينكشف له الستر فيعرفه. وهو ما تصبو إليه نفس كل داعية أو أخ، وهم يصرحون بغرضهم من الإفاضة في هذه الأمور في رسائلهم، فيقولون: "ولعل كثيرًا ممن يقف على رسائلنا هذه يظن أن مرادنا في وضعها هو تعليم علم النجوم،

---

[١] ج ٤ ص ٤٠٧.

ولعمري أن ذلك من أحد أغراضنا فيها، لأننا نحب لإخواننا أيدهم الله أن يقفوا على جميع العلوم ويتعلموها ولا يجهلوها، إذا كان مذهبهم هو النظر في جميع العلوم واستقراؤها كلها والإحاطة بمعرفة ظواهرها وبواطنها[1]".

ومن ذلك قولهم: "وأما منافعها، والفائدة منها، فقد ذكرنا في رسالة الطلسمات والعزائم طرفًا منها، ولكن نذكر منها في هذا الفصل مثالًا واحدًا ليكون دلالة على صدق ما قلنا، فنقول: إن من خاصية هذا الشكل المتسع -وهو مرسوم بالجزء الأول ص (٧١)- ومنفعته تسهيل الولادة إذا كتب على خرقتين لم يصبهما الماء، وعلقتهما على المرأة التي ضربها الطلق، وإن اتفق أن يكون القمر في التاسع، ومتصلًا برب التاسع سهل الولادة، أو برب بيته من التاسع، وما شكل ذلك من المتسعات".

"وذلك أنه ما من شيء من الموجودات الرياضية والطبية والإلهية إلا وله خاصية ليست لشيء آخر، ولمجموعتها خواص ليست لمفرداتها من الأعداد والأشكال، والصور، والمكان والزمان، والعقاقير والطعوم، والألوان، والروائح، والأصوات والكلمات، والأفعال والحروف والحركات، فإذا جمعت بينها على النسب التأليفية ظهرت خواصها وأفعالها [2]".

هذا وقد قال المحبي في خلاصة الأثر: "وحاصل تلك الرسائل ليس إلا مذهب الباطنية الإسماعيلية، وهم أنماط شتى، ومعظم القول في هذه الشيعة من شيعتهم تناسخ الأرواح، وادعاء حلول الباري تعالى في الأنبياء

---

(١) ج٤ ص ٤١٣.

(٢) ج١ ص ٧١.

المشهورين من آدم إلى مُحَمَّد -عليه السلام- وفي أمة آل البيت، وآخرهم المهدي، ويعظمونه على الجميع، والإسماعيلية يوافقون الإمامية في ذلك[1]".

ويقول "دينور" في كتابه تاريخ الفلسفة في الإسلام: "وقد أخفى إخوان الصفا آراءهم الانتقادية في رسائلهم بعض الإخفاء، وذلك لأسباب غنية عن البيان، غير أن حملتهم على المجتمع، وعلى الأديان الموروثة تجلى من غير أدنى احتياط في رسالة الحيوان والإنسان، وفيها ألبسوا آراءهم ثوبًا رمزيًا؛ فقالوا على السنة الحيوان ما إن جاهر به أحدهم لثارت حوله الشكوك[2].

-٣-

موازنة: ومما يؤيد صلتهم بالإسماعيلية أن نشاط الإخوان في بث تعالمهم يشبه ما يقوم به دعاة الإسماعيلية من الجد والنشاط في نشر مذهبهم، وتشكلهم ما يلائم مصلحتهم، ولبسهم لكل حال لبوسها، ومخاطبتهم الناس على حسب أهوائهم وأمزجتهم، واستعمالهم السحر والطلاسم والرقي والتعاويذ في إقناع الناس بمقدرتهم ومبلغ علمهم، وقد أخذ ينافي الفصل الأول من هذا الكتاب

عند الكلام على الباطنية ما رواه "السير توماس أرنولد"، وما رواه

---

[1] خلاصة الأثر جـ ٤ ص ٦

[2] تاريخ الفلسفة في الإسلام من ١٠٥، ترجمة أبي ريده، وانتظار ما قالوه على ألسنة الإنسان والحيوان في الجزء الثاني من الرسائل في الرسالة الثامنة.

"دوزي" عن نشاط الإسماعيلية، وتنوع أساليبهم في نشر دعوتهم[1]. وهكذا كان إخوان الصفاء، أو هكذا ظهروا في رسائلهم، فقد عينوا خطبًا خاص لكل صنف من الناس، وأوصوا باستعمال الرفق والتأني في إقناعهم مما أفضنا في تبيانه في الفصل السابق عند الكلام على نظام جماعتهم، وقد اتخذوا دعاة من كل صنف من الناس، من أولاد الملوك والأمراء والوزراء، والكتاب، والعلماء، والعمال وأولاد الأشراف والدهاقين والتجار والصناع؛ ليدعو كل منهم أبناء طائفته ويستميله إليه بشتى الوسائل، "وأما نحن فقد بذلنا مجهودنا في هداية الضالين، وإرشاد التائهين وتنبيه الغافلين، وخاطبنا كل قوم وصنف منهم ما هو أصلح أن نخاطبهم به[2]، وقد أبدوا من رحابة الصدر والتسامح الديني ما يذكرنا بالإسماعيلية في الهند وفارس، فقد ثبت أنهم لأول دخولهم بلاد الهند[3]كانوا يوافقون البوذيين على عقائدهم حتى يستميلوهم إليهم، ثم يكملون النقص في هذه العقائد بنظرية الإسماعيلية الأساسية، وهي قداسة على وعودته ثم يجعلون برهما محمدًا، ووصو عليًا، وآدم سيفًا[4]، وقد رأينا في الفصل الأول كيف كانوا يعاملون المجوس واليهود والنصارى ويتقربون لكل طائفة من هؤلاء. وكذلك كان إخوان الصفا فلم يظهروا تعصبًا إزاء الديانات الأخرى لأن ذلك ليس في

---

(١) ١راجع صفحة ٢٤، ٢٥ من هذا الكتاب.

(٢) ج ٤ ص ٢٨٢.

(٣) أول من دخل الهند من الإسماعيلية هو عبد الله الميني الإسماعيلي جاءها حوالي ٤٥٩-١٠٦٧م وتبعه نور الدين الذي تسمى باسم نورستاجر وقد قدم من "الموت" إلى جوجرات في عهد الملك الهندي سدهاراج (١٠٩٤_١١٤٣م).

(٤) The Preaching of Islam فصل عن انتشار الإسلام بالهند.

مصلحة دعوتهم. وبالجملة ينبغي لإخواننا أيدهم الله تعالى ألا يعادوا علمًا من العلوم، أو يهجروا كتابًا من الكتب، وألا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لإن رأينا مذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم كلها(١)".

وهذه عبارة واضحة من أنهم يلبسون لكل حال لبوسها، ويظهرون الموافقة لأصحاب الديانات الأخرى، والمذاهب المتباينة ثم يستدرجونهم إلى عقيدتهم ومذهبهم.

ويقولون كذلك: "وأعلم بأن غرض الأنبياء–عليهم السلام– وواضعي النواميس الإلهية أجمع غرض واحد وقصد واحد، وإن اختلفت شرائعهم وأزمان عباداتهم وأماكن بيوتهم، وقرابينهم وصلواتهم، كما أن غرض الأطباء كلهم غرض واحد، في حفظ الصحة الموجودة، واسترجاع الصحة المفقودة، وإن اختلفت علاجاتهم باختلاف الأمراض العارضة للأبدان(٢)"، فالتوراة والإنجيل، والقرآن، وغيرها من الكتب الدينية عندهم سواء، وكأنهم يريدون أن يستوعبوا الديانات كلها في دين واحد، ومذهب واحد، وليس هناك أوضح من قولهم: "والله أرسل روحه إلى كل الناس لا فرق بين النصراني والمسلم، وبين الأسود والأبيض". ويعتقدون أن أهل الديانات يقتتلون طلبًا للملك والرئاسة، وأما الديانات ذاتها فكلها طرق ومسالك توصل إلى الله، من أي الجهات توجهنا فثم وجه الله، والديانات كلها قصدها واحد وهو التوجه إلى الله(٣).

---

(١) الرسائل جـ ٤ ص ١٠٥.

(٢) جـ ٢ ص ١٢٠.

(٣) جـ٢ ص ٣٠٨.

لأن الإسماعيلية تسعى أولًا في زلزلة العقيدة في قلب المدعو والتشكيك في دينه، وإماتة التعصب فيه، فإذا ما تيقنوا من أنه صار لا يهتم بأمور دينه كما كان أولًا، وأنه لم يعد ذلك المتعصب الذي يستشهد في سبيل مبدئه وعقيدته، لقنوه مذهبهم تدريجيًا؛ ولا شك أن الدعوة إلى التسامح كما وضعها إخوان الصفا، وأن مذهبهم يستوعب جميع الديانات والمذاهب، مما يؤدي إلى هذا التشكك، وعدم الاكتراث بأمور الدين.

ومما يؤيد فكرة انتساب إخوان الصفاء لطائفة الإسماعيلية أو الشيعة الباطنية، عقد موازنة بين بعض النصوص التي وردت في آثار هؤلاء وهؤلاء، وسنجد توافقًا عجيبًا في الفكرة، والعبارة والمرمى.

فقد ورد في الوثيقة التي تكتب لداعي الدعاة الفاطمي عند توليته ما حدد مهمته، وقد جاء فيها: "وخذ العهد على كل مستجيب راغب، وشد العقد على كل منقاد ظاهر، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه، ويصح عندك عفافه ودينه، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه".

"ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع، ولا تلق الحب إلا في مزرعة لا تكدي على الزارع، وتوخَّلغرسات أجل المغارس، ومن أسرار الحكم إلا عن أهلها، ولا تبذلها إلالمن استحقها، ولا تكشف المستضعفين ما يعجزون عن تحمله، ولا تستقل أفهامهم بتقبله، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول".

"وألن لهم جانبك، واحن عليهم والطف وابسط لهم وجهك، وأقبل إليهم واعطف، وإذا ألبس عليك أمر وأشكل، وصعب لديك مراد

وأعضل، انهه إلى حضرة الإمام[1]".

فإذا وازنا بين هذا وبين ما ورد في الرسائل الخاصة بالدعوة وقبول عضو جديد في زمرة الإخوان، رأينا مشابهة تامة في الفكرة والعبارة، وقد مر بنا عند الكلام على نظام جماعتهم شيء من هذا، ولا بأس من أراد بعض العبارات حتى تسهل الموازنة، من ذلك قولهم: "وينبغي لإخواننا حيث كانوا في البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقًا مجددًا أو أخًا مستآنفًا أن يعتبر أحواله، ويتعرف أخباره، ونجرب أخلاقه، ويسأله عن مذهبه واعتقاده، ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أم لا[2]".

"وينبغي لك إذا أردت أن تتخذ صديقًا أو أخًا أن تنتقده كما تنتقده الدراهم والدنانير والأرضين طبية التربة للزرع والفرس، وكم ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشرى المماليك، والأمتعة التي يشترونها[3]".

وبعد أن يذكروا صفة هؤلاء الأصدقاء والإخوة يقولون: "فإذا أسعدك الله يا أخي بمن هذه صفته؛ فابذل له من نفسك ومالك، وقِ عرضه بعرضك، وافرش له جناحك، وأودعه سرك، وشاوره في أمرك[4]".

ويقولون كذلك: "وهكذا ينبغي لمن حصلت عنده هذه الرسائل ألا يضيعها بوضعها في غير أهلها، أو بذلها لمن لم يرغب فيها، ولا يظلمها

---

[1] صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٣٤ وما بعدها.

[2] رسائل جـ ٤ ص ١٠٧.

[3] رسائل جـ ٤ ص ١٠٨، ١٠٩.

[4] جـ ٤ ص ١٠٨، ١٠٩.

بمنعها عن مستحقها، وصرفها عن مستوجبها، ولا يعرفها إلا لكل حر خيرٍ سديد مبصر للقصد. وليحرز في حفظها وإسرارها وإعلامها وإظهارها كل التحرز، ويحرسها غاية الحراسة، ويصنها أحسن الصيانة(١)".

"إنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفًا من سطوة الملوك ذوي السلطنة الأرضية، ولا حذرًا من شغب جمهور العوام، ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا، كما أوصى المسيح- عليه السلام- فقال: "لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم(٢)".

واستمع إلى هذه الرسالة التي أرسلها المعز لدين الله الفاطمي إلى الحسن ابن احمد القرمطي الملقب بالأعصم، حينما زحف بقوته على مصر: "فما من جزيرةٍ في الأرض، ولا إقليمٍ إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا، ويأخذون بذمتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون عالمنا، وينذرونبأسنا، ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن، وفي كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون وعنهم يأخذون "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه لبين لهم(٣)".

وهذا ما قاله إخوان الصفاء مشابهًا لهذه الكلمات: وأعلم أيُّها الأخ، البار الرحيم أن لنا إخوانًا وأصدقاءً من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد، منهم طائفة من أولاد الملوك والتجار والتِّناء، ومنهم طائفة من أولاد العلماء، والأدباء والفقهاء وحملة الدين، ومنهم طائفة من أولاد

(١) ج ١ ص ٢٠.

(٢) ج ٤ ص ٢١٥.

(٣)اتعاظ الحنفاء ص ١٣٩.

الصناع والمتصرفين وأمناء الناس، وقد ندبنا لكل طائفة منهم أحدًا من إخواننا من ارتضيناه في بصيرته ومعارفه، لينوب عنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم[١]".

هذا وقد اشترك إخوان الصفاء مع الباطنية في الاهتمام بالفلسفة، وعولوا على طلاب الفلسفة في تفهم دعوتهم؛ لأنهم قد تحرروا على الأقل من محبة الشريعة، والتعصب لها، وصار عندهم بعض الاستعداد للتنكر لها؛ فبعض الآراء الفلسفية التي اعتقدوها لم تكن توافق العقيدة. ويدل على اهتمام الباطنية بالفلسفة تلك الرسالة التي أرسلها عبيد الله بن الحسن القيرواني الداعية الشهير إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنائي زعيم القرامطة، حيث قال له: "ادعُ الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنست منه رشدًا، فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا[٢]".

وذكر الشهرستاني: "إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج[٣]"، وسنعرف فيما بعد مدى اشتراكهم وإخوان الصفاء في بعض الآراء الفلسفية.

ويقول دوزي: "لم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص، ولكن بين الثنوية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية، ولم يكن

---

[١] رسائل جـ ٤ ص ٢١٤.

[٢] الفرق بين الفرق ص ٢٧٨.

[٣] الشهرستاني في الملل والنحل (على هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل- لابن حزم) جـ ٢ ص ٢٩.

يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره، وخفى عقيدته[1]".

وأما إخوان الصفاء فقد عظَّموا من أمر الفلسفة كثيرًا، وعرفوها "بأنها التشبه بالإله بحسب طاقة الإنسان[2]"، وقالوا: "وأعلم أيها الأخ،أنَّا جماعة إخوان الصفاء أحق الناس بالعبادة الشرعية، ومراعاة أوقاتها، وأداء فروضها ومعرفة تحليلها وتحريمها؛ لأنَّنا أخص الناس بها، وأولاهم بحملها، وأقرب الناس إلى من جاءت على يديه وأولاهم به، وأحق الناس أيضًا بالعبادة الفلسفية الإمامية والقيام بها، والأخذ لها، والتجديد لما دُثِرَ منها[3]".

ونرى في هذه العبارة أنهم يعترفون بالتشيع، بل يدَّعون أنهم أخص الناس بالدعوة المحمدية (وأنذر عشيرتك الأقربين)، وأنهم أقرب الناس إلى من جاءت على يديه، أي أنهم أهله وعشيرته، ثم يقولون بأنهم أحق الناس بالعبادة الفلسفية الإلهية، ولم يعلوا هذه الأحقية.

وقالوا: "إن الشريعة قد دُنسَت بالجالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية"، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية، اليونانية، والشريعة العربية، فقد حصل الكمال[4].

---

[1] دوزي ٢٦٠- ٢٦٢. Eassei sur I'Histoire de l'Islamisr1

[2] رسائل جـ ١ ص ٢٢١.

[3] رسائل جـ ٤ ص ٣٠٦.

[4] جـ ١ ص٢٤.

كل هذا يدلنا على أن إخوان الصفا، والباطنية، قد اتخذوا من الفلسفة أداةً لدعوتهم يشككون بها الناس في عقائدهم، ويجذبوهم نحو فكرتهم، واتخذوا من طلاب الفلسفة أنصارًا لهم؛ لأنهم أجرأ الناس على الشريعة التي يريد الباطنية هدمها، وإن تظاهروا بخلاف ذلك.

وإذا وازنا بين بعض آراء إخوان الصفاء الفلسفية، وبين بعض آراء الباطنية وجدنا الشبه تامًا.

ذكر الشهرستاني أن الباطنية القديمة قالوا: "إن الله أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل، ثم بتوسطه أبدع النفس الثاني الذي هو غير تام. وقالوا لما اشتاقت النفس إلى كمال العقل، احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال، واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة، حدثت الأفلاك السماوية، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها[(١)]".

وقال إخوان الصفاء: "إن الله تعالى كان قبل الوجود كامل الفضائل عالمًا بالكائنات قبل كونها، قادرًا على إيجادها متى شاء، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها، ولا يفيضها. فإذًا بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض من عين الشمس النور والضياء،ومادام ذلك الفيض منه متصلًا متواترًا غير منقطع، فيسمى أول ذلك الفيض العقل الفعال، وهو جوهر بسيط روحاني محض في غاية التمام والكمال والفضائل وفيه صور جميع الأشياء، كما تكون في فكر العالم صور

[(١)]الشهرستاني: الملل والنحل هامش الفصل بين الملل والنحل لابن حزم ج ٢ ص ٣٠.

المعلومات، وفاضَ من العقل الفعال فيض آخر دونه في رتبته يسمى العقل المنفعل وهي النفس الكلية، وهي جوهرة روحانية بسيطة قابلة للصور والفضائل من العقل الفعال على الترتيب والنظام، كما يقبل التلميذ من الأستاذ التعليم.

وفاض من النفس أيضًا فيض آخر دونها في الرتبة يسمى الهيولى الأولى، وهي جوهرة بسيطة روحانية قابلة من النفس من الصور والأشكال بالزمان شيئًا بعد شيء.

فأول صورة قبلت الهيولى الطول والعرض والعمق، فكانت بذلك جسم مطلقًا وهو الهيولى الثانية، ووقف الفيض عند وجود الجسم، ولم يفض منه جوهر آخر لنقصان رتبته عن الجواهر الروحانية، وغلظ جوهره وبعده من العملة الأولى. ولما دام الفيض من الباري تعالى على العقل، ومن العقل على النفس، عطفت النفس على الجسم، فصورت فيه الأشكال والصور والأوضاع لتتمه بالفضائل والمحاسن، بحسب ما يمكن من قبول الجسم وصفاء جوهره.

فأول صورة عملت النفس في الجسم، الشكل الكروي الذي هو أفضل الأشكال، وحركته بالحركة الدورية التي هي أفضل الحركات ورتبت بعضها في جوف بعض من لدن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض وهي إحدى عشرة كرة[1]".

فما قاله إخوان الصفاء في نشأة الوجود، وما أثر عن الباطنية متشابه

---

[1] رسائل جـ ٣ ص ١٩٧، ١٩٨.

تمام التشابه، وسنرى فيما بعد أن هذا الرأي يناقض العقيدة الإسلامية.

– ٤ –

آراؤهم في الخلافة: ولعل أقوالهم في الخلافة، وفي أحقية أهل البيت بها، وفي الإمام المستور مما يؤيد نسبة إخوان الصفا إلى الطوائف الباطنية من الشيعة.

وهكذا يجرى أمر المستخلفين من ذرية آدم في الأرض، من كان منهم مستخلفًا فيها بأمر الله تعالى، الذي استخلف به آدم بعد التوبة، وهو الأمر الثاني والوصية الثانية، التي لم يتعدها ولم ينسها وجعلها كلمة باقية في عقبه، وخلافة النبوة، ومملكة الرسالة والإمامة.

فمن تعدى هذا الأمر وخالف هذه الوصية وطلب أن يكون خليفة الله تعالى ليدبر خلقه بسعيه وحرصه فإنه لا يتم له، وإن تم وقدر عليه فإنما هو خليفة إبليس؛ لأنها حيلة ومكيدة وخديعة وتعدي وغصب، وظلم، وعدوان، وخذلان، وطغيان، وعصيان[1]، وهذه كلمة صريحة كشفت عن رأيهم في الخلافة القائمة لزمانهم، وعما يعتقدونه فيها من أنها اغتصبت حق آل البيت، وأن العباسيين خلفاء إبليس، وأنهم لجأوا إلى الحيلة والمكيدة والخديعة، وأن انتزاعهم الخلافة من آل البيت مع أن الدعوة كانت لهم أول الأمر تعدي، وظلم، وعدوان، وخذلان، وطغيان، واغتصاب.

وهناك نصًا آخر أوضح وأوفى يبين رأيهم في الخلافة، وفي الإمام

---

[1] رسائل ج ٤ ص ٤٠٤.

المستور: "والذين هم الخلفاء يغير هذه الصفة،مثل:الأنبياء،والأئمة، والتابعين لهم بإحسان ﷺ ورضوا عنه، الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر هم خلفاء الله تعالى التابعون لأمره، وهم صلاح العالم، وربما كانوا ظاهرين بالعيان موجودين في السكان في دور الكشف، وبالضد من ذلك في دور الستر، غير أنهم في دور الستر لا يكونون مفقودي الوجه جملة من أعدائهم". ويقولون: من يعتقد أن الإمام مختف من خوف المخالفين مثل من يعتقد أن الله قتله اليهود[1].

فأما أولياؤهم فيعرفون مواضعهم، ومن أراد منهم قصدهم تمكن منه، ولو كان غير ذلك، كان منه خلو الزمان من الإمام، الذي هو حجة الله على خلقه، وهو تعالى لا يرفع حجة، ولا يقطع الحبل الممدود بينه وبين عباده، فهم أوتاد الأرض وهم الخلفاء بالحقيقة في الدورين جميعًا. في دور الكشف يظهر ملكهم في الأجسام والأرواح، وفي دور الستر يجرى أمرهم في الأنفس،والعقول، وأصحاب المملكة الأرضية، والخلافة الجسمانية"[2]. ففي هذا النص المتقدم يعتقدون أن الأمة من آل البيت، هم الحلفاء في الحقيقة سواء كانوا معروفين للناس أو مستورين، وهم في دور الستر يعرفهم أولياؤهم ولا يمكن أن يخلو الزمان من واحد منهم؛ لأنهم حجة الله على عباده وهم أوتاد الأرض، وهم في دور الكشف لهم مملكة من الأحياء، وفي دور الستر لهم مملكة من الأنفس والأرواح.

وفي هذا نُقل بعض ما قاله الكليني عن الإمام في كتابه الكافي– وهو

(1) جـ ٣ ص ٨٦، جـ ٤ ص ٥٧– ٥٨.

(2) جـ ٤ ص ٤٠٦، ٤٠٧.

من أوثق كتبهم – فالإمام عندهم له صلة روحية بالله من جنس التي للأنبياء والرسل. كتب الحسن بن العباس–المعروف بالرضا–: جعلت فداك! أخبرني ما الفرق بين الرسول والإمام والنبي؟ فكتب أو قال: الفرق بين الرسول والنبي والإمام: أن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي، وربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم، والنبي ربما سمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع. والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص[١]".

فالإمام عند الشيعة يوحى إليه، ولقد صرح إخوان الصفا بأن علم آل البيت "إن هو إلا علم إلهي، وتأييد رباني ينزل به كرام كاتبون وحفظة حاسبون، يلقونه بأمر الله عز اسمه على من اصطفاه من خلقه، وارتضاه بخلافته في أرضه[٢]".

ويقول الكليني: "والله أعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل إن زاد المؤمنون شيئًا ردهم، وإن نقصوا شيئًا أتمه لهم، وهو حجة على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام، حجة الله على عباده، ولو لم يبق في الأرض إلا رجلان السكان أحدهما الحجة وكان هو الإمام[٣]".

والأئمة هم أركان الأرض أن تميد بها، وحجته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى[٤].

---

[١]كتاب أصول الكافي طبع فارس ص ٨٢.

[٢]رسائل جـ ٤ ص ٤٠٥.

[٣]أصول الكافي للكليني ص ٨٤.

[٤]نفس المصدر ص ٩٣.

وكان الشيعة يحكمون بالكفر على من ادعى الإمامة وليس من أهلها، وهذا ما قاله إخوان الصفا كما علمت.

ومما رواه الكليني، قال: "قال أبو عبد الله من ادعى الإمامة وليس من أهلها فهو كافر[١]".

ويقول إخوان الصفا كذلك: "وأعلم يا أخي، أن أقوى ما يكون فعل إبليس في دور الستر، وذلك لأن حجة الله عز اسمه في أرضه، وخليفته في عباده يكون مختفيًا مستورًا، وإن كانت أنواره تضيء في نفوس العارفين به والراجعين إليه الذين لا يغيرهم ما يرونه من قوة ملوك الدنيا وخلفاء الشياطين، فإنها أمور زائلة مضمحلة فانية لا بقاء لها ولا دوام، ولا ينظر إمامهم إلى ملكه وسلطانه في دور بستره، ولا يشككهم فيه دور الخفاء والاستتار، بل يكون الإمام عندهم في حال ستره وخفائه؛ لأن جميع ما يجوزونه على النبي المرسل فقد يجوزون مثله على الوصي وعلى الإمام؛ إذ كان النبي أشرفهم وأعلاهم رتبة، فهم يحوزون على النبي الموت،والقتل، والهرب من الأعداء، إذا لم يجد أنصار، والأكل والشرب، والنكاح والفرح، والغم، وأن الأمور الفلكية تطرأ على أجسامهم كما تطرأ على أجسامنا غير أن نفوسهم الروحانية الشريفة النورانية، هي من خارج الأفلاك، فلا يحكم الفلك على أنفسهم بل على أجسادهم، وأنهم بالأجساد مثلنا، غير أن بالأنفس فرقًا بيننا وبينهم مثل ما بين الحيوان غير الناطق وبيننا[٢]".

---

[١]أصول الكافي للكليني ص ١٨٧.

[٢]رسائل جـ ٤ ص ٤٠٨.

وهذا لعمري كلام واضح لا يحتاج إلى شرح يؤيد تأييدًا قويًا أنهم من الباطنية، الذين يقولون بالإمام المستور، ثم يدافعون عن تستره، ويعقدون موازنة بينه وبين النبي، ثم يرفعونه إلى أعلى من مستوى البشر، وأن الفرق بين نفسه ونفس بقية الناس، كالفرق بين الإنسان والحيوان.

-٥-

التقية: هذا ومن المبادئ المشهورة عند الشيعة "التقية" وفي القرآن: {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة} وفي قراءة {إلا أن تتقوا منهم تقية} ومعناها أن يحافظ المرء على عرضه، أو نفسه، أو ماله مخافة عدوه، فيظهر غير ما يضمر، فهي مداراة وكتمان، وتظاهر بغير الحقيقة.

والتقية عند الشيعة جزء من نظامهم السري، وتعاليمهم في سبيل الوصول إلى الخلافة. فإذا أراد إمام الخروج والثورة على الخليفة وضع لذلك نظامًا وتدابير وأعلم أصحابه بذلك فتكتموه، وأظهروا الطاعة، حتى يتم لهم المراد، فعملهم هذا تقية.

وإذا أحسوا ضررًا من كافر أو سني داروه، وجاروه وأظهروا له الموافقة وكان هذا من التقية.بالإضافة إلى ذلك فقد روى الكليني في التقية أخبارًا كثيرة، فروي عن أبي عبد الله أنه قال: "تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية في كل شيء إلا في النبيذ، والمسح على الخفين. وقال في قوله تعالى:

{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} أي بما صبروا على التقية[1].

وقد قال إخوان الصفاء بالتقية مثلما قال الشيعة: "فأعيادنا أيَّها الأخ، هي أشخاصٌ ناطقة، وأنفس فعالة، تفعل بإذن باريها ما يوحيه إليها، ويلهمها من الأفعال والأعمال، فاليوم الأول من أيامنا، والعيد الفاضل من أعيادنا هو يوم خروج أول القائمين منا، ويكون اليوم الموافق لنزول الشمس برج الحمل،ولمجيء الربيع الخصب، والنعمة ونزول الرحمة، والظهور والانتشار، وهو يوم فرح وسرور لنا ولجميع إخواننا. واليوم الثاني هو يوم قيام الثاني، الموافق يوم قيامه يوم نزول الشمس أول السرطان في تناهي طول الليل وقصر النهار؛ إذ كانت تصرخ دولة أهل الجور وانقضاؤها، وهو فرح وسرور وانتشار.

واليوم الثالث هو يوم قيامة ثالثنا الموافق لنزول الشمس أول الميزان، واستواء الليل والنهار، ودخول الخريف، وهي مقاومة الباطل الحق، وكون الأمر على خلاف ما كان عليه.

ثم اليوم الرابع يوم الحزن والكآبة، يوم رجوعنا إلى كهفنا وكهف التقية والاستتار، فيكون الأمر على مثل ما نحن عليه في وقتنا إلى وقت البروز والخروج والرجوع بعد الذهاب، كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحمل.

واعلم يا أخي، أن في هذه المدة يميز الله الخبيث من الطيب، ويرفع أهل العلم درجات لم يكونوا لينالوها إلا بصبرهم واحتسابهم في جنب ما

---

[1]أنظر الكليني في الكافي ص ٤٠٠.

يصيبهم، فلا تنكر أيها الأخ، ما ذكرنا من أن الزمان لا يدوم بصفائه. إن الصفاء إنما يُعرف بالكدورة، والعدل بالجور، والصحة بالسقم، وإنما صفاء إخوان الصفاء لما أخلصوا الصبر على البلوى في السراء والضراء، واستسلموا لربهم، وانقادوا إليه بنفوس ساكنة مطمئنة[1].

-٦-

الإسماعيلية المعاصرون: وقد مر بنا أن الشيعة الإسماعيلية المعاصرين، يعتقدون أن مؤلف رسائل إخوان الصفا أحد الأئمة من آل البيت، وأن هذا الإمام هو أحمد بن عبد الله بن مُحَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

وقد ذكر هذا "أغاخان " زعيم الإسماعيلية في كتابه "نور مبين حبل الله المتين"، الذي تكلمنا عما جاء به خاصًا بإخوان الصفاء آنفًا.

واعتقادهم هذا يدل على ما لرسائل إخوان الصفاء عندهم من منزلة رفيعة. وأنها تحوي تعاليم الطائفة، وربما وجد في الرسائل ذاتها ما يفيد أن بعض المؤلفين من آل البيت، فقد ورد بعد ذكر الرسائل وعددها، وأنها أشبه بالمقدمات للعلوم؛ لكيما إذا نظر فيها أهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها، وعرفوا حقيقة ما هم مقرون به من تفضيل أهل بيت النبي –عليه السلام–؛ لأنهم خزان علم الله وورثو علم النبوات، تبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم،والمعرفة،والفهم،والتمييز، والبصيرة في الآفاق.

---

[1] رسائل ج ٤ ص ٣٠٨.

فكانت الرسائل دليل يقوم على غزارة علم أهل البيت، وأنهم وارثوا علم النبوات، وأنهم أهل فهم وتمييز وبصيرة في الآفاق، وأنها تؤيد اعتقاد الشيعة في آل البيت، وهذا كله إشارة بيئية إلى أنهم من آل البيت. وقد يكون بعض مؤلفي الرسائل من آل البيت حقًا، ولكن الرسائل لم يؤلفها شخصٌ واحد على كل حال كما ذكرنا آنفًا.

وقد ذكر الدكتور حسين الهمداني وهو من شيعة الدعوة الإسماعيلية القديمة[١]: "إن الإسماعيلية يرون القرآن الكريم كتاب العامة، ويرون رسائل إخوان الصفا كتاب الأئمة".

فإذا استعرضنا كل ما ذكر في هذا الفصل من أقوال إخوان الصفا في رسائلهم، ومن أقوال العلماء وآرائهم في إخوان الصفا، ومن الموازنة بين ما جاء في الرسائل، وما أثر عن الباطنية، ومن رأي إخوان الصفا في الخلافة وفي الإمامة، وقولهم بالتقية والمهدي المنتظر، والإمام المستور. تبين لنا أن إخوان الصفا ينتمون إلى الشيعة الباطنية، وإن لم يصرحوا بهذا، ولم يكن ينتظر منهم أن يصرحوا، وتكتمهم هذا هو الذي جعلنا نطيل المقام في الاستشهاد والاستنتاج حتى نصل إلى رأي قريب من الصواب.

---

[١] للإسماعيلية دعوتان: دعوة قديمة وأهلها اليوم اسماعيليو اليمن في جبال "حراز" وعددهم ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف؟ وكانوا أكثر من ذلك فأراد الإمام يحي حميد الدين ملك اليمن فريقًا كبيرًا منهم. ودعوة جديدة وأهلها في الهند والشام وإمامها أغاخان راجع ص ٦٣، ٦٤ من هذا الكتاب.

الفصل السابع

رسائلهم وفلسفتهم

-١-

موضوع الرسائل: رسائل إخوان الصفاء موسوعة ضمت بين دفتيها مبادئ العلوم، التي كانت معروفة في البلاد العربية، حتى القرن الرابع الهجري ولاسيما تلك التي ترجمت من اليونانية، وقد اعترف إخوان الصفا بأنهم ألفوها كنماذج ومقدمات، فلم يتوسعوا في بسط قضاياها، ويقولون في ذلك:

"وأعلم يا أخي،أننّا قد عملنا إحدى وخمسين رسالة في فنون الآداب، وغرائب العلوم، وطرائف الحكم كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والنماذج[١]". وختموها بتلك الرسالة التي سموها الجامعة، وهي في رأيهم خارجة عن جملة الرسائل، ولعل هذا هو السبب في عدم وجودها لدينا: "أعلم أيها الأخ البار الرحيم، أنَّنا قد جعلنا في كل رسالة من رسائلنا فصلًا جعلناه من لبها وخالصها، إذا وفق له من فهمه، وعمل به نال السعادة في الدنيا والآخرة، وقد لخصنا ما أوردناه في رسائلنا الإحدى والخمسين في رسالة مفردة عن الرسائل سميناها "الجامعة".

[١] رسائل جـ ٤ ص ٢٣٣.

وهي خارجة عن جملة الرسائل، أوردنا فيها بيان ما أخذناه في غيرها بأخص ما أمكننا منه؛ فليس تكاد تجتمع رسائلنا كلها عند رجل واحد إلا من سهَّل الله تعالى له ذلك، فعملنا تلك الرسالة لتنوب عن أخواتها. غير أن الأصوب والأجود عندنا ألا تقرأ الرسالة الجامعة إلا بعد قراءة رسائلنا الإحدى والخمسين؛ فإنه إذا قرأها بعد قراءة هذه كثر نفعه، وانفتح عليه ما انفلق من رسائلنا. وإن وجدها وفاتته الرسائل، أو بعضها لم يخل من فوائدها[١]".

وقد وضع إخوان الصفا لرسائلهم مقدمة أشبه بالفهرس، بينوا فيها بإيجاز عدد الرسائل والموضوعات التي تعرض لها كل رسالة.

"هذه فهرست رسائل إخوان الصفا... وهي اثنتان وخمسون رسالة[٢] في فنون العلم وغرائب الحكم، وطراف الآداب، وحقائق المعاني عن كلام خلصاء الصوفية– صان الله قدرهم، وحرسهم حيث كانوا في البلاد– وهي مقسمة على أربعة أقسام،فمنها رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية[٣]".

ثم أخذوا يبينون رسائل كل قسم، ويشرحون باختصار الغرض من كل رسالة؛ فالقسم الرياضي عندهم أربع عشرة رسالة: العدد، والهندسة والموسيقى والفلك، والجغرافيا، والنسب العددية، والصنائع العالمية والنظرية، والصنائع

---

[١] رسائل جـ ٤ صفحة ٢٩٠.

[٢] اختلف في عدد الرسائل والأرجح أنها إحدى وخمسون رسالة، ثم تضاف إليها الرسالة الجامعة فيكون المجموع اثنتين وخمسين، وهذه الرسالة الجامعة لا توجد في المجموعات التي بين أيدينا.

[٣] رسائل جـ ١ ص ٣.

العملية والمهنية، ثم المنطق بمقولاته، وعبارته، وبراهينه، وعددها سبع عشرة رسالة.

ويتكلمون في الطبيعيات عن الهيولى، والصورة، والسماء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، وتكوين المعادن، وماهية الطبيعة، وأجناس النبات، وأصناف الحيوان، وتركيب الجسد، والحاس والمحسوس، والإنسان عالم صغير، واللذات والآلام، واختلاف اللغات، وكيف ابتدأت المذاهب والديانات ونمت.

والرسائل النفسانية العقلية تشتمل على عشر رسائل: في المبادئ العقلية على رأي الفيثاغوريين، والمبادئ العقلية على رأي إخوان الصفا، وفي البحث عن علة الأشياء، وأسباب الكائنات، وفي العالم إنسان كبير، وفي العقل والمعقول، وماهية العشق، والبعث والحساب والقيامة، وفي أنواع الحركات، وفي العلل والمعاملات، وفي الحدود، والرسوم.

وأمَّا الناموسية الإلهية، فعددها إحدى عشرة رسالة تبحث في الآراء والمذاهب، وبيان اعتقاد إخوان الصفا، وكيفية عشرتهم، وماهية الأيمان، والوحي، وأعمال الجن، والملائكة والشياطين، وأنواع السياسات، وماهية السحر وما يتصل بها.

ويقولون: إنهم اختتموا الرسائل بالرسالة الجامعة، وفيها الأدلة البرهانية على ما تقدم من القضايا. أما الرسائل ذاتها فلم تحوِ إلا أدلة إقناعية لا برهانية[١].

---

[١] ج ١ ص ١٥.

أمَّا هذه الجامعة، ففيها معاني الرسائل ملخصة مستوفاة، مهدية مستقصاه ببراهين هندسية يقينية، ودلائل فلسفية حقيقية، وبيانات عالمية، وحجج عقلية، أو قضايا منطقية، وشواهد قياسية، وطرق إقناعية، لا يقف على كنهها، ولا يحيط بحقائقها، ولا يحصل شيئًا منها إلا من ارتاض بما قدمنا وحذق وعرف وتدرب فيها؛ إذ هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها، والمدخل إليها والأدلة عليها، والأنموذج منها[1]".

ومن سوء حظنا أنَّنالم نعثر على هذه "الجامعة"، لتعرف إلى أي مدى حقق إخوان الصفا ما ذكروه عنها. وقد بينا في فصل سابق أنه قد كثرت دعاوي من ظن أنه عثر على هذه الرسالة، وقد ناقشنا هذه الدعاوي بما فيه الكفاية ، وقد شهروا رسائلهم بالنسبة للجامعة ببستاني له حديقة، لم ترَ العين مثلها حسنًا وإبداعًا، وأراد لكرمه أن يدعو الناس إليها، والتمتع بما فيها، فأخذ نماذج من أزهارها ورياضها وفاكهتها، ووقف أمام بابها يعرضها على الناس، حتى إذا تذوقوها وعرفوا مزاياها، واشتاقت نفوسهم لدخول البستان أفسح لهم الطريق، كي يتمتعوا بما شاءوا ويتلذذوا ويطربوا.

ولم يقتصر إخوان الصفاء في رسائلهم على الفلسفة أو العلم، بل خلطوها بكثير من الخرافات والأساطير، وحاولوا أن يمزجوا الدين بالفلسفة، جاهدين أنفسهم في الاستشهاد بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، على نظريات أفلاطون،وأرسطو،وأفلوطين، وفيثاغورس وغيرهم،

---

[1] ج ١ ص ١٩.

وخير ما قيل في وصفها هو قول أبي حيان التوحيدي: "هي من كل فن بلا إشباع ولا كفاية وهي خرافات وكتابات وتلفيقات ومزيفات[1]".

وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دُست بالجهالات، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها، وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للمحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية، والشريعة العربية فقد حصل الكمال، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية، والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة والطرق المهملة[2].

-٢-

طريقة استدلالهم: والواقع يثبت رأي أبي حيان، فالرسائل لا تعمق فيها، ولا نظام ربط بين فصولها، وفيها تكرار وحشو، واستطراد كثير.

وبالنسبة لي الرسائل كانت أشبه بموسوعة تبسط فيها المسائل الفلسفية الأولية بأسلوب يوافق عقلية العامة، وحتى لا ينفروا من الفلسفة، ومن رسائلهم أخذ مؤلفوها يستشهدون بالأحاديث والآيات الكريمة، وبأقوالٍ من التوراة والإنجيل، وينسبون أشياء إلى نوح وإبراهيم وعيسى، ويروون قصصًا وأساطير يستدلون بها على ما يريدون، ويخلطون كل ذلك بالفلسفة خلطًا عجيبًا. خذ مثلًا محاولتهم للبرهنة على خلود النفس، فإنك لا ترى سوى أساطير تحكي عن الأنبياء، وعن آل البيت، وسقراط، وأرسطو،

---

[1] وهذا لا يمنع أن فيها آراء صائبة، ونظريات علمية محققة.

[2] الرسائل مقدمة زكي باشا.

وإبراهيم، وتوح، وأفلاطون، وفيثاغورس وما قاله الكل وما عمله الكل:

"ومما يدل على أن إبراهيم خليل الرحمن ، أنه كان يرى هذا الرأي قوله: {ربي والذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. رب هب لي حكمًا وألحقني بالصالحين}.

وهكذا قول يوسف الصديق: {رب قد آتيتني من الملك، وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين}.

أترى أنهما أرادا اللحوق بالصالحين بجسدهما أو نفسهما؟ وهل ألحق جسدهما إلا بتراب الأرض التي منها خلقا، وإنما أراد نفسهما الزكيتين الشريفتين.

"ومما يدل على أن أهل بيتنبيينا–عليهم السلام_ كانوا يرون رأي تسليمهم أجسادهم إلى القتل يوم كربلاء، ولم يرضوا أن يتولوا على حكم بزيدٍ وزياد، وصبروا على العطش، والطعن والضرب، حتى فارقت نفوسهم أجسادهم".

ولو لم يكن القوم مستيقنين ببقاء نفوسهم بعد مفارقة أجسادهم، لما تعجلوا لإهلاك أجسادهم.

ومما يدل على أن الفلاسفة الحكماء المتألهين كانوا يرون هذا الرأي ويعتقدونه: تسليم سقراط جسده للتلف، وتناوله شربة السم، اختيارًا

منه... إلخ[1]"، وقال أرسطو في كتاب الثالوجيا شبه الرمزاني: ربما خلوت بنفسي وخلعت بدني، وصرت كأنني جوهر مجرد بلا بدن، فأكون داخلًا في ذاتي، خارجًا عن جميع الأشياء، فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبدي له متعجبًا، فأعلم أنهجزء من أجزاء العالم الأعلى الفاضل الشريف[2]".

"ويُحكى أن هرمس مثلث الحكمة، وهو إدريس –عليه السلام– صعد إلى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة، حتى شاهد جميع أحوال الفلك، ثم نزل إلى الأرض، فيخبر الناس بعلم النجوم، قال تعالى:" ورفعناه مكانًا عليًا[3]".

"وإنما استشهدنا على هذا الرأي بأقاويل الفلاسفة ووصاياهم، وأفعال الأنبياء وسنن شرائعهم، لأن في الناموس أقوامًا متفلسفين لا يعرفون من الفلسفة إلا اسمها، وأقوامًا من الشرعيين لا يعرفون من أسرار الشريعة إلا رسومها، يتصدرون ويتكلمون فيها بما لا يحسنون، ويتناظرون فيما لا يريدون، فيناقضون تارةً الفلسفة بالشريعة، والشريعة بالفلسفةتارةً أخرى، فيقعون في الحيرة والشكوك يَضلون ويُضلون[4]".

فكلامهم هذا واستدلالاتهم لا تنهض أمام المقاييس العلمية، وترينا أن تفكيرهم وأسلوبهم بعيدان كل البعد عن التفكير الفلسفي والأسلوب العلمي.

---

[1] رسائل ج ٤ ص ٩٨– ١٠١.

[2] ج ١ ص ٩٢– ويلاحظ أن هذا الكلام ليس لأرسطو وإنما لأفلوطين في كتاب الربوبية المنسوب خطأ لأرسطو.

[3] ج ١ ص ٩٢.

[4] رسائل ج ٤ ص ٩٨– ١٠١.

وهناك ما هو أدهى وأمر مما عززوا به رأيهم في خلود النفس، ومما يدل على بقاء النفوس بعد مفارقتها أجسادها: أن كل عاقل يتفكر في بكاء الناس وأحزانهم على موتاهم وقت مفارقة نفوسهم أجسادها، فلو كان بكاؤهم على أجسامهم، فالهم والبكاء؟ والأجساد بمحضر مهم برمتها، وهم يشاهدونها لم ينقص منها شيء.

ومما يدل على بقاء النفس وصلاح حالها بعد مفارقها أجسادها، ذهاب الناس إلى قبور الصالحين والأولياء والأخيار؛ لطلب الغفران واستجابة الدعاء والتوسل بهم إلى الله عز وجل، وما يرجون من شفاعتهم عند ربهم، وما يطلبون أيضًا من قضاء حوائجهم من أمور الدنيا بالدعاء عند قبورهم، أفترى أن أهل الديانات كلها اتفقوا على شيء لا حقيقة له؟ كلا.[1]"

فهذه براهين تصلح للعامة وتناسب عقولهم وليست من الفلسفة في شيء، وهكذا تخرج من هذا الموضوع إذا بحثته عند إخوان الصفا بحثًا علميًا صحيحًا كما ابتدأت فيه دون أن تقتنع، وعلى هذا النمط من الاستدلال سار إخوان الصفا في رسائلهم كلها.

-٣-

آراؤهم البالية: لا أريد أن أحصي هنا كل آراء إخوان الصفا الخيالية وما خاضوا فيه من خرافات، وإنما تريد أن نضرب أمثلة على

---

[1] رسائل ج ٤ ص ١٠١– ١٠٢.

إغراقهم في الخيال أحيانًا، فأنت تراهم مثلًا في رسالة العدد، وفي القسم الرياضي كله يتبعون الفيثاغوريين، فلا يهتمون في البحث في علم الحساب، مثل اهتمامهم بخواص الأعداد، وبتأثير الموسيقى في النفوس، وبالكلام عن موسيقى الأفلاك:

أسرار الأعداد: "وأعلم بأن كون العدد على أربع مراتب، التي هي الآحاد والعشرات، والمئات والألوف، ليس أمرًا ضروريًا لازمًا لطبيعة العدد، مثل كونه أزواجًا وأفرادًا، صحيحًا وكسورًا، بعضها تحت بعض، لكنه أمر وضعي رتبه الحكماء باختيار منهم، وإنما فعلوا ذلك؛ لتكون الأمور العددية مطابقة لمراتب الأمور الطبيعية. وأكثرها جعلها البارئ جل ثناؤه مربعات مثل الطبائع الأربع، التي هي: الحرارة والبرودة، والرطوبة، واليبوسة؛ ومثل الأركان الأربعة التي هي النار، والهواء، والماء، والأرض،ومثل الأخلاط الأربعة التي هي الدم، والبلغم، والمرتان: المرة السفراء، والمرة السوداء؛ ومثل الأزمان الأربعة التي هي الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء؛ ومثل الجهات الأربع والرياح الأربع... إلخ.

وأعلم أن هذه الأمور الطبيعية إنما صارت أكثرها مربعات بعناية البارئ جل ثناؤه واقتضاء حكمته؛ لتكون مراتب الأمور الطبيعية مطابقة للأمور الروحانية، التي هي فوق الأمور الطبيعية وهي ليست بأجسام، وذلك أن الأشياء التي فوق الطبيعة على أربع مراتب: أولها الباري ﷻ، ثم دونه العقل الكلي، ثم دونه النفس الكلية، ثم دونه الهيولى الأولى، وكل

هذه ليست بأجسام[1]".

والواحد من الأعداد هو أصل كل الأعداد، وعنه تصدر بالتكرار؛ ويذهبون مذهب الفيثاغوريين في ذلك، وهو أن الواحد أصل الوجود:

"وأعلم أن الباري- جل ثناؤه- أول شيء اخترعه وأبدعه من نور وحدانيته جوهر بسيط يقال له العقل الفعال، كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار، ثم أنشأ النفس الكلية الفلكية من نور العقل، كما أنشأ الثلاثة بزيادة الواحد على الاثنين، ثم أنشأ الهيولى الأولى من حركة النفس، كما أنشأ الأربعة بزيادة الواحد على الثلاثة، ثم أنشأ سائر الخلائق من الهيولى، ورتبها بتوسط العقل والنفس، كما أنشأ سائر العدد من الأربعة بإضافة ما قبلها إليها كما مثلنا قبل[2] ذلك".

التنجيم والفأل والزجر:

وكانوا يعتقدون في التنجيم والفأل والزجر وغير ذلك، مما يؤدي إلى العلم بالمستقبل على زعمهم، وأعلم أن معلومات الإنسان ثلاثة أنواع، فمنها ما قد كان مضى وانقضى، ومنها ما هو كائن موجود في الوقت الحاضر، ومنها ما سيكون في الزمان المستقبل، وله إلى هذه الأنواع الثلاثة من المعلومات ثلاثة طرق:

أحدها السماع والأخبار لما كان ومضى، والآخر هو الإحساس لما هو حاضر موجود، والثالث الاستدلال على ما هو كائن في المستقبل، وهذا

---

(1) رسائل جـ ١ ص ٢٧- ٢٨.

(2) رسائل جـ ١ ص ٢٩.

الطريق الثالث ألطف الطرقات وأدقها، وهو ينقسم إلى عدة أنواع، فمنها بالنجوم، ومنها بالزجر والفأل والكهانة، ومنها بالفكر والروية والاعتبار، ومنها بتأويل المنامات، ومنها بالخواطر والوحي والإلهام، وهذا أجلها وأشرفها، وليس ذلك باكتساب، ولكن موهبة من الله –عز اسمه– لمن شاء أن يجتبيه من عباده[1].

السحر والعزائم: وقد خصصوا في الجزء الرابع من رسائلهم رسالة كاملة تزيد عن المائة والخمسين صفحة للسحر والعزائم والعين، ودافعوا عن خوضهم في هذا الموضوع بادعائهم أنه من الحكمة: وأعلم أننا رأينا اليوم أكثر الناس المتغافلين إذا سمعوا بذكر السحر يستحيل أن يصدق واحد منهم به، ويتكافرون من يجعله من جملة العلوم التي يجب أن ينظر فيها، أو يتأدب بمعرفتها وهؤلاء هم المتعالون، والأحداث من حكماء دهرنا المتخلفين، والمدعين بأنهم من خواص الناس المتميزين؛ وذلك لأنهم لما رأوا بعض المتعاملين بهذا العلم، والخائضين في طلبه من غير معرفة له، إما أبله قليل العقل، أو امرأة رعناء، رفعوا أنفسهم عن مشاركة من هذه الحالة، إذا سمعوا بذكر السحر والطلسمات؛ أنفة منهم بألا ينسبوا إلى الجهل، وإلى التصديق بالكذب والخرافات؛ إذا كانأولئك السخفاء الطالبون لهذا العلم يطلبونه لأغراض لهم سخيفة دنيئة، من غير معرفة توجب الطلبة، ولا المقصود منه والغرض، ولم يعلموا أن هذا هو جزء من الحكمة، بل هو جزء وآخر علوم الحكمة؛ لأنه يحتاج قبله إلى تعلم علوم تتقدمه[2].

---

[1]رسائل جـ ١ ص ١٠٦.

[2]رسائل جـ ٤ ص ٣٢٠.

وحسبك أن تستعرض فهرست هذه الرسالة لتقف على السائل التي خاضوا فيها:

كالإخبار عن الأشياء الغائبة، وفي معرفة المسائل وأجوبتها، وفي استخراج الضمير، وفي معرفة الحمل ونوعه، وفي موت الجنين في بطن أمه، وفي قدوم الرسول، وفي معرفة الكتاب قبل أن يفض ختمه، وفي معرفة السارق وسنه، ومعرفة جنس المسروق... إلخ، ويطول بنا المقام لو ضربنا أمثلة مما قدموه في باب السحر والعزائم، وحسبك المثال الآتي:

"كان لنا صديق من فضلاء الناس وخيارهم من إخواننا، وكان يستعين في معيشته بصناعة النجوم، فحضرته يومًا، وقد جاءه رجل فجلس عنده، وقال له: قد جئتك لتخبرني عما في نفسي، فأخذ الطالع وقومه، وجود الحساب وأحسن العمل، وصدق العلم، وأصاب الحكم؛ فقال له: تسأل عن شيء شرق؟ قال: نعم، ما هو؟ فأخبره عن جنسه، فقال: كم هو؟ فأخبره عن كميته، فقال: فمن أخذه؟ وهل الآخذ له ذكر أم أنثي، حر أم عبد؟ فذكره، فقال: كم سنه؟ فذكره، فقال: أين ذهب؟ فأخبره، فقال: كيف هو؟ فأعلمه؛ فمضى في طلبه، ثم عاد، وقد أصاب، فدفع إليه شيئًا صالحًا. فاستحسنت هذا منه ورأيته سحرًا مليحًا، ورأيت منفعته عاجلة والظفر به مليحًا، فسألته أن يفيدني بذلك ففعل، فكان هذا محرضًا على طلب هذا العالم، والحرص في بلوغ غايته، والوصول إلى نهايته[1].

وكانوا يعتقدون بتسخير القوى الروحية من جن وملائكة وشياطين،

---

[1] رسائل جـ ٤ ص ٤٢٠- ٤٢١.

وقد عقدوا لذلك فصلًا طويلًا يبينون فيه كيف يتمكنون من ذلك، ورددوا قصصًا شتى، بل زادوا أن سخروا أرواح الأفلاك في قضاء الحاجات، وقصوا حكاية عن شيخ منهم جاءه جماعة يستغيثون به، لكي يطلق صاحبًا لهم من حبس الأمير بعد أن أعيتهم الحيل، فذكر لهم أنه سيطلق سراحه الليلة، وقد كان، فلما سأله صديق له عن سر ذلك أخبره بأنه: "لما كان في تلك الليلة على ساعتين من الليل تجردت وعملت نيرنج المريخ، وقصدت بالنيرنج الأمير، والمحبوس فأطلقه كما رأيت". ولما سأله عن سبب إطلاقه قال: "سبب ذلك أن الأمير رأى فيما يرى النائم، كأن قد دخل عليه رجل أشقر أزرق على رأسه شعر، وهو مكشوف الرأس، وبيده سيف مجرد، يقول: إن لم تخل في هذه الساعة فلانا ابن فلان المحبوس عندك، وجاءت الليلة، قطعت رأسك بهذا السيف؛ فكان هذا هو سبب التخلية له"[١].

ويؤمنون بطوالع النجوم وبتأثيرها في السعد والنحس: الكواكب السبعة السيارة، اثنان منها نيران، واثنان منها سعدان، واثنان منها نحسان، وواحد ممتزج.أما النيران فالشمس والقمر، والسعدان المشتري والزهرة، والنحسان زحل والمريخ، وأما الممتزج فعطارد[٢].

القوى الخفية:

ولهم آراء في الملائكة والشياطين والجن والقوى الخفية طريفة: "إن في العالم نفوسًا أفعالها ظاهرة، وذواتها خفية يسمون الروحانيين، وهم أجناس

---

[١] ج ٤ ص ٤٧٣– ٤٧٥.

[٢] رسائل ج ١ س ٩٥

الملائكة، وقبائل الجن، وأحزاب الشياطين؛ فأجناس الملائكة، هي نفوس خيرة موكلة بحفظ العالم وصلاح الخليقة، وقد كانت متجسدة قبل وقتٍ من الزمن، فتهذبت واستبصرت وفارقت أجسادها، واستقلت بذاتها، وفازت ونجحت، وساحت في فضاء الأفلاك، وسعة السموات، فهي مغتبطة فرجانة مسرورة ملتذة، مادامت السموات والأرض. وأما عفاريت الجن، ومردة الشياطين فهي نفوس شريرة مفسدة، وقد كانت متجسدة قبل وقتٍ من الزمان ففارقت أجسادها غير مستبصره ولا مهدية، فبقيت عميًا عن رؤية الحقائق صمًا عن أسماء الصواب؛ فهي سابحة في ظلمات بحر الهيولى غائصة في مقر من الأجسام المظلمة، ذي ثلاث شعب، تهوى في هاوية البرزخ[(١)]".

وأحيانًا يبلغ بهم الإغراق في الخيال إلى حد كبير، فيدَّعون أن الأفلاك هي ملائكة الله: "أعلم يا أخي، أن كواكب الملك هم ملائكة الله، وملوك سمواته خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه، وتدبير خلائقه، وسياسة بريته، وثم خلفاء الله في أفلاكه، كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه[(٢)]".

موسيقي الأفلاك: ويعتقدون "أن لحركات الأفلاك والكواكب نغمات وألحانًا طيبة لذيذة مفرحة لنفوس أهلها" ويرون كذلك: "أنه لو لم يكن لحركات أشخاص الأفلاك أصوات ولا نغمات، لم يكن لأهلها فائدة من القوة السامية الموجودة فيهم، فإن لم يكن لهم سمع فهم صم بكم عمي، وهذه حال الجمادات ناقصاتالوجود. وقد قام الدليل بوضوح البرهان بطريق المنطق الفلسفي أن أهل السموات، وسكان الأفلاك، هم ملائكة

(١) رسالة جـ ١ ص ٩٦ – ٩٧.

(٢) رسائل ١ ص ٩٨.

الله وخالص عباده، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وتسبيحهم ألحان أطيب من قراءة داود للزبور في المحراب، وثغرات ألذ من نغمات أوتار العيدان الفصيحة، فإن قال قائل: ينبغي أن يكون لهم أيضًا شم وذوق ولمس، فليعلم هذا القائل بأن الشم والذوق واللمس إنما جعل للحيوان الأكِل الطعام، والشارب للشراب، ليميز به النافع من الضار. وسكان الأفلاك قد كفوا عن هذه الأشياء، وهم غير محتاجين إلى أكل الطعام والشراب، بل غذاؤهم التسبيح، وشرابهم التهليل، وفاكهتهم الفكر والرؤية واللذة والفرح.

ويقال إن فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء جوهر نفسه، وذكاء قلبه نغمات حركات الأفلاك والكواكب، فاستخرج بجودة فطرته أصول الموسيقى ونغمات الألحان، وهو أول من تكلم في هذا العلم، وأخبر عن هذا السر من الحكماء"[١]، ويروون كذلك:

"ويحكى في الحكمة القديمة أن من قدر على خلع جسده، ورفض حواسه، وتسكين وساوسه، وصعد إلى الفلك، جُوزي هناك بأحسن الجزاء، ويقال: إن بطليموس كان يعشق علم النجوم، وجعل علم الهندسة سلمًا صعد به إلى الفلك فمسح الأفلاك وأبعادها، والكواكب وأعظامها، ثم دونه في المجسطي. وإنما كان ذلك الصعود بالنفس لا بالجسد وهكذا..."[٢].

ولولا خشية الإطالة؛ لذكرت كثيرًا مما تغص به الرسائل من الخرافات

---

[١] رسائل ج ١ ص ١٥٢– ١٥٣.

[٢] ج ١ص٩٢.

والآراء الخيالية، فليرجع إليها من أراد الاستزادة، وحسبنا ما قدمناه مثلًا على كيفية تفكيرهم وبعض معتقداتهم.

-٣-

نظرية الفيض ومراتب الوجود: ترجع نظرية الفيض التي لعبت دورًا كبيرًا في الفلسفة الإسلامية إلى الأفلاطونية الحديثة، وأول من قال بها أفلوطين مؤسس هذه المدرسة.

ومجمل هذه النظرية: أن لهذا العالم ظواهر جمة، وهو دائم التغير، ولم يوجد بنفسه، بل لا بد له من علة سابقة هي السبب في وجوده، وهذا الذي صدر عنه العالم واحد غير متعدد، وهو أزلي أبدي قائم بنفسه. ولسنا نعلم عن طبيعة هذا الخالق إلا أنه يخالف كل شيء، ويسمو على كل شيء؛ ولما كان الله فوق العالم، وهو غير محدود فلا يمكنه أن يخلق العالم مباشرة، وإلا اضطر إلى الاتصال به، مع أنه بعيد عنه لايزل إلى مستواه. ولما كان واحد فلا يمكن أن يصدر عنه العالم المتعدد. ولا يستطيع أن يخلق الله العالم؛ لأن الخلق عمل، أو إنشاء شيء لم يكن، وذلك يستدعي التغيير في ذات الله، والله لا يتغير. فتقرر هذه النظرية أمرين متناقضين: أحدهما أن الله علة العالم وسبب وجوده، وثانيهما أن الله فوق العالم ولا يستطيع أن يتصل به ويخلقه. فكيف فسرت هذا التناقض ووفقت بين الرأيين؟ لم تلجأ إلى المنطق والفلسفة، وإنما لجأت إلى الشعر والتمثيل والاستعارة، فقال أفلوطين: "إن تفكير الله في نفسه وكماله نشأ عنه فيض، وهذا الفيض صار هو العالم، وكما يبعث اللهيب ضوءً، والثلج بردً، كذلك انبعث من الله شعاع كان هو العالم".

وبهذا خرج أفلوطين من المأزق المنطقي بعبارات شعرية، وعلى ذلك يكون الكون قد انبثق من الله انبثاقًا طبيعيًا بحكم الضرورة، ولكن ليس في هذه الضرورة أي معنى من معاني الاضطرار والإلزام، وليس في الخلق معنى الحدوث، وليس يقتضي تغيرًا في الله.

ولما كان كل كائن قد تفرع هكذا من الواحد الأول- الله- فهو يميل بفطرته إلى العودة إلى أصله ومبعثه الذيصدر عنه، ولا ينفك يحاول أن يصل إليه. أما ذلك المصدر الأول فستقر في نفسه، مكتف بها، لا يتصل بما تفرع عنه من أشياء. وهذه الكائنات التي صدرت عن الله تكون سلمًا تنازلًا من درجات الكمال، فكل شيء أقل كمالًا مما فوقه، ويستمر التناقص في الكمال حتى ينعدم الكمال في آخر السلم انعدامًا تامًا، حيث يتلاشى النور في الظلام.

وأول شيء انبثق من "الواحد" هو العقل، وهذا العقل له وظيفتان: التفكير في الله، والتفكير في نفسه، ومن العقل انبثقت نفس العالم، ولها ميلان: فتميل علوًا إلى "الواحد"، وميل سفلًا إلى الطبيعة، وقد انبثقت منها النفوس البشرية التي تسكن هذا العالم. فنفس العالم- كالعقل- تنتمي إلى العالم الروحاني الإلهي، ومع أنها ليست جثمانية في ذاتها إلا أنها تميل إلى الأشياء الجثمانية، فتنظر إليها.

ومن هذه النفس الأولى، خرجت نفس ثانية سماها أفلوطين بالطبيعة. وهذه النفسي الثانية هي التي تشترك وحدها مع العالم المادي كما تمتزج نفوسنا مع أجسامنا، وهذه النفس الأخيرة- التي هي عبارة عن النفوس

الجزئية الموزعة على الكائنات– هي أدنى مراتب العالم الروحاني، ويليها مباشرةً المادة التي هي أبعد الكائنات عن الكمال.

ويقول أفلوطين: إن المادة هي مصدر التعدد، وهي سبب الشرور؛ لأنها عبارة عن العدم، والعدم أشد درجات النقص، والنقص هو الشر، وإذا فالمادة هي منشأ الشرور جميعًا. وغاية الحياة التحرر من ربقة المادة[1]".

أعجب أخوان الصفا هذه النظرية وقرروها في رسائلهم، وتبعهم في هذا كثير من فلاسفة الإسلام، فهم يقولون: "وأعلم يا أخي، أن الله تعالى لما كان تام الوجود كامل الفضائل عالمًا بالكائنات قبل كونها، قادرًا على إيجادها متى شاء، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها ولا يفيضها. فإذا بواجب الحكمة أفاض الوجود كما يفيض من عين الشمس النور والضياء، ودام ذلك الفيض منه متصلًا متواتر غير منقطع.

ويسمى أول ذلك الفيض العقل الفعال: وهو جوهر بسيط روحاني نور محض، في غاية التمام والكمال والفضائل، وفيه صور جميع الأشياء، كما تكون في فكر العالم صور المعلومات.

وفاض من العقل الفعال فيضٌ آخر دونه في الرتبة يُسمى العقل المنفعل، وهي النفس الكلية: وهي جوهرة روحانية بسيطة قابلة للصور والفضائل من العقل الفعال على الترتيب والنظام، كما يقبل التلميذ من الأستاذ التعليم.

---

[1] قصة الفلسفة اليونانية س ٣٢٠– ٣٢٣، وارجع كذلك إلى فصل عن الأفلاطونية الحديثة عند الأستاذ Dresser في كتابه:

History of Ancient and Medievale Philosophy

وفاض من النفس أيضًا فيض آخر دونها في الرتبة، يسمى الهيولى الأولى: وهي جوهرة بسيطة روحانية قابلة من النفس من الصور والأشكال بالزمان شيئًا بعد شيء؛ فأول صورة قبلت الهيولى الطول والعرض والعمق، فكانت بذلك جسمها مطلقًا، وهو الهيولى الثانية.

ووقف الفيض عند وجود الجسم ولم يفض منه جوهر آخر؛ لنقصان رتبته عن الجواهر الروحانية، وغلظ جوهره وبعده من العملة الأولى.

ولما دام الفيض من الباري تعالى على العقل، ومن العقل على النفس عطفت النفس على الجسم، فصورت فيه الصور والأشكال والأصباغ؛ لتتمه بالفضائل والمحاسن بحسب ما يمكن من قبول الجسم وصفاء جوهره.

فأول صورة عملت النفس في الجسم الشكل الكروي، الذي هو أفضل الأشكال كلها، وحركته بالحركة الدورية التي هي أفضل الحركات، ورتبت بعضها في جوف بعض من لدن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، وهي إحدى عشرة كرة"(١).

وترتيب هذه الكرويات كما أورده إخوان الصفا في غيرموضع من رسائلهم: فلك المحيط، فالأفلاك الثابتة، فزحل، فالمشتري، فالمريخ، فالشمس، فالزهرة، فعطارد، فالقمر، فالأرض، والأرض تقع في مركز الوجود.

وعلى هذا فإن في الوجود الأركان الأربعة، والعناصر السفلى وهي: النار، والماء، والهواء، والأرض. ولا ترتتب هذه الكريات بعضها في جوف بعص، ودارت الأفلاك بأبراجها، وكواكبها على الأركان الأربعة، وتعاقب عليها

(١) رسائل ج ٣ ص ١٩٧ – ١٩٨.

الليل والنهار والشتاء والصيف، والحر والبرد، واختلط بعضها ببعض فامتزج اللطيف منها بالكثيف، والثقيل بالخفيف، والحار بالبارد، والرطب باليابس، تركبت على طول الزمان أنواع التراكيب التي هي المعادن والنبات والحيوان.

والمعادن أشرف تركيبة من الأركان، والنبات أشرف تركيبًا من المعادن، والحيوان أشرف تركيبًا من النبات، والإنسان أشرف تركيبًا من جميع الحيوانات[1].

ويمكن إجمال ترتيب الوجود عند إخوان الصفاء على الوجه الآتي:

١- الله تعالى.

٢- العقل الفعال: وهو جوهر بسيط روحاني أبسط من النفس، وأشرف منها قابل لتأييد الباري تعالى، علام بالفعل.

٣- النفس الكلية: وهي جوهرة بسيطة روحانية، علامة بالقوة، فعالة بالطبع، قابلة فضائل العقل بلا زمان، فعالة في الهيولى بالتحريك لها.

٤- الهيولى الأولى: وهي جوهرة بسيطة روحانية معقولة غير علامة ولا فعالة، بل قابلة آثار النفس بالزمان منفعلة لها.

٥- الطبيعة الفاعلة: وهي قوة من قوى النفس الكلية، سارية في جميع الأجسام، مدبرة لها، وتسمى النفوس الجزئية أو الملائكة.

٦- الجسم المطلق ذو الطول والعرض والعمق وهو الهيولى الثانية.

---

[1] رسائل ج ٣ ص ١٩٠

٧- عالم الأفلاك.

٨- العناصر السفلي كالنار،والهواء،والماء، والأرض.

٩- المعادن والنبات والحيوان[١].

ويحاكون أصحاب نظرية الفيض في كلامهم عن الله وخلقه العالم، مازجين بين هذه النظرية، وآراء الفيثاغورية في أنالواحد أصل الوجود:

"وأعلم يا أخي، بأنك إذا تأملت ما ذكرنا من ترتيب العدد من الواحد الذي قبل الاثنين ونشوئه منه، وجدته من أدل الدلائل على وحدانية الباري -جل ثناؤه- وكيفية اختراعه الأشياء وإبداعه لها، وذلك أن الواحد الذي قبل الاثنين، وإن كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه، فهو لم يتغير عما كان عليه ولم يتجزأ، وكذلك الله عز وجل، وإن كان هو الذي اخترع الأشياء من نور وحدانيته، وأبدعها وأنشأها، وبه قوامها وبقاؤها وتمامها وكمالها، فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية قبل اختراعه وإيداعه لهما، فنسبة الباري - جل ثناؤه- من الموجودات كنسبة الواحد من العدد، وكما أن الواحد أصل العدد ومنشأه، وأوله وآخره، كذلك الله عز وجل هو علة الأشياء وخالقها وأولها وآخرها، وكما أن الواحد لا جزء له، ولا مثل له في العدد، فكذلك الله -جل ثناؤه-لا مثيل له في خلقه[٢]".

ويقولون عن النفس الكلية مثل الذي ذكرناه في نظرية الفيض:

"وأما النفس فإنه لما كان وجودها من الباري -جل ثناؤه- يتوسط

---

[١] رسائل جـ ٣ ص ١٩٨.

[٢] رسائل جـ ١ ص ٢٩٠

العقل صارت رتبتها دون العقل، وصارت ناقصة في قبول الفضائل، ولأنها أيضًا تارةً تتوجه نحو العقل لتستمد منه الخير والفضائل، و تقبل على الهيولى لتمدها بذلك الخير والفضائل تارةً أخرى[(١)]".

ويقولون عن الهيولي كلامًا شبيهًا بأقوال أصحاب نظرية الفيض:

"وأما الهيولي فلبعدها من الباري صارت ناقصة المرتبة، عاديمة الفضائل غير طالبة الفيض النفس"[(٢)].

إهمال الجسد: وقد أكثروا من الحث على التخلص من ربقة المادة والجسد، بالزهد والتقشف، وهم في ذلك يجارون أصحاب نظرية الفيض، وأعلم أن الأنبياء وأتباعهم وخلفاءهم، ومن يرى مثل رأيهم من الفلاسفة والحكم، يتهاونون بأمر الأجساد؛ لأنهم يرون أن هذه الأجساد حبس النفوس أو حجاب لها؛ أو صراط أو برزخ، أو أعراف، وقد فسرنا هذه المعاني في رسائلنا. وإنما تشفق النفس على الجسد مالم تنبعث، فإذا انبعثت هانت عليها مفارقة الجسد، ومما يدل على صحة ما قلنا إحراق البراهمة أجسامهم وهم حكماء الهند، أمَّا من يفعلون ذلك من جاهلهم فليس كلامنا فيهم. وإنما نريد أن نذكر المستبصرين منهم الحكماء، وذلك أنهم يرون ويعتقدون أن هذه الأجساد لهذه النفوس الجزئية بمنزلة البيض للفرخ، وأن الطبيعة حضنها، وهي تشفق عليها مالم تسنم الحلقة أو تستكمل الصورة؛ فإذا تمت الحلقة، وكملت الصورة تهاونت، ولا تبالي إذ

---

(١) ج ٣ ص ١٨٨

(٢) ج ٣. ص ١٨٨.

انشقت البيضة إذا سلم الفرخ.

فهكذا حال النفس مع الجسد إنما تشفق على الجسد وتصونه وتحن عليه مالم تعلم بأن لها وجودًا خالٍ من الجسد، وأن ذلك الوجود خير وأبقى وألذ وأحسن من هذا الوجود والبقاء الذي مع الجسد، فإذا استتمت الأنفس الجزئية، وكملت صورتها، ومعارفها، وانتبهت النفس من هذا النوم، واستيقظت من هذه الغفلة، وأحست بغربتها في هذا العالم الجسماني، وأنها في أسر الطبيعة في بحر الهيولى ناشئة في قعر الأجسام، مبتلاه بخدمة الأجساد مغرورة بزينة المحسوسات، وبأن لها حقيقة ذاتها، وعرفت فضيلة جوهرها، ونظرت إلى عالمها، وشاهدت تلك الصورة الروحانية المفارقة للهيولى، وأبصرت تلك الألوان والأصباغ والملاذ العقلية، وعاينت تلك الأنوار والبهجة والسرور، هانت عليها مفارقة الجسد وسمحت بإتلافه[١]".

ويستشهدون على ذلك بآياتٍ من القرآن، قوله تعالى على لسان موسى حين قال لأصحابه وإخوانه: "توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم" يعني هذه الأجساد بالسيف؛ لأن جوهر النفس لا يناله الحديد[٢] وقد ذكرنا طرفًا من أقوالهم في خلود النفس، عند الكلام على طريقة استدلالهم وقد حملوا آيات القرآن ما لا تحتمله، وأولوا فيها تأويلات بعيدة.

---

[١] رسائل جـ ٤ ص ٩٦ – ٩٧.

[٢] رسائل جـ ٤ ص ٩٢ وراجع كذاك ج١ ص ١٥٩– ١٦٩ وراجع كذلك في ذم الجسد جـ ١ ص ١٩٦، ص ٢١٨.

نظرية الفيض والإمامة: وقد كان لنظرية الفيض هذه التي اعتنقها إخوان الصفاء أثر في الإسماعيلية، وتطور آرائهم في الإمامة.

وقد حاول أحمد الكيال وهو كما يقول الشهرستاني: "من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر الصادق، وأظنه من الأئمة المستورين" أن يمزج نظرية الفيض بعقيدة الإمامة والمهدية؛ وطبقها على نفسه بعد أن لم يرقَ آل البيت ما أتى به من خرافات فتبرؤوا منه ولعنوه، فصرف الدعوة إلى شخصه وادعى الإمامة أولًا، ثم ادعى أنه القائم ثانيًا، وقال الشهرستاني في محاولة الكيال هذه: "والمقابلة كما سمعتها من أخس المقالات، أو هي المقابلات، بحيث لا يستجيز عاقل أن يسمعها، فكيف يرضى أن يعتقدها، وأعجب من هذا كله تأويلاته الفاسدة، ومقابلاته بين الفرائض الشرعية والأحكام الدينية، وبين موجودات عالمي الآفاق والأنفس، وادعاؤه أنه متفرد بها، وكيف يصح له ذلك، وقد سبقه كثير من أهل العلم بتقرير ذلك لا على الوجه المزيف الذي قرره الكيال، وحمله الميزان على العالمين، والصراط على نفسه، والجنة على الوصول إلى علمه من البصائر، والنار على الوصول إلى ما يضاده[1]".

وذكر الشهرستاني عند الكلام على الإسماعيلية شيئًا من نظريتهم في المزج بين رأي الأفلاطونية الحديثة، والإمامة المهدية بعد أن شرح نظرية الفيض، لما كان في العالم العلوي عقل ونفس كلية، وجب أن يكون في هذا العالم عقل شخص هو كلٌ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ويسمونه

---

[1] الشهرستاني هامش الفصل في الملل والنحل لابن حزم الجزء الثاني س ١٧– ٢١.

الناطق –وهو النبي– ونفس مشخصة هي الكل أيضًا، وحكمها حكم الطفل الناقص المتوجه إلى الكمال، أو حكم النطفة المتوجهة إلى التمام، ويسمونه الأساس وهو الوصي، قالوا: وكما تحركت الأفلاك بتحريك النفس والعقل والطبائع، كذلك تحركت النفوس والأشخاص بالشرائع بتحريك النبي والوصي في كل زمان، دائرًا على سبعةٍ سبعة، حتى ينتهي إلى الدور الأخير ويدخل زمان القيامة[1].

ويبدو هذا الأثر الفلسفي في استعانة الدعاية الإسماعيلية بالنظريات الأفلاطونية مع ملاحظة هذا الفرق بينها وبين الصوفية، فالصوفية لم تبغ من الاستعانة بهذه النظريات إلا أن توجد دعامة نفسية تبني عليها الحياة الدينية، بينما الإسماعيلية استخدمتها لكي تنفذ إلى صميم الديانة الإسلامية، وتعمل على تعديل أحكامها وعقائدها.

وفكرة الإمامة عندهم لم تكن إلا قناعًا ستروا وراءه برامجهم الهدامة، ولم تكن إلا متكأه إسلامية المظهر اعتمدوا عليها كأداة للتقويض والتدمير، وقد بدأ الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية، تلك التي بني عليها إخوان الصفا فلسفتهم الدينية في موسوعتهم. واستنبطت الإسماعيلية من هذه الفلسفة أعمق نتائجها وأشدها تطرفًا، فوضعوا بذلك نظامًا فلسفيًا هو صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكوني، التي وضحها هذه الفلسفة، وقد بينوا فيه المظاهر الدورية للعقل الكلي، التي بدأت سلسلتها بآدم وانتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومُحَمَّد، واختتمت بالإمام الذي

---

[1] المرجع نفسه ص ٣٠.

يلي الإمام السادس عند الشيعة- وهو إسماعيل وابنه مُحَمَّد- مكونين من حلقة سبعية من "الناطقين"، وملأوا الفترات التي تفصل بين كل ناطق وآخر بمجموعات سباعية مؤلفة من أشخاص صدروا كالناطقين تماما عن القوى الخارقة، وتعمل كل مجموعة سباعية من هؤلاء على تدعيم عمل الناطق الذي سبقها، والتمهيد للناطق الجديد الذي يخلفه. فهي سلطة تعاقبية دقيقة التحديد بديعة التركيب، تتجلى الروح الإلهية في درجاتها المختلفة ومراحلها المتوالية، وتظهر الإنسانية منذ بدء الخليقة في صورة يتزايد كمالهما وبهاؤها.

وكل مظهر من هذه المظاهر الدورية للعمل الكلي يبدو في وقته حتى يكمل إنجاز العمل الذي أداه المظهر السابق؛ أي أن الوحي الإلهي لا ينقطع ولا ينتهي في فترة زمنية معينة من فترات تاريخ الخليقة. وهذا النظام الدوري المتكرر، يلي المهدي الناطق السابع، آتيًا برسالة تعد من حيث هي مظهر من المظاهر الدورية أكمل وأعظم مما سبقها، بل تفوق رسالات من سبقه حتى رسالة النبي مُحَمَّد عليه السلام.

وهذا التطبيق لفكرة المهدية يهدم إحدى دعائم الإسلام الأساسية التي لم يجرؤ التشيع المألوف أن يزعزع أصولها، فمحمد عند المسلمين هو "خاتم النبيين"، وقد نعت بهذه الصفة في القرآن: {ما كان مُحَمَّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين}. والديانة المحمدية في شكاها السني كما في شكلها الشيعي قد أولت هذه الفكرة أهمية اعتقادية، وهي أن محمدًا قد ختم إلى الأبد سلسلة الأنبياء. وأنه أنجز إلى نهاية الحياة الدنيا ما مهد إليه من سبقه من الأنبياء، وأنه الحامل آخر رسالة بعث الله بها إلى

الجنس البشري، و "المهدي المنتظر" ليس إلا رجلًا يعمل على إحياء سنة خاتم النبيين وإعادتها، وهي السنة التي تنكبها الناس لفسادهم وضلالهم، وهذا المهدي إنما يسير على نهج السنة ويحمل اسم صاحبها. ولكنه ليس نبيًا بل هو دون السلطة التعليمية الهادية، التي تقابل إحدى مراتب التطور في الفكرة المهدية، التي تجاوز تعاليم النبي. غير أن نظرية الفيض عند الإسماعيلية قد محت ما للصفة النبوية المحمدية، وما للشريعة التي أرسله الله بها من قيمة وخطر، وهي قيمة يؤمن بها المسلمون قاطبة حتى من كان منهم على مذهب الشيعة[1].

نظرية الفيض والعقيدة: فتطبيق نظرية الفيض بهذا الشكل ينبئ عن زيغ في العقيدة، وإن لم يظهر أثر هذا التطبيق في رسائل إخوان الصفاء كما ظهر في آراء من اتخذوا رسائلهم كتابًا يقتدى به أو دستورًا للعقيدة وهم الإسماعيلية.

والنظرية في ذاتها تهدم العقيدة الإسلامية في الإله وقدرته؛ فهم وإن قالوا بأن الله علة العالم، لكنهم قرروا أنه لا يستطيع خلقه وأن العالم صدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس، فهو لازم له لا يستطيع حبسه ومنعه، وهذا القول ينفي القدرة الإلهية كما يفهمها المسلمون وينفي الإرادة الإلهية كما يقول بها الإسلام، وصف الله بأنه لا حيلة له في خلق العالم، ولا شأن له به، ولا رأي له فيه.

ولا شك كذلك أن هذه النظرية بهذا الوضع تصف العالم بالقدم، فالله

---

[1] جولد تسهير في "العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٢١٣– ٢١٤

قديم، والعالم فاض منه لفرط كماله كما يصدر الضوء عن الشمس فهو ملازم له، فهو قديم مثله، والعقيدة الصحيحة تقرر: أن العالم حديث، وأنه خلق من عدم، فليس ثمة قديم بلا بداية سوى الله.

ومادام العالم قد فاض عن الإله بهذا الشكل، فليست هناك غاية من خلق العالم كما حددها الإسلام، وإذا كان العالم لا غاية له، فلا نهاية له أيضًا؛ لأن الله الذي يفيض منه هذا العالم باقٍ، وكماله باقٍ مثله، فالفيض باقٍ ببقائهما، فالعالم متصف بالبقاء كذلك. وعلى هذا فلا داعي للشرائع والتكاليف، لأنه لا يوجد حساب أو عقاب أو قيامة؛ لأن الله لم يكن له شأن في خلق هذا العالم، ولم يوجده لغاية، ولم يتصل به أي اتصال، فكيف يكافئه وهو لم يرد خلقه لشيء معين يريده هو، ولن ينتهي هذا العالم حتى يحاسب من عاش فيه؟!

فالنظرية مناقضة تمام المناقضة للعقيدة السليمة، ولست أدري أقال بها إخوان الصفاء عن جهل بمراميها- وهذا ما لا أظنه- أو عن معرفة تنبئ عن زيغ في عقيدتهم، وتؤيد صلتهم بالإسماعيلية، الذين طبقوها بالشكل المجيب الذي ذكرناه فازدادوا بعدًا عن الإسلام على بعدهم عنه؟؟

- ٤ -

الله والعالم: حاول إخوان الصفاء أن يثبتوا أن العالم حادث، وأن له نهاية حتى يوفقوا بين نظرية الفيض هذه التي ذكرناها، وبين الشريعة الإسلامية.

وقد بينوا أن حدوث العالم وقدمه مشكلة عويصة، اختلف فيها العلماء والفلاسفة، فأما علماء الشريعة، والأنبياء جميعًا فيعتقدون أن عالم الأجسام محدث لا شك فيه، وأما الفلاسفة فقد انقسموا قسمين، يقول أحدهما– وهم الراسخون في العلم بقدم العالم، ويقول الآخر– وهم الناقصون المتشككون بحدوثه[1]– وهم ينصحون المتخيرين من طلاب الحقيقة أن يلجئوا إليهم، وألا يثقوا بأنفسهم في تفهم هذه الأمور الهامة دون أن يستشيروا الإخوان الكرام الفضلاء، كما يستعين المرء في أمور دنياه بآراء جيرانه وأصدقائه، ويرون أن الناظر في هذه المسائل يحتاج إلى نفس زكية، وفهم دقيق، وقوة رؤية وجودة تصور[2].

حدوث العالم: ثم أخذوا يشرحون علاقة الله بالعالم، وكيف أنه محدث وكيف أن له نهاية، حتى لا يوصف بالقدم والبقاء، فيرمون بالكفر.

فقالوا: "إن وجود العالم عن الله سبحانه ليس كوجود الدار عن البناء إذا فرغ من بنائها لم تعد في حاجة إليه، ولا كوجود الكتاب عن الكاتب إذا انتهى من كتابه صار له وجود مستقل منه، ولكنه كوجود الكلام عن المتكلم، فإن سكت بطل وجود الكلام، فالكلام يكون موجود مادام المتكلم يتكلم، ومتى سكت بطل وجوده، أو كوجود نور السراج في الهواء، مادام السراج باقيًا فالنور باق موجود، أو كوجود ضوء الشمس في الجو فإن غابت الشمس بطل وجود الضوء، أو كوجود العدد عن الواحد.

---

[1] ج ٣ ص ٤٤.

[2] ج ٣ ص ٤٧.

وكما أن كلام المتكلم ليس جزءً منه بل هو فعل له، وعمل أظهره بعد أن لم يكن، وكذلك صدور النور عن الشمس ليس جزءً منها، بل هو فيض وفضل منها، وكذلك حرارة النار المنتشرة من حولها ليست بجزءٍ من الشمس بل هي فيض منها، فكذلك وجود العالم عن الباري ليس بجزء منه سبحانه، بل فضل تفضل به، وفيض أفاضه، وفعل فعله بعد أن لم يكن فعل، كما أن المتكلم فاه بكلامه بعد أن لم يكن.

وبذلك يكون العالم ببراهينه هذهحادثًا؛ أي وجد من عدم، مع أن هذا الرأي ما هو إلا شرح وتبسيط النظرية الفيض وتدعيم لها، وقد بينا رأينا فيها، وأنها تتضمن القول بقدم العالم وبقائه.

كيف خلق العالم؟ وهنا يتساءلون: هل خلق العالم دفعة واحدة، أو خلق بالتدريج، أو روضه دفعة واحدة، وبعضه بالتدريج؟ ويرى إخوان الصفاء أن الأمور الطبيعية أحدثت وأبدعت على التدريج، ومر الزمان، فالنفس مثلًا عاشت دهرًا طويلًا في عالم المثل قبل أن تتعلق بالجسم، وكانت وهي في عالمها الروحاني تتلقى الفيض، والفضائل، والخيرات عن العقل الفعال، فإما امتلأت من تلك الفضائل، وكان الجسم فارغًا من الأشكال والصور، والنفوس أقبلت النفس على الهيولى تميز الكثيف من اللطيف؛ وتفيض تلك الفضائل والخيرات ومكنها الله تعالى من الجسم، فخلق من ذلك الجسم عالم الأفلاك وأطباق السموات، من لدن فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، ثم خلق بقية المخلوقات من إنسان وحيوان، وثبات ومعادن.

ويستدلون على هذا بقوله تعالى: {خلق السماوات والأرض في ستة أيام} وقوله:{وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون}؛ أي أن النفس أخذت وقتًا طويلًا حتى صارت على ما هي عليه.

أما الأمور الإلهية فيرون أنها حدثت دفعة واحدة، مرتبة منتظمة، بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان، بل بمقتضى قوله تعالى: {كن فيكون} وهذه الأمور الروحانية هي: العقل الفعال، والنفس الكلية، والهيولى الأولى والصور المجردة؛ والعقل هو نور الباري تعالي وفيضه، والنفس هي نور العقل وفيضه الذي أفاضه الباري منه، والهيولى الأولى هي ظل النفس وفيها، والصور المجردة في النفوس والأصباغ والأشكال، التي أفاضتها النفس في الهيولى بإذن الله، وتأييده لها بالعقل[1].

ويرون أن هذه الأمور كلها خلقت بلا زمان ولا مكان، كما، قال الله تعالى: {وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر}.

ويضربون مثلًا بالبرق، وضوء الشمس، وحرارة النار فكلها صدرت عن مصدرها دون زمان أو مكان[2]. والله سبحانه لا يباشر الخلق بنفسه، ولا يتولى الأعمال بذاته بل يقتصر عمله على الأمور الكلية، وأمَّا التفصيلات قيدهالملائكته الموكلين بعباده، وذلك لقوله تعالى:{وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر} ولقوله: {ما خلقكم ولا بعشر إلا كنفس واحدة}. وهذا ليس بدعًا فالملوك وهم خلفاء الله في الأرض يأمرون عبيدهم،وخدمهم،

---

(1) ج ٣ ص٢٢٩– ٢٣٦.

(2) ج ٢ ص ١٠٨.

ورعيتهم، بالقيام بالأعمال ولا يتولون هذه الأعمال بأنفسهم شرفًا وإجلالًا، ونسبة الخلق والأعمال إلى الله سبحانه وتعالى كنسبة الأفعال إلى الملوك؛ إذا قلت: بنى الملك القلاني مدينة كذا، وحفر نهر كذا، وذلك لأن هذه الأمور وجدت بعنايتهم وإرادتهم، وهذا تفسير قوله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" وقوله: "فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم"، وقوله: "أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون"... إلى غير ذلك من الآيات[١].

فالله غير محتاج في أفعاله إلى الأدوات،والآلات،والأماكن،والأزمان، والهيولي، والحركات، بل فعله الخاص هو الإبداع والاختراع، وذلك بالإخراج من العدم إلى الوجود، أما بقية التفصيلات فتركها للطبيعة تتمها.

الطبيعة: والطبيعة في نظرهم ملك من ملائكة الله المؤيدين، وعباده الطائعين، يفعلون ما يؤمرون، لا يعصون الله ما أمرهم وهم من خشيته مشفقون، ويقولون في هذا: "وأعلم أن طائفة من المجادلة أنكرت أفعال الطبيعة لما جهلت ماهية الطبيعة نفسها، ولم تدرِ أنها ملك من ملائكة الله تعالى الموكلين بتدبير عالمه وإصلاح خلائقه، فنسبت كل أفعال الطبيعة إلى الباري –جل ثناؤه– حسنة كانت أو سيئة، خيرًا كانت أو شرًا، وفيهم من نسب ما كان حسنًا إلى الله وما كان قبيحًا نسبه إلى غيره، ثم اختلفوا في الغير من هو؟، فمنهم من نسب تلك الأفعال إلى الطبيعة، وإلى التولد، ومنهم من نسبها إلى النجوم، ومهم من نسبها إلى البخت والاتفاق، ومنهم من نسبها إلى جريان العادة، ومنهم من نسبها إلى الشياطين ولا يدري ما

---

[١]ج ٢ ص ١٠٩.

الشياطين؛ وكل هذه الأقاويل قالوها لجهلهم ماهية الطبيعة، وقلة معرفتهم بأفعالها وأفعال ملائكة الله الموكلين بحفظ عالمه، وإدارة أفلا كه، وتسيير كواكبه، وتوليد حيواناته، وتربية نبات أرضه وتكوين معادنها[١]".

مسئولية الإنسان عن عمد: ورأيهم هذا في خلق الله للكليات دون الجزئيات، وفي أن الطبيعة هي الموكلة بخلق الجزئيات، يناقض رأي الإسلام، وقد تصدى علماء التوحيد للرد عليه، ولا حاجة لتكراره هنا، ولكن نقول: إنهم رتبوا على هذه النظرية القول بأن الإنسان مسئول عن عمله؛ لأنه يخلقه بنفسه، وشرحوا ذلك بتأويلهم كلة الطبيعة بالنفوس الجزئية، فما كان من الأفعال خيرًا نسب إلى النفس الجزئية الخيرة، وما كان شرًا نسب إلى النفس الشريرة، وعليها تقع المجازاة والمكافأة عن الثواب أو العقاب. "وأعلم يا أخي، أن نفسك هي إحدى النفوس الجزئية، وهي قوة من قوى النفس السكانية والفلكية لاهي بعينها، ولاهي منفصلة منها، كما أن جسدك جزء من أجزاء العالم لا هو كله، ولا منفصل منه، فانظر الآن أعمالك وأفعالك، وأخلاقك، وآراءك، ومعارفك، فبحسب ذلك يكون جزاؤك ومكافأتك كما قال النبي ﷺ: [إنما هي أعمالكم ترد إليكم]، وكما قال تعالى تصديقًا لرسوله: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى... الآية[٢]".

ويرى إخوان الصفاء كذلك أن هذا العالم متوقف في وجوده واستمراره على الله سبحانه وتعالى، لو منع عنه القبض،والحفظ، والإمساك لحظة

[١] ج ٢ ص ١٠٨.

[٢] ج ٢ص ١١٠- ١١١.

واحدة تهافتت السموات، وبادت الأفلاك، وهلكت الخلائق، ودثر العالم دفعة واحدة بلا زمان كما ذكر الله تعالى: "إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده" وكما قال تعالى: "والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه"[١]، وقد ذكرنا آنفًا ما في نظرية الفيض من التناقض مع العقيدة السليمة للمسلمين، وما هذا الذي يقولونه الآن، وما هذه الآيات التي يحملونها ما لا تحتمل، ويؤولونها تأويلات بعيدة جدًا عن حقيقة معناها، إلا بسط لنظرية الفيض.

فناء العالم: وقد أتعبوا أنفسهم في البرهنة على أن هذا العالم فانٍ وله نهاية مختومة منفصلة من بارئه، ولكن منطقهم خذلهم فلم يؤد إلى النتيجة المطلوبة؛ لأنهم قالوا إن الفاعل المختار هو الذي يقدر على الفعل وتركه متى شاء، وإن كل فاعل مختار حكيم له غرض من فعله، فينتج من هذه المقدمات أن العالم سيخرب[٢]. أما كيف أدت هذه المقدمات إلى هذه النتيجة فهو مالم أستطع إدراكه، وأغلب الظن أنهم أدركوا أن نظرية الفيض التي يقولون بها تحتم عليهم القول ببقاء العالم؛ لأن الفيض مستمر ما بقى الله، ولأن الله على ما تقول به هذه النظرية ليست له غاية من خلق العالم؛ فالشمس لا تستطيع حبس الضوء، والنار لا تستطيع أن تمنع الحرارة؛ لأن الضوء لازم للشمس، والحرارة لازمة النار، وكذلك الفيض لازم لله، وما دام الله باقيًا، فالفيض باق، فالعالم باق؛ ولهذا لم يستطيعوا أن يبرهنوا على

---

[١] جـ ٣ س ٢٨٤.

[٢] جـ ٣ ص ٣٢٠.

عكس ذلك ليبرئوا أنفسهم من تهمة الخروج على العقيدة السليمة.

الغاية من خلق العالم: وهم لم يستطيعوا أن يحددوا الغاية من خلق الله تعالى للعالم فإذا سئلوا:

لما خلق الله تعالى العالم بعد أن لم يكن؟ أجابوا لأن الله حكيم، وخلقه العالم حكمة، وفعل الحكمة عن الحكيم واجب، وبواجب الحكمة خلق العالم.

وإذا سئلوا: لما خلقه الله في هذا وقت ولم يخلقه قبل ذلك؟ قالوا: لعلمه السابق أنه سيخلق في هذا الوقت لا قبل.

فإذا سئلوا: لماخلقه على هذه الصورة، ولم يخلقه على صورة أخرى؟

أجابوا: لعلمه أن هذه الصورة أحكم وأتقن؛ ففعل كما علم ليكون فعله موافقًا لعلمه[1].

وهذا الكلام يدل على العجز عن التوفيق بين نظرية الفيض التي اعتقدوها وبين العقيدة الإسلامية، التي يحاولون أن يظهروا بمظهر المحافظ عليها، والمدافع عنها.

ولما أدركوا إخفاقهم في محاولتهم تلك، وأن كلامهم لن يفهمه أحد،قالوا: "فإن لم يفهم ما وصفنا، ينبغي له أن يقنع بما قالت الفلاسفة من أن العالم معلول وعلته البارئ[2]".

---

[1] ج ٣ ص ٣٣٩.

[2] ج ٣ ص ٤٧.

-٥-

هل قالوا بالنشوء والارتقاء: ذهب بعض الباحثين إلى أن إخوان الصفاء كانوا يقولون بنظرية النشوء والارتقاء[1]، والواقع أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن هذا الرأي، بيد أن لهم نظرية خاصة في تدرج الأجسام المولدة؛ فهم يرون أن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة الإنسان، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان، كما أن أول المرتبة النباتية متصل بآخر المرتبة المعدنية، وأول المرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء.

فأدنى الحيوان وأنقصه، الذي ليس له إلا حاسة واحدة فقط، وهو الحلزون وأكثر الديدان التي تتكون في الطين وفي قعر البحار وأعماق الأنهار؛ إذ ليس لهما سمع، ولا بصر، ولا ذوق، ولا شم. فهذا النوع حيوان نباتي؛ لأن جسمه ينبت كما ينبت بعض النبات، ويقوم على ساقه قائمًا، وهو من أجل أن يتحرك جسمه حركة اختيارية حيوان، ومن أجل أنه ليست له إلا حاسة واحدة، فهو أنقص الحيوان رتبة في الحيوانية، وقد يشاركه النبات في تلك الحاسة، فلنبات له حاسة اللمس فقط، ويتمثل هذا في إرساله جذوره نحو المواضع الندية، وامتناعه من إرسالها نحو الصخور واليبس.

أما رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسانية فليست من وجه واحد، ولكن من عدة وجوه، فمنها ما قارب رتبة الإنسان بصورة جسمه مثل القرد، ومنها ما قاربها بالأخلاق النفسانية كالفرس في كثير من أخلاقه، وكالطائر

---

[1] دي بور– تاريخ الفلسفة في الإسلام– مشيرة إلى العلامة ديتربصي ص١٠٨.

الإنساني، وكالفيل في ذكائه، والببغاء والهزار، ونحوها من الطيور كثيرة الأصوات والألحان والنغمات، وكالنحل لطيف الصنائع، إلى ما شاكل هذه الأجناس والقرد لقرب شكل جسمه من جسم الإنسان، صارت نفسه تحاكي أفعال النفس الإنسانية. أما الفرس بأخلاقه، والفيل بذكائه، وهذه الطيور بنغماتها وموسيقاها، فقد صارت في آخر مرتبة الحيوان مما يلي رتبة الإنسان لما يظهر فيها من الفضائل[1].

ولا شك أن هذا الرأي بعيد كل البعد من نظرية النشوء والارتقاء كما قررها "داروين"، فالنحل والطائر والفيل والفرس في رأيهم قريبة كلها من الإنسان وفي أعلى مراتب الحيوانية. ولعلنا إذا أخذنا رأيهم من الناحية العضوية البيولوجية، وجدت عندنا شبهة للقول بمذهب النشوء، فالحلزون حيوان نباتي والقرد قريب الشبه من الإنسان جسميًا، ومع هذا لم يقل إخوان الصفاء، بأن الإنسان، والقرد متفرعان من أصل واحد كما قال "داروين".

ويعتقدون أن النبات متقدم في وجوده على الحيوان؛ لأنه غذاء له، والحيوان على الإنسان؛ لأنه من أجله خلق كي يخدمه وينفعه[2].

ونظريتهم هذه مأخوذة من نظرية أرسطو في سلم العالم، حيث يرى أنه متدرج إلى الرقي، ولكن لا يعني تحول النوع من شيء إلى آخر أرقى منه بمرور الزمان؛ لأنه يرى أن الأجناس أبدية أزلية، فأفراد الإنسان يولدون

---

[1] رسائل جـ ٢ ص ١٤٤- ١٤٥، وجـ ٣ ص ٢٢٢- ٢٢٠، وجـ ٤ ص ٢٢٢- ٢٢٥، وجـ ٤ ص ٢٧٨، وجـ ٣١٧.

[2] رسائل جـ ٢ ص ١٥٤- ١٥٥.

ويموتون ولكن النوع الإنساني أزلي أبدي، وإنما الترقي عند أرسطو ترق فكري منطقي؛ فالأدنى يحمل بذور الأعلى بالقوة، فالقرد هو إنسان بالقوة والأعلى يحمل بذور الأدنى فعلًا، فالإنسان هو القرد وزيادة، وذلك لأن الصورة التي تحارب للظهور في السافل تحققت في العالي.

وأكبر مظهر هذا التدرج هو العضوية، في أدنى درجات السلم الأجسام اللاعضوية، وفيه تضعف الصورة حتى تكاد تكون هيولي بلا صورة. وأول ما يسعى إليه الجسم العضوي تحقيق شخصه ونوعه، فللأوليتغذى وللثاني تناسل، وأحط درجات السلم ما اقتصر على هذين النوعين وهو النبات، ثم يليه الحيوان. إذ يزيد عنه بالإحساس، ويتبع الإحساس الشعور باللذة والألم... إلخ[1].

وأرسطو كذلك لم يقل بما قال به أصحاب مذهب النشوء والارتقاء.

---

[1] Stace: A Critical History of Greek Philosophy

الفصل الثامن

النفس الإنسانية

-١-

أنواع النفوس: النفس الإنسانية عند إخوان الصفاء: جوهرة سماوية روحانية حية نورانية حقيقية متحركة، غير فاسدة، علامة داركه الصور الأشياء، مثلها مثل المرآة في إدراك صور الموجودات من المحسوسات والمعقولات، مثل المرأة إذا كانت مستوية الشكل مجلوة الوجه تتراءى فيها الأشياء الجسمانية على حقيقها، وإذا كانت معوجة الشكل أرت صور الأشياء على غير حقيقها، وإذا كانت المرآة صدئة الوجه لا يتراءى فيها شيء البته[1].

والنفس المدنسة بالأعمال السيئة، والأخلاق الرديئة، المعوجة بالآراء الفاسدة، لا ترى الأشياء الروحانية على حقيقها، ولا تستطيع مشاهدة الأمور الغائبة عن حواسها بعقلها وصفاء جوهرها، وإذا كانت جاهلة كانت صدئة لا ترى شيئًا ولا تدرك شيئًا.

والنفوس كثيرة لا يحصيها إلا الله، ومراتبها ثلاث: منها النفس الإنسانية وما فوقها وما دونها، فالتي فوقها سبع، والتي تحتها سبع، فعدها

[1] رسائل ج ٤ ص ٧٤.

خمس عشرة نفسًا، والمعروف منها خمس: التي فوقها اثنتان، رتبة الملكية، ورتبة القدسية مرتبة الملكية: هي رتبة الحكمة، ورتبة القدسية: هي رتبة النبوة.

وأما التي دونها فرتبة النفس الحيوانية، والنفس النباتية. وتقع النفس الإنسانية في الوسط وهي التي أرادها الله سبحانه بقوله: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم".

أما النفس التي فوقها مباشرة وهي رتبة الملكية فهي المقصودة بقوله تعالى: "ولما بلغ أشده واستوى" يعني الإنسان "آتيناه حكمًا وعلمًا". وهي المقصودة كذلك بقوله تعالى: "أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها" يعني الإنسان أحيا نفسه بنور الهداية.

وأما مرتبة النبوة فأشار أليها لله سبحانه بقوله: "رفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات".

وأما المراتب التي دون النباتية وفوق القدسية فقد استأثر الله بعلمها[١].

-٢-

النفوس والأخلاق: من أخلاق النفس الإنسانية ما ينسب إلى النفس النباتية الشهوانية، ومنها ما ينسب إلى النفس الحيوانية الغضبية، ومنها ما

---

[١] ج ١ ص ٢٤٠.

ينسب إلى النفس الناطقة الإنسانية، وما ينسب إلى النفس العائلة الحكيمة، وما ينسب إلى النفس الناموسية الملكية.

فالمنسوب إلى النفس النباتية من الخصال والقوى شهوة الغذاء، وهي النزوع والشوق نحو المأكولات والمشروبات والمشهيات، والرغبة فيها والحرص عليها، واحتمال المشقة والذل في سبيلها، وينتمي إلى هذه النفس سبع قوى فعالة: الجاذبية، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغاذية، والنامية، والمصورة.

فالإنسان يشترك مع النبات في هذه النفس النباتية، التي تدفع الجذور إلى حيث المواطن الندية والتراب اللين، وتوجه الغصون إلى الجهات المتسعة، والميل والانحراف عن الأمكنة الضيقة والأجسام المؤذية.

وكل هذه الخصال مركوزة في الجبلة من غير فكر ولا روية، معاونة من الطبيعة لنفوسها؛ إذ كانت تلك المشهيات غذاء الأجسام، ومادة لبقائها، وفي بقائها بقاء للنفس حتى تم معارفها وتكمل فضائلها، وبذلك تترقى إلى أفضل حالاتها وأشرف نهايتها[1].

أما المنسوب إلى النفس الحيوانية المركوزة في الجبلة- زيادة على ما تقدم في النفس النباتية- فهو الشهوة الجنسية، وشهوة الانتقام، وشهوة الرياسة، وينتمي إليها الشعور بالحواس المخصوصة، والوهم، والتخيل بالمطالب والمنافع، والحفظ، والذكر لمعرفة أبناء الجنس، وإمكان الاحتراس من المضار، والفرار من العدو.

---

[1] جزء ١ ص ٢٤٢، جـ ٢ ص ٢٥٦.

والشهوة الجنسية موجودة بالغريزة لبقاء النوع، وشهوة الانتقام لدفع الضرر، وقد يكون دفع الضرر بالقهر والغلبة، أو بالهرب والفرار، أو بالتحرز والتحصن أو بالمكر والحيلة.

وشهوة الرياسة لتأكيد السياسة، والمراد بالسياسة صلاح الموجودات وبقاؤها على أفضل الحالات، فالحيوان يشترك مع النبات في قوى النفس النباتية والإنسان يشترك مع الحيوان في قواه الخاصة به زيادة على قوى النفس النباتية.

أما النفس الناطقة، فالمنسوب إليها- زيادة على ما تقدم في النفس النباتية والحيوانية- شهوة العلوم والمعارف، والتبحر فيها والاستكثار منها، وشهوة الصنائع والأعمال والحدق فيها والافتخار بها، وشهوة العز والرفعة والترقي في غايات نهاياتها، والشوق إليها والرغبة فيها، والحرص في طلبها، واحتمال الذل والمشقة من أجلها، والفرح والسرور من وجدانها، والغم والحزن من فقدانها.

وسنخص قوى النفس الإنسانية الناطقة بشيء من البيان فيما بعد.

وأما ما ينتسب إلى النفس الحكيمة في شهوة العلوم والمعارف، وما أعينت به على طلبها، وإدراكها، والوصول إليها، من الخصال المركوزة، والقوى المجبولة، كالذهن الصافي والفهم الجيد، وذكاء النفس، وصفاء القلب، وحدة الفؤاد، وسرعة الخاطر، وقوة التخيل، وجودة التصور، والفكر والروية والتأمل والاعتبار، والنظر والاستبصار، والحفظ والتذكر، ومعرفة الروايات والأخبار، ووضع الأقيسة، واستخراج النتائج بالمقدمات،

والتكهن والفراسة والقيافة، وقبول الوحي والإلهام، ورؤية المنامات، والإنذار بالكائنات بعلم النجوم والزجر، كل ذلك معاون ما وتأبيد إلى بلوغ الغاية والوصول إليها.

وأما الذي ينسب إلى النفس القدسية النبوية، فشهوة القرب إلى الله، والزلفى لديه وقبول الفيض منه، وإفاضة الجود على من دونها من أبناء جنسها[1].

والغرائز كلها ترجع إلى غريزتين: شهوة البقاء، وكراهية الفناء، وهذه الغرائز المركوزة في الحملة الإنسانية أصل لجميع أخلاقها وسجاياها.

وهذه الأخلاق أصول وقوانين جميع أفعالهما وصنائعها ومعارفها وتصرفها، والسبب في أن شهوة البقاء، وكراهية البقاء أصل لكل الغرائز، أنه يوجد في المعلول دائمًا شيء من العملة دلالة دائمة عليه، ولما كان الله علية الوجود لذاته، وهو دائم البقاء لا يعرض له شيء من الفناء جبلت الموجودات على حب البقاء وكراهية الفناء.

السعادة: ولهذا فالسعادة الدنيوية: هي أن يبقى كل موجود أطول ما يمكن على أفضل حالاته وأنتم غاياته، والسعادة الأخروية: أن تبقى كل نفس إلى أبد الآبدين على أفضل حالاتها وأتم غاياتها.

الفضيلة: كل شيء يراد فهو من أجل الخير، والخير يراد من أجل ذاته، والخير المحض هو السعادة والسعادة تراد لنفسها لا لشيء آخر. ولكن كيف الوصول إلى عمل الخير ثم إلى السعادة؟

---

[1] ج ١ ص ٢٤٤.

الطبيعة خدمة لنفس ومقدمة لها، والنفس خدمة للعقل ومقدمة له، والعقل خادم للناموس ومقدمة له؛ فإذا كانت الطبيعة قد أطلت خلقًا وركزته في الجبلة جاءت النفس بالاختيار وأظهرته وبينته، ثم جاء العقل بالفكر والروية فتممه وكمله، ثم جاء الناموس بالأمر والنهي، فسواه وقواه وعدله؛ أو بعبارة أخرى إذا ظهرت هذه الغرائز والشهوات المركوزة في الجبلة، وكانت على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، من أجل ما ينبغي، سميت خيرًا.

ومتى فعل ذلك باختياره وإرادته على ما ينبغي، بمقدار ما ينبغي من أجل ما ينبغي كان صاحبه محمودًا، ومن كان بخلافه كان مذمومًا، ومتى كان اختياره وإرادته بفكر وروية على ما وصفنا كان صاحبه حكميًا فيلسوفًا فاضلًا، ومتى كان بخلافه سمي سفيهًا جاهلًا رذلًا، ومتى كان فعله وإرادته واختياره، وفكره ورويته، مأمورًا بها ومنهيًا عنها، وفعل ما ينبغي، كما ينبغي، على ما ينبغي، كان صاحبه مثاب أو مجازي عليها، ومتى كان بخلاف ما ذكرنا كان مأخوذًا بها ومعاقبًا عليها.

ومن كل هذا يتبين أن الشهوات المركوزة في الجبلة، والأخلاق المترتبة عليها، والأفعال التابعة لها، لكي تبقى النفوس على أفضل حالاتها، ويبلغ كل نوع منها أقصى مدى غاياتها وذلك هو السعادة.

ثم إن هذه النفوس الخمس: النباتية، والحيوانية، والإنسانية، والحكيمة والقدسية، كل واحدة منها خادمة وخاضعة للتي فوقها، كما يخضع الرؤوس الرئيسة، والتلاميذ لمعلمه، فإذا ما خضعت وامتثلت

وانتقدت كان في ذلك صلاحها فعلت إلى مرتبة رئيسها، وصارت مثلها في العقل.

وعلى هذا فالواجب على النفوس الحيوانية أن تنتقل إلى النفس الإنسانية، ومن الواجب على النفوس الإنسانية أن تسعى جاهدة للترقي إلى مرتبة النفوس الحكيمة والقدسية[١].

ويلاحظ أن إخوان الصفا قد تبعوا أفلاطون في تقسيمهم النفس الإنسانية وأثر هذا التقسيم في الخلق.

فهذه النفس عند أفلاطون تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الجزء الشهواني أو الوضيع، وهو الذي يتطلب الغذاء واللذة الجسدية بأنواعها، ومكانه البطن والفرج؛ وفضيلته العفة.

والجزء الثاني الشريف، وهو الجزء الحيواني الفضي في النفس، ويسميه أفلاطون "الروح" ومكانه القلب، وفضيلته الشجاعة، وهو ميال إلى الجزء الثالث من النفس ومعوان له.

الجزء الثالث هو المفكر، ومكانه الرأس، وفضيلته الحكمة. وخضوع القسمين الأولين للعقل، وانسجام هذه الأقسام الثلاثة بعضها مع بعض ينتج فضيلة رابعة هي العدل.

ولا صلاح للنفس الإنسانية إذا لم تكن أجزاؤها في انسجام، ولا انسجام لها إذا لم يسيطر العقل عليها.

---

[١] ج ١ ص ٢٤٥ – ٢٤٨.

ومن المعلوم أن أفلاطون قد قسم المجتمع في الجمهورية ثلاثة أقسام: الطبقة العاملة، وتقابل في النفس الإنسانية الجزء الشهواني. ثم الطبقة المدافعة أو الجنود، وتقابل في النفس الإنسانية الجزء الشريف الغضبى. ثم الطبقة الحاكمة وتقابل في النفس الجزء المفكر؛ ولذا اشترط أفلاطون أن يكون الحكام من الفلاسفة، وإذا كانوا كذلك، وانقادتكل طبقة التي فوقها، وخضع الجميع لرأي الفلاسفة ساد العدل في الدولة[١].

ويلاحظ كذلك أن إخوان الصفاء قد تأثروا بنظرية سقراط في جعلهم العلم فضيلة للنفس الإنسانية، كما رأينا في أول هذا الفصل، وأن النفس الجاهلة الصدئة لا تستطيع إدراك الحقائق، تلك النظرية التي نماها أفلاطون تلاميذه وتطورت عنده إلى نظرية المثل[٢].

ولكن تأثرهم في الفضيلة برأي أرسطو في نظرية الوسط كان أوضح في هذا المقام، فالفضيلة عمدة وسط بين طرفين: التفريط والإفراط.

والشجاعة مثلًا وسط بين الجبن والتهور، والكرم وسط بين البخل في فصل عن مبادئ العدل،

والتبذير. والرجل الفاضل هو الذي يعقل الشيء على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي بالقدر الذي ينبغي من أجل ما ينبغي[٣].

وقد حاول إخوان الصفاء أن يقسموا المجتمع طبقات تبعًا لتقسيم

---

(1) R. L. Nettleship Lectures on the Republic on Plato

(2) H. Sidgwick. History of Ethics p 41 London 1886

(3) Aristotle's Ethics P. 42 Every man's Library N 547.

أفلاطون له، وتماشيًا مع تقسيم النفس الإنسانية إلى أجزاء، فذكروا أن الناس سبعة أقسام: العمال وأرباب الحرف، ثم أرباب التجارات والمعاملات والأموال، ثم أرباب الأملاك، ثم السلاطين والأجناد، ثم الخدم، ثم أهل البطالة والفراغ، ثم أهل العلم والدين، وذكروا فضيلة كل صنف من الناس وما يحتاج إليه من السجايا والأخلاق في كلام طويل. ولكن يلاحظ أنهم خرجوا عن تقسيم أفلاطون للطبقات كما قررناه آنفًا، ولعل حال مجتمعهم جعلتهم ينظرون هذه النظرة الخاصة.

-٣-

قوى النفس: في هذه النفس التي تسكن الجسد قوى طبيعية وأخلاق غريزية، فمنها قوى النفس النباتية وترعاها وشهواتها وفضائلها ورذائلها؛ ومنها قوى النفس الحيوانية وحركتها وأخلاقها وحواسها؛ ومنها قوى النفس الناطقة وتمييزاتها ومعارفها وفضائلها ورذائلها.

وليست هذه النفوس متفرقة متباينة بعضها عن بعض، ولكنها كالفروع من أصل واحد متصلات بذات واحدة، كاتصال ثلاثة أغصان من شجرة واحدة تتفرع من كل غصن عدة أغصان، ومن كل قضيب عدة أوراق وثمار، أو كرجل يقرأ ويكتب ويعلم، فيقال قارئ كاتب معلم؛ لأن هذه الأسماء تقع على الفاعل بحسب ما يظهر منه من الأفعال والحركات.

فهكذا النفس واحدة للذات، وإنما تسمى بهذه الأسماء بحسب ما يظهر منها من الأفعال، فإذا فعلت في الجسم الغذاء سميت نامية نباتية، وإذا فعلت في الجسم الحس والحركة سميت حيوانية، وإذا فعلت الفكر

والتمييز سميت ناطقة[1].

الجسد يشبه مدينة، والنفس ملك هذه المدينة، وقوى النفس كالجنود والأعوان، وأفعالها كالرعية والخدم.

الحواس: ومن قوى النفس الإنسانية خمس قوى حساسة، كأنها أصحاب الأخبار، وقد ولت النفس كل واحدة منها ناحية من مملكتها لتأتيها بالأخبار، وهذه القوى الحساسة معروفة: وهي السمع والبصر،والمس،والشم، والذوق.

كيف تعمل الحواس؟: وقد بين إخوان الصفاء في مهارة علمية، وأظهرت المخترعات الحديثة صدق حدسهم ، كيف تؤدي كل حاسة من هذه الحواس مهمتها؟ فمثلًا يقولون في حاسة السمع:

"إن الهواء لشدة لطافته، وخفة جوهره، وسرعة حركة أجزائه، يتخلل الأجسام كلها، فإذا صادم جسم جسمًا أتسل ذلك الهواء من بينهما بحمية وتدافع وتموج إلى جميع الجهات، فحدث من حركته شكل كروي، واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها، أو الماء الساكن إذا ألقي فيه حجر، وكلما اتسع ذلك ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل، فمن كان حاضرًا من الناس وسائر الحيوان من له أذن بالقرب من ذلك المكان، حملت تموجات الهواء إلى أذنه هذه الحركة وهذا التغيير فحس به.

وللهواء قدرة على حمل كل صوت بهيئته وصيغته، وحفظ هذا الصوت

[1] رسائل جـ ٢ ص ٣٢٥.

حفظًا تامًا حتى لا تختلط هذه الأصوات بعضها ببعض فتفسد، إلى أن يبلغها أقصى مدى غاياتها عند القوة السامعة لتؤديها إلى القوة المتخيلة.

ولهم كذلك تعليلات طبية وآراء موفقة في كيفية الإبصار، حيث يرون أن الضوء إذا سرى في الأجسام المشفة حمل معه ألوان الأجسام وأوصافها، وحفظها بهيئتها، حتى لا تختلط بعضها ببعض إلى أن يبلغها أقصى مدى غاياتها عند القوة الباصرة.

وهكذا ساروا في تعليل كل حاسة، وكيف تؤدي وظيفتها، وذكروا أن هذه الحواس لا تحمل إلا الوسط من الأشياء، فالضوء الباهر والظلمة بالقائمة كلاهما يعشي العيون فتعجز عن الإبصار، كما تعجز الأذن عن السمع إذا كان مصدر الصوت صاعقة أو دبيب نملة[1].

القوى العليا: ثم إن هناك خمس قوى أخرى هن كالشركاء المتعاونات مع النفس، ثلاث منها نسبتها إلى النفس نسبة الندماء إلى الملك، تطلع على سره وتحضر مجلسه دومًا وهذه هي: القوة المتخيلة، ومركزها مقدمة الدماغ، والقوة المفكرة ومركزها وسط الدماغ، والقوة الحافظة ومركزها مؤخرة الدماغ.

وهناك واحدة هي من النفس بمثابة الترجمان والحاجب من الملك، وهي القوة الناطقة المخبرة عما لدى النفس من علوم وحاجات، ومجراها من الحلقوم إلى اللسان؛ وقوة خامسة هي بمثابة الوزير إلى الملك يعينه في مملكته وسياسة رعيته، وهي القوة الصانعة، التي بها تظهر النفس الكتابة

---

[1] ج ٣ ص ٤١.

والصنائع أجمع ومجراها في اليدين والأصابع[1].

أما كيف تعمل هذه القوى؟، فذلك أن الحواس تنقل المحسوسات إلى المخيلة فتنطبع فيها كما ينطبع الرسم في الشمع، فإذا غابت المحسوسات عن الحواس بقيت تلك الرسوم مصورة في النفس، ثم تؤديها كلها إلى المفكرة حتى تميز بعضها منبعض، وتبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت الحاجة والتذكر.

ثم إذا أرادت القوة الناطقة أن تخبر عنها، وتنبئ عن معانيها تهيئ من الألفاظ ما يعبر عن تلك المعاني، ويؤدي هذه الأخبار لغيرها من الناس.

ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ريما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل، ووجدت الكتابة التقييد معاني تلك الألفاظ، كانت مهمة القوة الصانعة أن تصوغ لها من الخطوط والأشكال ما يحفظها للأجيال المقبلة[2].

المخيلة: وللقوة المخيلة خصائص كثيرة ففضلًا منأنها تحتفظ بصور المحسوسات بعد اختفائها، تستطيع أن تتخيل ما له حقيقة، وما ليس له حقيقة، بتأليفها من الصور التي انطبعت فيها ما تشاء من الأشكال، فالإنسان يمكنه أن يتخيل بهذه القوة جملًا على رأس نخلة، أو نخلة على ظهر جمل، أو طائرًا له أربع قوائم، أو فرسًا له جناحان، أو حمارًا له رأس

---

(1) رسائل ج ٣ ص ١٧.

(2) ج ٣ ص ٣٥٠ – ٣٥١.

إنسان...، وما شاكل هذا مما يظهر في آثار المصورين، والنقاشين، مما ينسبونه إلى الجن والشياطين، وعجائب البحر.

وتنقل هذه القوة صور المحسوسات، وصور المعقولات جميعًا، وهذه القوة تعين الصناع في صناعتهم؛ إذ يتخيلوا ما يريدون صنعه كاملًا قبل أن يعملوا في هيكله شيئًا ما، ثم يعمدون إلى مادة ما، في مكان ما في زمان ما؛ ليبرزوا إلى عالم الوجود هذه الصورة المتخيلة.

والناس متفاوتون في هذه القوة تفاوتًا بعيدًا، فكثير من الصبيان يكون أسرع تصورًا لما يسمعون، وأجود تخيلًا لما يصف لهم كثير من المشايخ والبالغين. وكثير من العلماء والعقلاء والمرتاضين في العلوم والآداب تعجز نفوسهم عن تصور أشياء كثيرة قد قامت البراهين على صحتها.

والعلة في ذلك اختلاف تركيب أدمغتهم، واعتدال أمزجها أو فسادها، ومن عجائب هذه القوة أنها تمكن بعض الكهنة من أهل الهند من أن يؤثروا في غيرهم بإيهامهم أشياء عجيبة ينكرها أكثر الناس.

وأما حكماء اليونان فيرون أن ذلك ممكن الإنسان في نفسه، أما في غيره بعيد جدًا(١). ولعل إخوان الصفا يريدون قراءة الضمير(٢) أو الإيحاء الذاتي وغير الذاتي.

والقوة المتخيلة هي التي تؤدي إلى الأقيسة الخاطئة عند الصبيان، وعند كثير من الكبار، فالطفل مثلًا يعتقد أن لكل الأطفال والدين وإخوة

---

(١)ج ٣ ص ٣٨٨.

(٢)ج ٤ ص ٣٧٤.

مثل حاله، وبعض الناس يقيس الغائب على الحاضر، والواقع مكذب قياسه.

وهذه القوة تمكن الإنسان من أن يتجول في المشرق والمغرب، والبر والبحر والسهل والجبل، وفضاء الأفلاك وسعة السماوات، وينظر إلى خارج العالم ويتخيل فناءه[1].

المفكرة: أما الفكرة فأعمالها نوعان، ما تشترك فيه مع غيرها من القوى وما يخصها. فأما ما تشترك فيه مع غيرها فذلك مثل الصناعات، تشترك فيها مع اليدين، ومثل الكلام واللغات، تشترك فيها مع القوة الناطقة، ومثل رسوم المحسوسات تشترك فيها مع المتخيلة... إلخ.

وأما ما يخصها فذلك مثل الفكر، والروية، والتمييز بين الأشياء والتصور لها، والاعتبار والتركيب، والتحليل والجمع، والقياس البرهاني، والفراسة والكهانة، والخواطر والإلهام، والوحي والرؤيا وتأويلها... إلخ.

وهي بين الحواس والخيلة بمثابة القاضي بين الخصماء ودعاويهم، لا تحكم بالخطأ أو بالصواب على ما يصل إليها إلا بعد أن يشهد شاهدان من الحواس، أو نتائج مقدمات جزئية من البديهيات. كان الإنسان أكثرمحسوسات وأكثر تأملًا لها، وأدق نظرًا في أمور الموجودات، وأقوى تخيلًا لهما، وأجود بحثًا عن الخفيات، وأكثر تجارب الأمور الدنيوية، وأحسن اعتبارًا لما كان أرجح عقلًا من غيره.

فالعقل الإنساني ليس سوى القفص الناطق إذا تصورت رسوم

---

[1] ج ٣ ص ٣٨٩.

المحسوسات في ذاتها، وميزت بفكرها بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها، وعرفت جواهرها وأعراضها وجربت أمور الدنيا، واعتبرت بتصاريف الأيام بين أهلها وانتفعت بما علمت وما جربت[1].

– ٤ –

النفس والجسد: النفس حياتها ذاتية، لأنها بجوهرها حية بالفعل علامة القوة فعالة في الأجسام، وموتها هو جهلها بجوهرها، وعقلتها عن معرفة ذاتها، وذلك عارض لها من شدة استغراقها في المادة، ولشدة غروبها في الشهوات الجسمانية.

أما الجسد فهو ميت بجوهره، وحياته عرضية مجاورة النفس إياه، كما أن الهواء مظلم بجوهره، وإنما ضياؤه بإشراق الشمس وطلوع القمر والكواكب عليه.

والدليل على أن الجسد ميت بجوهره ما يُرى من حاله بعد مفارقة النفس له كيف يتغير ويفسد ويتلاشى، ويرجع إلى التراب.

والآن تساءل: لماذا ارتبطت النفس الحية بهذا الجسد الفاني؟ ويجيب إخوان الصفا عن هذا السؤال: بأنها ارتبطت به كي تكمل بالرياضة، وتخرج ما في جوهرها من الحكمة والصنائع والفضائل من حد القوة إلى حد العقل؛ لتتم الهيولى الجزئية، ولكي تكمل هي أيضًا، ويتشبه ذلك الجزء بالكل، وهو أن تتعلم النفس الجزئية السياسة،والتدبير، والتهذيب

---

[1] ج ٣ ص ٣٩٤.

بالأخلاق الجميلة، والآراء الصحيحة، والأعمال الزكية، والمعارف الحقيقية، وبذلك يشبه الجزء بالكل، كما قيل في تعريف الحكمة بأنها التشبه بالإله بحسب الطاقة الإنسانية.

فإذا بلغت النفس الإنسانية أقصى مدى غاياتها، وكملت بما أظهرت من الفضائل، وهدم الجسم، نقلت إلى حالة أخرى، وأنشئت إنشاء آخر أعلى وأشرف من هذا الجسد القابل للكون وللفساد وكما قال تعالى: "وننشئكم فيها لا تعلمون".

والنفس لا تحس تلك الحال التي تنقل إليها إلا بعد مفارقة الجسد، كما أن الجنين لا يحس بأحوال الدنيا إلا بعد الولادة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: [الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا]، وإنما نومهم غفلتهم عما بعد الموت، فإذا جاءت سكرة الموت بالحق، التي هي مفارقة النفس الجسد، وعاينت الحقيقة التي كانوا ما يوعدون، "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد" أدرك أن الموت حكمة.

إن الجنين إذا تمت في الرحم صورته، وكملت هناك خلقته، لم ينتفع في الرحم بل ينتفع بعد الولادة في هذه الحياة الدنيا، كذلك النفس إذا كملت صورتها وتمت فضائلها بكونها مع الجسد، انتفعت بعد مفارقتها الجسد في الحياة الآخرة.

ومثل النفس مع الجسد مثل الصبي في المكتب، أي المكتب ليتعلم ويتأدب ويرتاض، فإذا تعلم وأحكم ذلك، فليس أمامه من سبيل إلا الخروج من المكتب، والانتفاع بما تعلم، إذ قد تم ما يراد منه. وكم أن

الصبي إذا أحكم ما يراد منه في المكتب استغنى عن حمل اللوح والدواة والمداد والقلم؛ لأنه كان يكتب به ويقرأ منه، ويمحو ليحصل العلم في نفسه محفوظات من القرآن والأخبار، والأشعار، والنحو واللغة، وما شاكلها، مما يحفظ الصبيان في المكتب، فهكذا حكم النفس مع الجسد، إذا هي أحكمت أمر المحسوسات بطريق الحواس وأمر المعقولات بطريق الفكر والروية، وعرفت حقائق هذا العالم من الكون والفساد. وارتفعت بعد ذلك بطريق الرياضيات التي هي البراهين إلى معرفة الأمور الغائبة عن الحواس، وعرفتها حق معرفها، واستبان لها أمر عالمها ومبدئها ومعادها، وعاينت بعين البصيرة أحوال أبناء جنسها السالفين الذين مضوا على سنن الهدى، وارتقوا إلى ملكوت السماء وفسحة الأفلاك وسعها، اشتاقت عند ذلك إلى الصعود ثمة، واللحاق بأبناء جنسها، ولا يمكنها هذا الصعود بذلك الجسم الثقيل فعليها أن تتخلص منه، ولهذا كان الموت حكمة، وهذا هو تفسير قوله تعالى: "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون" وقوله تعالى: "يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون"[(١)].

صلاح النفس إذا وفضيلها في هذه الحياة الدنيا العرضية لها، التي لم تتهيأ للإقامة الدائمة بها أن تتكمل بالعلم والعمل الصالح، والأخلاق الجميلة، وتعتقد المعتقدات الصحيحة، وتنظر في أمور المحسوسات لتعرفها معرفة جيدة، ثم في حقائق المعقولات لتدركها إدراكًا تامًا، وتعتقد اعتقاد جازمًا أنها في هذه الحياة الدنيا غريبة وأنها ستفارقها بعد حين.

[(١)] رسائل ج ٣ س ٥٨– ٧٣.

-٥-

أين كانت النفس؟: يعتقد إخوان الصفاء أن النفوس كانت في الجنة قبل أن تهبط إلى هذه الأرض، وتعلق بالجسد الفلاني، وأنها كانت تعيش مع غيرها من النفوس ومع المثل العليا، ولذا كانت علامة بالقوة، وبعد اتصالها بالجسد تنتدى، أن تكون علامة بالفعل.

وحاول إخوان الصفا أن يقفوا– على عادتهم– بين نظرية المثل هذه وبين الدين، فاستدلوا بالآية الكريمة[١]: "قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" والله– سبحانه – يقصد النفوس لما جنت هناك الجناية التي ذكرت في قصة آدم، ويقولون: "إذا فكر العاقل اللبيب في حال النفوس المتجسدة، وما يلحقها من المحن والمصائب بتوسط هذه الأجساد، وما يعرض لها من الآلام والأوجاع والمناحس، وتفكر كذلك في حال النفوس، التي هي أهل الجنة، وعالم الأفلاك، الذين هم سكان السموات إذا سمع بأنهم أحياء لا يموتون، وشبان لا يهرمون، وأغنياء لا يفتقرون، وجيران لا يتحاسدون، وإخوان على سرر متقابلين، متنعمين متلذذين، فهم في روح وريحان ورضوان، رغبت نفسه إلى ما هنالك وزهدت في هذه الحياة الدنيا[٢].

رغم أن إخوان الصفاء لم يشرحوا نظرية المثل التي قال بها أفلاطون[٣]

---

[١] سورة الأعراف الآية ٢٣.

[٢] جـ ٢ص ٧٩– ٨٠.

[٣] نظرية المثل معروفة ومكن الرجوع إليها في: **Philebus** لأفلاطون، وفي ٢٨٥– ٢٨٢م **Lectures on the Republic of Plato**، وفي قصة الفلسفة اليونانية.

شرحًا وافيًا في رسائلهم، ولكن ذكروها غامضة ممزوجة بالآيات القرآنية في الجنة والنار. وأصرح ما قالوه في هذا الموضوع، كلامهم على العشق، وأنواع المحبوبات أخذًا بنظرية الحب الأفلاطوني، فالنفس تحب الجمال وتعشقه، لأنه يوقظها من نوم الغفلة، ويخرجها من عالم المادة، ويذكرها بعهدها القديم أيام أن كانت في عالم المثل العليا، أيام أن كانت ترى ما صورته النفس الكلية في الهيولى الأولى، وزينت به ظواهر الأجرام وسطوح الأجسام، وإنما فعلت النفس الكلية هذا حتى إذا نظرت النفوس الجزئية إلى هذه الأشكال الجميلة حنت إليها، واشتاقت نحوها، وتصدت لمطلبها.

إن النفس لا تحب الجميل لذاته، وإنما تحب الجمال المثالي الذي ذكرتها به صورة هذا الجميل، فهي تهفو إليه وتعشقه، ولو تغيرت صورة الجميل بهرم أو مرض، أو عاهة فهي لاتزال تتذكر ما في نفسها من الصورة الجميلة الباقية من العهد القديم "فتشاهد النفس في ذاتها حينئذٍ، من تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ، ما كانت من قبل تراها على غير تغير، وتجد في جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجا عنها، فعند ذلك يتبين أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة، إنما هي تلك الرسوم والصور التي كانت تراها على ذلك الشخص، وهي اليوم تراها منقوشة في ذاتها، مرسومة في جوهرها لم تتغير"[1]

[1] جـ ٣ ص ٢٧٢- ٢٧٣.

خلود النفس: يعتقد إخوان الصفا اعتقادًا جازمًا أن النفس الإنسانية تولد يوم يموت الجسم:

"فالدنيا اسمها مشتق من الدنو والقرب، وهي تصاريف أمور تجري على الإنسان من يوم ولادة الجسد إلى يوم الميت الذي هو ولادة النفس ومفارقتها إياه".

والآخرة مشتقة من التأخر، وهي تصاريف أمور تجري على الإنسان من يوم ممات الجسد، وولادة النفس إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين[(١)].

فالآخرة هي الحيوان، هي عالم الأرواح، فالنفس إذا فارقت الجثة، ولم يعقها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها وتراكم جهالتها، أو رداءة أخلاقها في هناك في أقل من طرفة عين بلا زمان؛ لأنها تكون حيث يوجد محبوبها ومثلها في ذلك مثل العاشق يكون حيث معشوقه، فإذا كان عشقها هذه اللذات المحسوسة الجسمية الشهوانية فهي لا تبرح هاهنا، ولا تشتاق الصعود إلى عالم الأفلاك، ولا تفتح لها أبواب السموات، ولا تدخل الجنة مع زمر الملائكة بل تبقى تحت فلك القمر سائحة في قعر هذه الأجسام، لابثين فيها أحقابًا مادامت السموات والأرض[(٢)].

أما إذا كانت صالحة الآراء، والمعتقدات والأخلاق فإنها تصعد إلى ملكوت السماء، وتدخل في زمرة الملائكة وتحيا بروح القدس، وتسبح في

[(١)] ج ١ ص ٢٠٠.

[(٢)] رسائل ج ١ ص ٩٢.

فضاء الأفلاك فرحة مسرورة منعمة متلذذة مكرمة، وذلك قول الله عز وجل: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفع"؛أي نفس المؤمن، وقوله تعالى: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله".

فهذه الأجساد حبس للنفوس أو حجاب لها، أو صراط أو برزخ أو أعراف، فالنفس تشفق على الجسد وتحن عليه، مالم تعلم بأن لها وجودًا خالٍ من الجسد، وأن ذلك الوجود خير وأبقى وألذ وأحسن من هذا الوجود مع الجسد، فإذا استتمت الأنفس الجزئية كما لهما، وأحست بغربتها، وأنها في أسر الطبيعة، مبتلاه بخدمة الأجساد. مغرورة بزينة المحسوسات هان عليها مفارقة الجسد.

وقد ذكرنا في فصول سابقة كيف حاول إخوان الصفا البرهنة على خلود النفس بذكر قصص عن الأنبياء،والفلاسفة، والحكماء، وما يقول به العامة.

فسقراط انقاد لقتل وشرب السم؛ لأنه كان يعتقد بقاء النفس بعد مفارقة الجسد وأن هذا الجسد لا قيمة له.

وأفلاطون كان يرى هذا الرأي، ويقول فيما رواه إخوان الصفاء: "لو لم يكن لنا معاد ترجو فيه الخير لكانت الدنيا فرصة الأشرار"[١].

وموسى –عليه السلام– قال لأصحابه وإخوانه: "توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خيرٌ لكم عند ربكم[٢]".

---

[١] ج ٤ ص ١٠٠.

[٢] ج ٤ ص ٩٢.

والمسيح –عليه السلام– قال للحواريين في وصية له: "إذا فارقت هذا الهيكل فأنا واقف في الهواء عن يمنة عرش ربي وأنا معكم حينما ذهبت فلا تخالفوني حتى تكونوا معي في ملكوت السماوات غدًا"[(١)].

والبراهمة يحرقون أجسادهم، وآل البيت أسلموا أنفسهم للقتل يوم كربلاء اعتقادًا منهم أن هذا الجسد لا عبرة به، وأن النفوس خالدة... إلخ[(٢)].

"فهذه الحكايات والأخبار كلها دليل على بقاء النفس بعد مفارقة الجسد[(٣)]".

وعلى هذا فالنفوس الخيرة ملائكة بالقوة فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل، والنفوس الشريرة هي شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل[(٤)].

والنفوس الإنسانية تفارق الجسد كارهة لهذا الفراق، لأنها سلبت آلات الحواس التي كانت تنال بها اللذات الجسمانية، وقد اعتادتها بطول الدربة، فإذا كانت النفس شريرة تعذبت، لأنها لا تجد عوضًا عن هذا الجسد الذي ألفت أن تأخذ اللذة عن طريقه، ويكون صاحبها لا حي يلذ بالعيش، ولا ميت فيستريح كما قال تعالى: "لا يموت فيها ولا يحيى"، فتبقى نفسه تائهة هائمة بهمومها في طلب ما قد فاتها بما اعتادته من لذات هذه المحسوسات، وقد منعت الوصول إليها بموت الجسم، فعند ذلك تتمنى

---

(١) ج ١ ص ٩٣.

(٢) راجع في ذلك الجزء الرابع رسالة معتقدات إخوان الصفا من ص ٨٣– ١٠٤.

(٣) ج ١ ص ٩٣.

(٤) ج ٣ ص ٩٤.

وتقول: "يا ليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل". لكنهم "لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه"، فعند ذلك تبقى بحسرتها وندامتها، متألمة بذاتها، معذبة من سوء عاداتها، دون فلك القمر سانحة في قعر الأجسام المدلهمة، عريقة في بحر الهيولى، هاوية في عالم الكون والفساد مع أبناء جنسها من الأمم الخالية إخوان الشياطين، وجنود إبليس أجمعين.

كما ذكر الله تعالى: "كلما دخلت أمة لعنت أختها"[١].

ورأى إخوان الصفا أن خلود النفس يوافق الشريعة الإسلامية، وهو كذلك رأي أفلاطون، فعالم المثل حيث الحقائق المجردة أزلي أيدي، وما الأشياء في عالم المحسوسات إلا ظلال لهذه الحقائق المجردة[٢]، والنفس الإنسانية سترجع إلى هذا العالم بعد أن تستكمل فضائلها.

ولقد صرح أفلاطون في الجمهورية كذلك بوجود الحياة الآخرة حيث قال: "إن الرجل العادل إذا عانى في حياته الفقر والمرض أو غيرهما من المصائب فسوف تكون عاقبة أمره خيرًا، سواء في هذه الحياة الدنيا أو في الآخرة؛ لأن الآلهة لن تهمل من جاهد نفسه حتى صار عادلًا، ومن استطاع ببره وفضيلته أن يتشبه بالآلهة على قدر طاقته[٣]".

وقال في كتاب "جورجياس": "إن "رادامانت" يحاكم النفوس في الحياة الآخرة فيرسل النفوس الشريرة تهوى إلى أعماق الجحيم، ويرسل أرواح

---

[١] ج ٣ ص ٩٤.

[2] The Republic of Plato. 7.515.

[3] The Republic of Plato, 10,613

الفلاسفة إلى الجزر السعيدة[١]".

وهذا الخلود الذي يقول به أفلاطون خلود للنفس الجزئية، أما أرسطو فالخلود عنده كلي، هو خلود نوع الإنسان، وأما الأفراد فنفوسهم إلى فناء، ولقد شرح ابن رشد رأي أرسطو هذا، وخالف فلاسفة المسلمين جميعًا، فقسم العقول إلى ثلاثة أنواع: عقل هولاني هو عقل الإنسانية، وهو جوهر أزلي لا يفنى، ويسميه ابن رشد أحيانًا عقلًا بالمملكة، وهو خالد كالنوع الإنساني.

وعقل منفعل وهو استعداد الإنسان أو قوته على المعرفة العقلية، فهذا يوجد بوجود الإنسان ويفنى بفنائه.

وعقل فعال وهو واهب الصور ومهيئها لكي يتلقاها العقل الهولاني.[٢]

وإذا كان إخوان الصفا قد راقهم مذهب أفلاطون في خلود النفس إلا أنهم تورطوا معه فقالوا بأزليتها، أو بالأحرى نظرية الفيض هي التي جعلتهم يقولون بأزلية النفس لأنها جزء من العالم، وقد بينا ذلك في الفصل سابق، وما داموا قد قالوا بأبدية النفس فوجب أن تكون ؛ لأن الحادث لا يكون أبديًا.

فالنفس قد وجدت قبل وجود الحسد، وهي شقيقة المثل هبطت على كره إلى العالم الحسي واتصلت بالجسد، فهي إذن صورة من صور الملأ الأعلى.

ولقد قالوا: "إن الموجودات نوعان كلية وجزئية، فالكلية دائمة الوجود والبقاء؛ لأنها ابتدأت في الترتيب من أشرفها وأسمها إلى أدونها وأنقصها،

---

[1]Orgias p. 93,99.

[2]Munk : Melanges de Plilosophy Juive est Arab. Paris 1859

والجزئيات دائمة في الكون متوجهة نحو التمام[١]. والنفس الكلية تفيض على النفس الجزئية، وبعض النفوس يقارب النفس الكلية، وذلك بحسب قبولها ما يفيض عليها من العلوم والمعارف، والأخلاق الجميلة، وذلك كنفوس الأنبياء ونفوس الحكماء، وفضائل النفس الكلية فائضة على الأنفس الجزئية دفعة واحدة، مبذولة لها دائم الأوقات، لكن الأنفس الجزئية لا تطيق قبولها إلا شيئًا بعد شيء على مر الزمان، والمانع لما من قبول فيض النفس الكلية دفعة واحدة هو استغراقها في المادة، وتراكم ظلمات الأجسام عليها[٢]، ثم إن تلك المحاسن والفضائل والخبرات كلها إنما هي من فيض الله وإشراقه على العقل الكلي، ومن العقل الكلي على النفس الكلية، ومن النفس الكلية على الهيولي وهي الصورة التي ترى الأنفس الجزئية في عالم الأجسام.

-٧-

الجنة والنار: يقول إخوان الصفا: اعلم واتيقن ولا نشك في أن جهنم،هي عالم الكون والفساد الذي هو دون فلك القمر، وأن الجنة هي عالم الأرواح، وسعة السماوات، وأن أهل جهنم هي النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات التي في العالم، وأن أهل الجنة هي النفوس الملكية التي في عالم الأفلاك البريئة من الأوجاع والآلام[٣].

---

[١] ج ٣ ص ٤٩.

[٢] ج ٣ ص ٨.

[٣] ج ٣ ٧٨.

البعث: ويعتقد إخوان الصفا أن من الآراء الفاسدة الاعتقاد بأن القيامة والبعث يكونان بخراب هذا العالم بسمائه وأرضه، وأن الله يعيد الخلق مرة ثانية في صورة جديدة فيعذبهم ويجازيهم بما كانوا يعملون في الدنيا من خير وشر، "فهذا جيد للعامة ولمن لا يعرف من الأمور شيئًا ويرضى الدين تقليدًا وإيمانًا". وأما الخاصة ومن قد نظر في بعض العلوم الرياضية والطبيعية، فإن هذا الرأي لا يصلح لهم؛ وذلك أن كثيرًا من العقلاء والحكماء ينكرون خراب السماوات ويأبون ذلك إباءً شديدًا، والجيد لهم إذن أن يعتقدوا في أمر الآخرة، أن لها وجود متأخرة عن الكون في الدنيا، وهي أحوال تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد إذا هي انتهت من نوم غفلتها في الدنيا، واستيقظت من رقدة جهالتها قبل الممات[1].

فهم إذن يقولون بخلود العالم بسمائه وأرضه، والآخرة عندهم شيء آخر، هي الأحوال التي تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد، فإن كانت صالحة لحقت بالنفوس الصالحة، وصارت من ضمن الملائكة، وإذا كانت قد عكفت على اللذات والشهوات الجسمية، ولم تستكمل فضائلها، ظلت بعد مفارقتها الجسد تهوى في عالم الهيولى دون فلك القمر، وصارت شيطانًا مع إخوانها من الشياطين تتألم وتتوجع.

وهم في هذا ينكرون كل الإنكار البعث بالأجساد، ويعدونه صالحًا للعوام كما ينكرون أن تكون النار لهما شديدًا يلقى فيه الكفار، وأن تكون الجنة روضة تتمتع فيها الأجسام بالحور والولدان، ويقولون في هذا: "ومن

---

[1] ج ٤ ص ٤٠.

الآراء الفاسدة أيضًا رأي من يرى ويعتقد أن الله الرؤوف الرحيم الحنان، يعذب الكفار والعصاة في خندق في النار غيظًا عليهم وحقًا، وكلما احترقت أجسادهم وصارت رمادًا عادت فيها الرطوبة والدم لتحرق مرة ثانية.

"أعلم يا أخي، أن هذا الرأي يسيء ظن صاحبه بربه ويعتقد فيه قلة الرحمة، وشدة القساوة. ومن الآثار الفاسدة أيضًا الاعتقاد بأن أهل الجنة أجسادهم لحمية وأجسامهم طبيعية، فإذا تأمل ما وصف الله تعالى في صفات أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب، ولا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، وأنهم خالدون وما شاكل هذا، وجد أن هذه الأوصاف لا تليق بالأجساد اللحمية، والأجسام الطبيعية.

إنه لا يليق بالعقلاء أن يعتقدوها فضلًا عن عقول الحكماء، بل النساء والجهال والصبيان، فإن هذا الرأي يليق بأفهامهم، ويصلح لهم ويقرب من عقولهم ما وعدوا به ويوعدون من نعيم الجنان، ويرهبهم من عذاب النيران، ويزيدهم خوفًا من سوء أفعالهم فيتركونها، ويقوي رجاؤهم لثواب أعمالهم، وعليكم بدين العجائز، فإنه لائق في هذا المقام لافي مقام آخر.

وأما من رزقه الله قليلًا من التمييز والعقل والفهم ونظر في علوم الحكمة، فإن هذا الرأي لا يصلح له ولا يليق به؛ لأنه إذا عرضه على عقله أنكره عليه، فيقع عند ذلك في شك وحيرة، وسوء ظن وتخيلات فاسدة[1]".

فالبعث عندهم بعث للنفوس لا للأجساد، واللذة والألم للنفوس لا للأجساد، وهذا يخالف ما عليه جمهور المسلمين، وهم يدعون أنهم

---

[1] ج ٤ ص ٦١– ٩٢.

مسلمون، فكيف يوفقون بين هذا الرأي وبين الآيات القرآنية التي وردت في وصف الجنة ونعيمها، والنار وعذابها؟ لقد جرى إخوان الصفا على عادتهم في كل ما يعترض عقيدهم الفلسفية من آيات؛ إذ يعمدوا إلى تأويلها وتحميلها ما لا تحتمل، وقد مر بنا في ثنايا هذ الكتاب كثير من الآيات التي أولوها تبعًا لآرائهم، واستشهدوا بها تأييدًا لاعتقادهم.

فإذا كان القرآن وصف جهنم بأن لهما سبع طبقات، أو أن لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، فما أسهل تأويل هذا لديهم:

"وإنما قيل إن جهنم سبع طبقات لأن الأجسام التي دون فلك القمر سبعة أنواع، أربعة منها هي الأمهات المستحيلات، التي هي الأركان الأربعة، :النار، والهواء، والماء، والأرض، وثلاثة هي المولدات، والكائنات، الفاسدات، التي هي المعادن والنبات والحيوان.

إن تلك النفوس لما أخرجت من الجنة عالم الأفلاك، أهبطت إلى الأرض عالم الكون والفساد الذي دون فلك القمر، وهي ساكنة في عمق هذه الأجساد، وغريقة في بحر الهيولى، وغامضة في هياكل هذه المتولدات متقطعة فيها كما قال تعالى: "وقطعناهم في الأرض أممًا منهم الصالحون ومنهم دون ذلك" وقال: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم" وإنما قال: "لها سبعة أبواب لكل باب مهم جزء مقسوم"؛ لأن كل ما يجري في عالم الكون والفساد فبدلائل هذه السبعة السيارة، وإنما قال: عليها تسعة عشر؛ لأن دلائلها لا تظهر في عالم الكون والفساد

إلا بمسيرها في هذه البروج الإثنى عشر، جملتها تسعة عشر[1]".

وهكذا أولوا الآيات المتعلقة بالجنة وقالوا: "ليس غرض الأنبياء – عليهم السلام– فيما وصفوا من مجلس الجنان، ولذات أهلها هو الإقرار باللسان فحسب بلا اعتقاد، ولا الاعتقاد فحسب بلا تحقيق يظهر لهم، بل الغرض هو التصور لها بحقائقها كي ما تقع الرغبة فيها، والطلب لها؛ لأن الإنسان لا يطلب ما لا يرغب فيه، ولا يرغب فيما لا يتحققه، ولا يتحقق مالا يتصوره، ولا يتصور الشيء الخفي الغائب إلا بالوصف البليغ بالمحاسن. من أجل هذا أكثر في القرآن من وصف محاسن الجنان، وسرور أهلها، ولذات نعيمها، فتارةً وصفها أوصافًا جسمانية على قدر طاقة الفهم مثل قوله تعالى: "على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين".

ذكر هذا وبين على قدر قبول أفهامهم، لا بمعنى أن هذه الأشياء ستوجد في الجنة على حالات جسمانية، بل توجد أشياء روحانية: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ وقال تعالى أيضًا: "في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب" وما شاكلها من أوصاف الأمور الجسمانية.

وتارة وصفها بأوصاف روحانية على قدر فهم المتوسطين مثل قوله تعالى: "في مقعد صدق عند مليك مقتدر"، وقال: "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون"، وقال: "وفيها ما تشتهيه

---

[1] ج ٣ ص ٧٩.

الأنفس وتلذ الأعين" وقال: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، وكلها من الأوصاف الروحانية التي لا تليق بالأجسام الطبيعية.

وتارةً وصفها بأوصاف هي بين الروحانية والجمالية مثل قوله تعالى: "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات".

أما ترى يا أخي أنه قال: "مثل الجنة" على سبيل التشبيه والتمثيل ليقرب من الفهم تصورها، لا أنه يقصد الوصف عنها بحقائقها، وإنما خاطب كل طائفة من الناس بحسب عقولهم، ومراتبهم في المعارف والفهوم، لأن دعوة الأنبياء عليهم السلام عامة الخاص والعام، ومن بينها طبقات الناس.

ويستشهدون بكلام المسيح حيث قال لحوارية في وصية لهم: "إذا فعلم ما فعلت، وما قلت لكم، تكونون معي غدًا في ملكوت السموات عند أبي وأبيكم وترون ملائكته حول عرشه يسبحون بحمده ويقدسونه، أنهم هناك متلذذون بجميع اللذات بلا أكل ولا شراب"، وإنما صرح المسيح عليه السلام ولم يرمز؛ لأنه كان يخاطب قومًا قد هذبتهم التوراة، وكتب الأنبياء قبله وكتب الحكماء فكانوا غير محتاجين إلى الإشارات، أما مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام فقد اتفق مبعثه في قوم أميين من أهل البوادي غير راضين بالعلوم، ولا مقرين بالبعث والنشور، ولا عارفين بنعيم ملكوت الدنيا، فضلًا عن معرفة نعم أهل السموات الذين هم ملكوت الأفلاك والآخرة وأهل الجنان، فجعل أكثر صفة الجنان في كتابه جسمانية؛ ليقربها

من فهم القوم ويسهل تصورها عليهم، وترغب نفوسهم فيها، ونحن قد جعلنا بحثنا عن أسرار الكتب الإلهية، وبينا في أكثر رسائلنا معني أسرار التنزيلات النبوية، وكشفنا عن أكثر الرموز والإشارات وعن الموضوعات الناموسية، وذلك لأن خطابنا لا يكون إلا مع أقوام علماء فضلاء مارسوا إخوان الصفاء، ورسخوا في العلم وارتاضوا بالرياضيات الحكمية المقرونة بأسرار الكتب الإلهية، وإشارات الأنبياء عليهم السلام[١].

الكفر: وعلى هذا فإن الكفر الذي يؤدي بعض النفوس إلى جهنم له عندهم معنى خاص، فالكفر في لغة العرب الغطاء، وهو شيء يعرض للنفس من جهة الجسد، وذلك أنه إذا استقرت النفس في الجهالة تغطي عليها أمر ذاتها، وذهب عليها معرفة جوهرها، حتى يبلغ من جهلها ألا تعلم بأن لها وجود خلودًا من الجسد[٢]"، فهذا هو الكفر في رأيهم.

الشياطين: وينكرون كذلك الشياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين: "ومن الآراء الفاسدة من يعتقد أن الله خلق خلقًا ورباه وأنماه وأنشأه وسلطه وقواه على عباده متمكنًا في بلاده، ثم ناصبه بالعداوة والبغضاء، وهو إبليس وجنوده من الشياطين، وهم يفعلون ما يريدون على رغم منه[٣]".

وإنما الشياطين عندهم هي تلك النفوس الشريرة الهائمة، فيما دون ذلك القمر مع إخوانها من النفوس التي جهات ذواتها في الحياة الدنيا، وانغمست في حمأة المادة، وهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس

---

[١] ج ٣ ص ٩١- ٩٢.
[٢] ج ٣ ص ٧٦.
[٣] ج ص ٦٢.

الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل، كما قال تعالى: "شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا".

فشياطين الإنس، هي النفوس المتجسدة الشريرة التي آنست بالأجساد، وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الأنظار.

العذاب: وأما العذاب الذي تلقاه هذه النفوس فقد ذكرنا طرفًا منه فيما سبق ونوضحه هنا فتقول:

إن النفوس إذا اهتمت بالجسد أكثر من اللازم، وغاصت في لجج اللذات، ثم جاءت سكرة الموت بالحق، وفارقت النفس الجسد، وسلبت الآلات التي كانت تتلذذ بها، وقد اعتادتها بطول الدرب، فانطبع في همتها النزول إليها، ولا وصول لها إلا بهذا الجسد– وأين هو؟

كانت في آلامها كمن سلبت عيناه؛ وصمت أذناه، وشلت يداه، وقطعت رجلاه، وخرس لسانه، وشد منخراه، وعمي قلبه، وفارقه أحبابه، وجفاه أصدقاؤه، وتركه إخوانه، وظفر به أعداؤه، وشمت به حساده.

تظل هذه النفس متعذبة نادمة متألمة من سوء عاداتها، عمياء في جهالاتها دون ذلك القمر، هاوية في عالم الكون والفساد مع أبناء جنسها من الأمم الخالية، إخوان الشياطين "كلما دخلت أمة لعنت أختها"، وهذه هي جهنم عند إخوان الصفا تلك التي وصفها القرآن، بأن لها نارًا يلقى فيها الكفار كلما

نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها ليتذوقوا العذاب[1].

وأما الصالحون فثوابهم يتفاوت بحسب درجاتهم في المعارف، واجتهادهم في الأعمال الصالحة، وأجود أحوال العامة والجبال: كثرة الصوم، والصدقة، والصلاة، والقراءة، والتسبيح... وما شاكل ذلك من العبادات المفروضة والمسنونة في الشرائع، المشغلة لهم عن فضول وبطالة، وما لا ينبغي لهم؛ كي لا يقعوا في الآفات.

وأفضل أعمال الخواص التفكر والاعتبار بتصاريف أمور المحسوسات والمعقولات وبخاصة ما يتعلق بالدين، وقد قيل أيضًا: أفضل أعمال الخير خصلة واحدة وهي التفكر، قال تعالى: قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا".

ثم اعلم أن الإنسان إذا عقل الأمور المحسوسة وعرفها وتفكر في الأمور العقلية وبحث عنها وعن عللها استقبلته عند ذلك طريقتان: إحداها ذات اليمين تؤدي إلى الهداية والرشاد، والأخرى ذات الشمال تؤديه إلى الغي والضلال، وذلك أن أمور العالم نوعان: كليات وجزئيات لا غير، فإذا أخذ الإنسان يفكر في كلياتها ويعتبر أحوالها وتصاريفها، ويبحث عن الحكمة فيها بانت له، وأمكنه أن يعرفها بحقائقها، وأرشد إليها، فكلما تقدم فيه زاد هداية ونورًا ويقينًا.

وإذا أخذ يتفكر في جزئياتها والبحث عنها وعن عللها خفيت وانفلتت مناحيها، وكلما ازداد تفكرًا ازداد تحيرًا وشكوكًا، ومن الله بعدًا،

---

[1] ج ٣ ص ٩٣- ٩٤.

وكان قلبه من أجل ذلك في عذاب أليم[١]".

وهذا هو رأي أفلاطون في الفضيلة وفي نظرية المثل وفي السعادة الحقيقية؛ فالإدراكات الكلية عنده هي العلم الصحيح، والاقتصار على الجزئيات اقتصار على ظلال الحقائق، وأخذ العلم عن طريق الحواس وهي خاطئة. وإنما العلم المطلوب هو العلم بالحقائق المجردة أو بعالم المثل[٢].

والسعادة عنده أربعة أنواع: العلم بعالم المثل ثم تفهم الارتباط بين عالم المثل وعالم الحس، ثم التثقف بأنواع من العلوم والفنون، ثم التمتع بلذات هذا العالم النقية الطاهرة البريئة.

وهذه هي السعادة أو الفضيلة الفلسفية، وإن لم يجرد الفضيلة العادية من القيمة بل قال: إن الإنسان لا يستطيع أن يقفز دفعة واحدة إلى قمة الفضيلة الفلسفية بل لابد من المران والسير درجات، ومما يساعد على هذا السير الاعتبار الحسن، وغرس الفضائل العرفية حتى إذا جاء التفكير والتأمل– وهو غاية الغايات– كان الاستعداد لذلك حاصلًا، واستطاع الإنسان أن يصعد على هذا الأساس.[٣]

–٨–

الحث على الزهد والفقر: كان من الطبيعي بعد ما تقدم، أن يدعو إخوان الصفاء إلى الزهد، والفقر، وإهمال الجسد. وقد مر بنا في الفصل

---

[١] ج ٤ ص ٤٠– ٤١.

[2] **The Republic 510**

[٣] قصة الفلسفة اليونانية ١٧٥– ١٧٥.

السابع، عند الكلام على طريقة استدلالهم[1]، كيف استشهدوا على أن الجسد لا قيمة له، بأقوال الأنبياء، والصالحين، والفلاسفة، والحكماء، وأعمالهم وإقبالهم على الموت بنفوس راضية مطيعة؛ رغبة منهم في التخلص من ربقة المادة ومن هذا الجسد الكثيف الغليظ، الذي تحجب النفس عن النور، ويعوقها عن السمو إلى العالم العلوي.

والرسائل تغص بالكلام عن الزهد، وصفات الزهاد، وأعمالهم في الحياة الدنيا، ومصيرهم في الآخرة، ولا يكاد فصل من فصول الرسائل يخلو من كلمة تحث على الزهد، وتحبب الناس فيه. وتجمل هنا آراءهم، وتعطي صورة من نظريهم في الزهد والزهاد استيفاء للمقام؛ لأن هذا هو فلسفتهم العملية، والغاية التي يدعون إليها، والنتيجة المترتبة على نظرياتهم في النفس، والبعث، والجنة والنار، والشياطين، والملائكة.

سياسة الجسد: وقد رسموا لأنفسهم. ولمن يستجيب لدعواتهم سياسة جسدية، يجب أن يسيروا عليها؛ حتى يحققوا الهدف الذي يرنون إليه، وهو الوصول إلى الجنة، وإلى الحياة الباقية في دار الخلود. وسياسة الجسد عندهم تتلخص في قلة الأكل، وترك الشهوات: "وفي قلة الأكل، وترك الشهوات خصال محمودة كثيرة، ومناقب حسنة جميلة، فمنها ما روي عن النبي -ﷺ- أنه قال: "أجيعوا أنفسكم تفرح بكم سكان السماء"، ومنها أن الإنسان أصح جسمًا، وأجود حفظًا، وأذكى فهمًا، وأقل نومًا، وأصدق رؤيا، وأخف نفسًا، وأحد بصرًا، وألطف فكرًا...إلخ.

---

[1] راجع ص ١٢٧- ١٢٨ من هذا الكتاب.

ويقولون كذلك:

"يروى عن عائشة- ﵂- أنها قالت: "أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد ذهاب نبيها- ﷺ- الشبع وكثرته؛ وذلك أن القوم إذا شبعت بطونهم سمنت أبدانهم وقست قلوبهم، وجمحت نفوسهم، واشتدت شهواتهم، ومن آفات الشبع وكثرة الأكل: عفونة القلب، ومرض الأجساد، وذهاب البهاء، ونسيان الرب، وعمى القلوب، وهزال الروح، وسلاح الشياطين، وجراحة الدين، وذهاب اليقين، ونسيان العلم، وكثرة فضول القول"... إلى غير ذلك من خمسين خصلة ذكروها، تهيج من الشبع وكثرة الأكل[١].

وقد وضحوا ما يأكله الإنسان، حتى لا يصاب بالآلام والأسقام في قولهم: "فليكن غذاؤك من الموجود غير الممتنع عليك صنفين، ثالثهما الماء، إمامًا ينزل من السماء، أو ما ينبع من الأرض ما تيسر لك، فإنك ما دمت على ذلك من قلة الأكل وترك الشبع، وتعمد الجوع، في الأوقات التي يصلح فيها استعماله، كانت طبائعك على حالها لا يزيد فيها ما يحتاج أن تنقصه، ولا ينقص فيها ما تحتاج أن تزيده[٢]".

وزادوا ذلك توضيحًا حين قالوا: "ثم أعلم أنه ليس في كثرة الأكل افتخار، ولا يحتاج من الأكل والشرب إلا إلى مقدار ما يسكن الجوع والعطش؛ فإذا سكن ذلك كان سكونه بألوان من المأكولات، أو بكسرة من خبز الشعير وشرب الماء القراح، كما قال عيسى -عليه السلام-

---

[١]رسائل جـ ١ ص ٢٨٠- ٢٨١.

[٢]جـ ٤ ص ٢٩٤.

للحواريين:" إن أكل خبز الشعير، وشرب الماء القراح اليوم في الدنيا لكثير لمن يريد أن يدخل الفردوس غدًا[1]".

ومع ذلك فالآلام والأسقام التي تصيب الجسد، إنما تأتي بموجب حركه نجومية، ومقادير سماوية، وكذلك زوال هذه الآفات والآلام، وإنما صار ذلك مقدرة على الأجسام من أجل أنها ليست هي الذات الباقية، ولكنها ذات فانية.

ويدعون إلى الصبر على الآلام، والأسقام، مادامت آتية من قبل السماء وليس لنا بها حيلة، ولا إلى صرفها وسيلة، ولا داعي للوم النفوس وتقريعها والأسى على إهمالهما: "وأنت إذا تيقنت ذلك سكنت نفسك، وطاب لها الصبر على الأسقام النازلة، والأعلال الواصلة إلى الجسم، واجعل أكثر شوقك إلى الخلاص من هذه الدار، ومفارقة هذا السجن، لأنك إذا خرجت منه قدمت على ربك"[2].

مدح الزهد: والزهد عندهم هو ترك فضول متاع الحياة الدنيا، وترك طلب شهواتها، والرضا بالقليل، والقناعة باليسير من الذي لا بد منه.

وقد رفع الله من المؤمنين المقربين، واصطفى منهم طائفة على غيرهم، وهم العلماء والفقهاء، ثم إن الله– جل اسمه– رفع من جملة العلماء طائفة، وهم التائبون العابدون، والصالحون الورعون، ورفع من هؤلاء طائفة في

---

[1] ج ٣ ص ٣٤.

[2] ج ٤ ص ٢٩٥.

الدرجات وهم الزاهدون في الدنيا، العارفون عيوبها، الراغبون في الآخرة المتحققون بها الراسخون في علمها[1]".

ويثنون على الفقراء الذين خلفوا حطام الدنيا وراءهم، ولم يسعوا إلى ما فيها من لذات ونعيم:

"ثم اعلم أن لهذه الطائفة- أعني الفقراء وأهل البلوى- فضائل كثيرة وللهتعالى في إيجادهم حكمة جليلة، تخفى على كثير من العقلاء والمترفهين من أبناء الدنيا، فمنها: أنهم أشد الناس يقينًا بالآخرة من غيرهم من المترفين، وأنهم أسرع الناس إجابة لدعوة الأنبياء -عليهم السلام- من غيرهم، وأنهم أخف مؤنة وأقل حوائج، وأقنع باليسير، وأرضى بالقليل، وأنهم أكثر ذكرًا لله تعالى في السر والعلانية، وأرق قلوبًا في الفكرة والتذكر...إلخ[2].

فالزهاد عندهم أقرب الخلق إلى الله، وهم الصفوة المختارة من جميع من رضى الله عنهم، وللفقراء منزلة عظيمة عند ربهم، وهم مقربون إليه، أثيرون عنده.

صفات الزاهد: وقد أضفوا على الزهاد، ولعلهم يعنون بذلت المثل الأعلى في أذهانهم مجموعة من السجايا قلما توجد في إنسان غير الأنبياء، فمن هذه الخصال:

١- العفة، وهذه خصلة تتبعها أخلاق جميلة، وخصال محمودة، فمنها الكف والورع، والحفظ والوقار، والأمانة، والصحة، والسلامة،

---

[1] ج ١ ص ٢٧٩- ٢٨٠

[2] ج ٣ ص ٣٩٨.

وحسن الثناء، وبراءة الساحة، وسكون الناس إليهم، والثقة بهم، والإجلال لهم.

٢- ومن خصال الزهاد: السخاء والكرم، والبذل، والمواساة والإحسان والإيثار، والتودد، والبر... إلخ.

٣- ومن خصالهم: الحلم والأناة، والتثبيت والرزانة، والتؤدة،والرفق، والمداراة، والسكينة، والوقار، والحياء والصفح، والعفو والتغافل، والشفقة، والرحمة... إلخ.

٤- ومن خصالهم: الرضا والقناعة، والتجمل والكفاف، واليأس من الطمع، والراحة من العناء، والتسليم للقضاء، والصبر في الشدائد، وحسن العزاء... إلخ.

٥- ومن خصالهم: التوكل على الله، والثقة به، والطمأنينة إليه، والإخلاص له في العمل، والصدق بالقول، والتصديق بالضمير، والنصح الإخوان، والوفاء بالعهد.

فالزهاد بهذه الأوصاف أولياء الله، وخلاصة عباده من المؤمنين، الذين يحبون الله ويحبهم.

ويصفون الطريق الموصل إلى التحلي بهذه الصفات جميعها بقولهم: "وأعلم يا أخي، أن الطريق إلى هذه الخصال التي وصفناها، هو أن تبتدئ أولًا بسنة الناموس، فتعمل بوصايا صاحبه، كما في كتب النواميس الإلهية، يعرفها أكثر علماء أهل الشريعة، وقد استغنينا عن ذكرها؛ والذي نوصيك به نحن أن تنزع عن نفسك القشور التي تعلقت عليها من محبة الجسد،

وتخلع اللباس الذي أحاط بها من الأمور الطبيعية، والصفات الجسمانية، وتجلو عنها الصدأ الذي تركب عليها من أخلاط البدن، وسوء الخلق، وتراكم الجهالات وفساد الآراء، وتنحى عنها هذه الأشياء؛ ليصفو لك اللب والمخ، وهو جوهر نفسك النيرة الشفافة الروحانية، التي هي كلمة من كلمات الله، وروح منه نفخها في الجسد، وأحياء بها، وهي التي مدحها الله– تعالى– بقوله: "ومثل كلة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء... الآية، وقال: "إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه[1]".

السعداء والأشقياء: وعلى هذا فالناس ينقسمون في سعادة الدنيا والآخرة وشقائهما، أربعة أقسام: فهم سعداء في الدنيا، والآخرة جميعًا، ومنهم أشقياء فيهما جميعًا، ومنهم أشقياء في الدنيا سعداء في الآخرة، ومنهم سعداء في الدنيا أشقياء في الآخرة.

فأما السعداء في الدنيا والآخرة جميعًا، فهم الذين وفر حظهم في الدنيا من المال والمتاع والصحة ومكنوا فيها، فاقتصروا منها على البلغة، ورضوا بالقليل وقنعوا به، وقدموا الفضل إلى الآخرة ذخيرة لأنفسهم، كما ذكر الله– تعالى– بقوله: "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله".

وأما سعداء أبناء الدنيا وأشقياء أبناء الآخرة فهم الذين وفر حظهم من متاعها، ومكنوا منها، وارتقوا فيها فتمتعوا، وتلذذوا، وتفاخروا ولم يتعظوا بزواجر الناموس، ولم ينقادوا له، وطغوا وبغوا وأسرفوا، وهم الذين أشار إليهم بقوله جل ثناؤه: "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها" .

---

[1] رسائل ج ١ ص ٢٨٢– ٢٨٣.

وأما أشقياء الدنيا، وسعداء الآخرة فهم الذين طالت أعمارهم فيها وكثرت مصائبهم في تصاريف أيامها، واشتدت عنايتهم في طلبها...إلخ، ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها، وائتمروا بأوامر الناموس، ولم يتعدوا حدوده، وقد ذكر الله ذلك في آيات كثيرة من القرآن: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

وأما أشقياء الدنيا والآخرة، فهم الذين بخسوا حظهم من الدنيا، ولم يتمكنوا منها، وشقوا في طلبها، فعاشوا فيها طول أعمارهم بأبدان متعبة ونفوس مهمومة، ولم ينالوا خيرًا، ثم لم يأتمروا بأوامر الناموس، ولم ينقادوا لأحكامه فهم الذين خسروا الدنيا والآخرة جميعًا، وذلك هو الخسران المبين"[1].

فالزهد في الحياة الدنيا، وإضعاف الجسد والتخلص منه، والسمو بالنفس الإنسانية، هو خلاصة فلسفة إخوان الصفاء العملية. وهم في هذا يخلطون بين الشريعة الإسلامية التي تفضل الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، وبين الأفلاطونية الحديثة التي تحث على الزهد، والتخلص من الجسد؛ حتى تتحرر النفس وتكون أهلًا للاتحاد مع الله فترة من الزمن ولو وجيزة. كما رأينا آنفًا.

---

[1] رسائل ج ١ ٢٥٧- ٢٥٨.

الفصل التاسع

التربية عند إخوان الصفا

-١-

الاهتمام بالعلم: إن آراء إخوان الصفا في النفس الإنسانية التي سبق الكلام عليها، وفي أن مصيرها من شقاء وسعادة بعد مفارقتها الجسد يتوقف على مقدار ما أحرزت من علم في هذه الحياة الدنيا، علم بكليات هذا العالم، وحقائقه المجردة، هذه الآراء جعلهم مهتمون جل الاهتمام بالعلم، وطرق تحصيله.

وهم وإن لم يكونوا من الذين تولوا التدريس والتعلم بمعناها الذي نعرفه اليوم؛ لأن المدارس النظامية في العالم الإسلامي لم تعرف قبل مدرسة نظام الملك أبي علي بن الحسن بن إسحق الطوسي، وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان في بغداد[(١)]، تلك المدرسة التي قام بالتدريس فيها الغزالي سنة(٤٨٤هـ) إلا أنهم كانوا أصحاب مذهب ديني معين، وقد عرفنا فيما سبق أنهم ينتمون إلى الشيعة الباطنية، وكان لهم هدف ذكروه من تأليف جماعهم؛ وهذا الهدف هو قلب نظام الدولة، وإسقاط العباسيين،

[(١)]ولد نظام الملك في ٤٠٨هـ وتوفي ٤٨٥هـ، وقد اغتيل هو والسلطان ألب أرسلان بعد سنة من قيام الغزالي بالتدريس في المدرسة النظامية بغداد، وقد أنشأ مدرسة أخرى بنيسابور ووقف عليهما الأوقاف.

وإرجاع الخلافة لآل البيت، وأنهم لم يسلكوا لهذه الغاية طريق الثورة العنيفة، والجهاد الواضح العلني، ومناصبة العباسيين العداء؛ ولكن سلكوا طريقًا طويلًا، هو تكوين جماعة من الناس تعتقد آراءهم، وتعمل على تحقيقها، ويكون هذا الجمهور داعية لغيره، وهكذا حتى يؤمن الرأي العام بقضيتهم وعدالتها، ويكون عنده من العلم والحصافة ما يحصنه من الأهواء والمغريات، فيمشي في طريقه قدمًا لا يلوى على شيء؛ حتى ينجز أمله، وتحقق غايته: "وأعلم أن الدولة والملك ينتقلان في كل دهر وزمان، ودور وقران، من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت، ومن بلد إلى بلد.

وأعلم أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من قوم علماء حكماء، وخيار فضلاء يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ودين واحد، ويعقدون بينهم عقدً وميثاقًا، ألا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضًا، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفسٍ واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون[1]".

ولقد ألفوا رسائلهم كما عرفنا للأخ البار الرحيم، الذي ينتمي للطبقة الأولى من طبقاتهم الأربع، والذي سيكون داعية لفكرتهم، في جميع الأمصار، وقد وجهوا آراء تربوية لهذا الأخ البار الرحيم، تعينه في اتصاله بالناس، وفي بث آرائه، وفي خير من يوجه إليهم الدعوة، ويعلمهم أغراضها وطرقها. وهذه الآراء منتثرة على غير نظام في الرسائل، لم يعقد لها فصل يعينه في جزء من الأجزاء الأربعة، وإنما يتصيدها المرء تصيدًا من تضاعيف

[1] رسائل جـ ١ ص ١٣١.

الكلام، ونهايات الفصول وأوائلها.

الحاجة إلى المعلم: فأول ما يلفت النظر من هذه الآراء تأكيدهم الحاجة إلى المعلم، واشتراط صفات خاصة في هذا المعلم، ثم الإشادة بقيمته، ومنزلته.

لأن أعمال النفس الإنسانية المكتسبة خمسة أنواع: علوم ومعارف، وأخلاق وسجايا، وآراء ومعتقدات، وكلام، وأقاويل، وأعمال وحركات، وتوصف هذه الأشياء بالخير والشر من وجهين. عقلي ووضعي، فالوضعي هو كل شيء أمر به الشرع أو حث عليه أو مدحه، فيسمى ذلك خيرًا، وكل شيء نهى عنه أو كرهه يسمي شرًا.

أمَّا العقلي فهو كل شيء إذا فعل منه ما ينبغي، على الشرائط التي تنبغي، في المكان الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، من أجل ما ينبغي يسمى ذلك خيرًا، ومتى نقص من هذه الشرائط واحد يسعى ذلك شرًا. ومعرفة هذه الشروط ليس في وسع كل إنسان في أول مرتبته إلا بعد أن تتهذب نفسه، ويترقى في العلوم والآداب.

ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم ومؤدب، أو أستاذ في تعلمه وتخلقه، وأقاويله، واعتقاده، وصنائعه[1]".

فوجب على كل إنسان يبغى النجاة بنفسه أن يهتم بالعلم، فليس من فريضةٍ من جميع ما فرضته الشريعة أوجب ولا أجل ولا أشرف ولا أنفع للإنسان ولا أقرب له إلى ربه من العلم وطلبه وتعليمه؛ لأن العلم حياة

---

[1] ج ٤ ص ١٨.

القلب من الجهل (وهذا ما نسميه في عرف التربية الحديث التربية العقلية: لأن العرب كانوا يعتقدون أن القلب هو مركز الفكر، وفي الآية الكريمة: "لهم قلوب لا يفقهون بها"، ومصابيح الأبصار من الظلم وهذه هي التربية الخلقية، وقوة الأبدان من الضعف، وهذه هي التربية الجسمية، ولأن العلم أمام العمل والعمل تابع له، وهذه هي التربية العملية[١].

المعلم: ومادام هذا شأن العلم فوجب على كل إنسان أن يتخير المعلم الذي يتلقى عنه أو يتلقى عنه ولده، ومن سعادة المرء أن يتفق له معلم ذكي، جيد الطبع، حسن الخلق، صافي الذهن، محب للعلم، طالب للحق، غير متعصب لرأي من المذاهب[٢]. وللمعلمين آفات وعيوب كثيرة عليهم أن يتجنبوها ويحذروها فمنها:

١- الكبر والعجب والافتخار، وقد روي عن رسول الله أنه قال: [من ازداد علمًا ولم يزدد لله تواضعًا، وللجهال رحمة، وللعلماء مودة لم يزدد من الله إلا بعدًا].

وهذا الكبر كما يقول إخوان الصفا، يدعو المرء إلى الإعجاب برأيه، والأنفة عن قبول الحق، وترك الإقرار به، وعدم الخضوع للرؤساء، والخروج عن الحد.

على أن كبر النفس ليس مذمومًا على إطلاقه عندهم، فهو ككل الصفات، إذا استعمل كما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، بمقدار ما ينبغي

---

[١] ج ٤ ص ٢٧١.

[٢] ج ٤ ص ١١٤.

من أجل ما ينبغي، كان محمودًا وعاملًا على طلاقة النفس والمروءة، وعلو الهمة والعفة.

٢- ومنها كثرة الخلاف والمنازعة في العالم، والتعصب والعداوة والبغضاء بين القائمين به.

٣- ومنها الخوض في المشكلات، والترخيص في الشبهات وترك العمل بموجب العلم.[١]

على أن هذه صفات عامة يطالب بها المعلم والمتعلم على السواء، ولكنهم ذكروا ما يكاد يشبه ما نسميه في عرفنا الحديث "الاختبار الشخصي المعلم" عند الكلام على الداعية، الذي رغب في أن يتلقى العلم عنهم، وما الداعية إلا معلم فوجهوا الخطاب إليه قائلين: "فلما وصلت أيُّها الأخ، السعيد إلينا واطلعت علينا، وامتحناك بحيث نراك، كما يمتحن مثلك ممن يصل إلينا ويرد علينا ورأيناك... إلخ[٢]"، وذكروا بعد هذا صفات هذا الذي سيكون معلمًا يحمل رسالتهم، وهذه الصفات هي:

١- أن يكون تام الأعضاء، قوية قوائمه على الأعمال، ومتى همَّ أن يقضي عملًا أتى عليه بسهولة.

٢- أن يكون جيد الفهم، سريع التصور لكل ما يقال له.

٣- أن يكون جيد الحفظ، لما يفهمه، ولما يسمعه، ولما يذكره.

---

[١] ج ١ ص ٢٧٢- ٢٧٧.

[٢] ج ٤ ص ٢٩٣.

٤- أن يكون فطنًا ذكيًا، ذا رأي يكفيه لتبيين أدنى دليل يستدل به على قضيته التي يعرضها، أو موضوعه الذي يتكلم عنه.

٥- أن يكون حسن العبارة، يواتيه لسانه على ما في قلبه وضميره بأوجز الألفاظ.

٦- أن يكون محبًا للعلم والاستفادة، منقادًا له، سهل القبول، لا يؤلمه تعب العلم، ولا يؤذيه الكد الذي يلحقه.

٧- أن يكون محبًا للصدق وحسن المعاملة.

٨- أن يكون غير شره في الأكل والشرب، وفي الشهوات الجسمية.

٩- أن يكون كبير النفس على الهمة، محبًا للكرامة، تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور ويشنع، وتسمو همة نفسه إلى أرفع الأمور رتبةً وأعلاها درجة.

١٠- ألا يكون المال مسيطرًا على نفسه، بل يكون راغبًا في العلم لذاته.

١١- أن يكون محبًا للعدل وأهله، مبغضًا للجور والظلم وأهله، ويكون مواتيًا لكل ما يرى حسنًا جميلًا عدلًا، غير صعب القياد ولا جموح، وإن دعى إلى الجور والقبيح لا يجيب.

١٢- أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي ينبغي أن يفعل، جسورًا مقدامًا غير خائف، ولا ضعيف النفس[١].

وعندي أن هذه صفات لو توفرت لأي معلم في أية بيئة لجملته معلمًا

[١] ج ٤ ص ٢٩١، وص ١٨٢- ١٨٣.

نموذجيًا ينشئ من تتلمذ له تنشئة تجعلهم سادة العالم.

وزادوا على هذا بعض نصائح وجهوها للمعلم منها:

١- الرفق بمن يعلمه والشفقة عليه.

٢- قلة الضجر من إبطاء فهم التلميذ وحفظه، وترك ضيق الصدر من تلقينه.

٣- قلة الطمع في أخذ العوض منه.

٤- قلة المنة عليه بما يعلمه[1].

٥- أن يتعرف خبر كل واحد من تلاميذه صغيرًا أو كبيرًا، ما اسمه ونسبه،وصناعته، وعاداته السيئة والحميدة، وهذه الفتة تشعر التلميذ باهتمام المعلم بشأنه فيحبه ويجتهد في دروسه، كما تمكن المعلم من إصلاح تلميذه وتوجيهه الوجهة العامة.

٦- أن يكون قدوة حسنة لهم في كل شيء.

٧- أن يؤكد الصلات والمودة بينهم، ويوحد كلمتهم حتى يصيروا كرجلٍ واحد.

٨- أن يقسمهم جماعات، على كل جماعة رئيس يتلقى تعاليمه، ويشرف عليهم عن قرب[2].

---

(١) ج ١ ص ٢٥١.

(٢) ج ٤ ص ١٨٤- ١٩٠، وج ٤ ص ٢٩٩.

حقوق المعلم: فإذا وجد المعلم الذي يتصف بهذه الصفات، ويقوم بهذه الواجبات، وله على التلميذ حقوق ذكرها إخوان الصفا فيما يأتي:

"وأعلم أن المعلم والأستاذ أب لنفسك، وسبب لنشوئها وعلة حياتها، كما أن والداك أب لجسدك، وكان سببًا لوجوده، وذلك أن والدك أعطاك صورة جسدية، ومعلمك أعطاك صورة روحية"[1].

ومادام المعلم في منزلة الأب، بل في منزلة أعلى من الأب؛ لأنه مربي الروح فبديهي أن يعظمه ويجله، ويحرص على رضائه، ويحتفى به أين وجده، ويقعد بين يديه[2].

-٣-

التلميذ: أما التلميذ فقد حرصوا على أن يكون من الأحداث الذين لم تلوث أفكارهم بمعتقدات فاسدة وآراء غير صحيحة، وأخلاقهم بصفات رديئة، وفي هذا يقولون:

"وأعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم، واعتقاد من الآراء، كمثل ورق أبيض نقي لم يُكتب فيه شيء؛ فإذا كتب فيه شيء حقًا كان أم باطلًا، فقد شغل المكان، ومنع أن يكتب فيه شيء آخر، ويصعب حكه ومحوه. فهكذا حكم أفكار النفوس إذا سبق إليها علم من العلوم، واعتقاد من الآراء، أو عادة من العادات تمكن فيها حقًا

---

[1] ج ٤ ص ١١٣.

[2] ج ٤ ص ٢٠٢.

كان أو باطلًا، ويصعب قلعها ومحوها كما قال القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

فإذا كان الأمر كما وصفت، فينبغي لك أيها الأخ، ألا تشغل بإصلاح المشايخ الهرمة، الذين اعتقدوا من الصبا أراء فاسدة، وعادات رديئة، وأخلاقًا سيئة، فإنهم يتعبونك ثم لا ينصلحون، وإن صلحوا قليلًا قليلًا فلا يفلحون.

ولكن عليك بالشباب السالمي الصدور، الراغبين في الآداب، المبتدئين بالنظر في العلوم[١].

وقد أكدوا هذا المعنى في غير ما موضع من الرسائل: "فهكذا ينبغي لإخواننا الفضلاء الأخيار أن يختاروا لحكمتهم الأحداث الفتيان، الأخيار النجباء"[٢]، "ولا يصلح للمذاكرة بهذا العالم إلا فتيان أذكياء، لهم نفوس صافية وقلوب واعية، بريؤون من الآراء الفاسدة، غير معتادين للعادات الرديئة"[٣].

هذا وقد فطن إخوان الصفاء إلى أن بعض العلوم يصلح لها صنف من الناس دون الآخرين، ويجب أن يختار التلاميذ الصالحون لكل علم حسب استعدادهم وميلهم لهذا العلم؛ حتى تكون الثمرة قريبة مفيدة، وحتى لا يضيع على المتعلم وقت ثمين في تحصيل موضوع لا يرغبه أو يميل

---

[١] ج ٤ ص ١١٤.

[٢] ج ٤ ص ٢٠٢.

[٣] ج ٤ ص ٢٠٨.

إليه، ويقولون في هذا:

"ثم اعلم أن الله تعالى خلق لكل نوع من هذه العلوم والآداب أمة من الناس، وجعل في جبلة نفوسهم محبة معرفتها، ومكنهم من طلبها وتعلمها، والبحث عنها والنظر فيها لتكون العلوم والآداب محفوظة عليهم لا تنقرض.

وأعلم أن العلوم والآداب تتفاضل، كما أن الصنائع والتجارات والأعمال تتفاضل، وأن أهلها يتفاضلون فيها؛ وأفضلأهل عالم هم الراسخون في العلم العارفون بأصوله وفروعه، كما أن أفضل أهل الصناعة والتجارة ثم الحذاق والأساتذة فيها.

ثم أعلم أنه ليس كل علم وأدب يليق بكل إنسان أن يتعلمه ويتعاطاه، ولكن أولى العلوم بكل إنسان أن يتعلم ما لا يسعه جهله وواجب عليه طلبه.

فانظر يا أخي بعقلك، وميز ببصرك، واختر من العلوم والآداب ما لابد لك منه، كما تختار من الأعمال والصنائع والتجارات ما لابد لك منها"[١].

ويفهم من هذا النص المتقدم فضلًا عن ذلك التوجيه العلمي حسب استعداد الطالب، أنه بالرغم من تفاضل العلوم والآداب، فإتقان أي علم والرسوخ فيه يكسب صاحبه فضلًا بين أهل هذا العلم والمشتغلين به، ويكون أستاذًا يعرف أصول هذا العلم وفروعه، بينما لو اشتغل بغير

---

[١] ج ٤ ص ٤٦.

هذا العلم، وليس عنده الاستعداد لتحصيله، والتفوق فيه، فلن يكون إلا مضيعًا لوقته مغمورًا بين الناس، غير منتج الإنتاج الذي يرجى من العلماء.

كما يفهم من هذا النص شيء آخر، وهو أن هناك قدرًا مشتركًا من المعلومات لابد أن يحصلها كل إنسان، وذلك قولهم: "ولكن أولى العلوم بكل إنسان أن يتعلم ما لا يسعه جهله، وواجب عليه طلبه" وبعد هذا القدر العام من الثقافة يتجه كل أمرئ حسب ما يؤهله له استعداده.

وقد فصلوا هذا الكلام بالجمل في موضع آخر، حيث يقولون: "ومنهم من تكون محبته في لقاء أهل العلم، واستماع كلام العلماء، وطلب العلوم،والآداب، ومعرفة الأخبار،والروايات، والآثار.

ومنهم من تشتهي نفسه علم النحو،والشعر،والخطب،والفصاحة، والأقاويل، والكلام، وما شاكل هذه ويتلذذ بها.

ومنهم من يشتهي علم الحساب، والهندسة، والنجوم، والطب، والرياضيات، وما شاكلها ويتلذذ بها.

ومنهم من تشتهي نفسه علم العزائم،والرقي،والسحر، والكيمياء، والميل إلى الميكانيكا وما شاكلها ويتلذذ بها.

ومنهم من يشتهي النظر في علوم الطبيعيات والإلهيات، والبحث عنها، وعن حقائق الموجودات الكائنات الفاسدات، والباقيات المخلدات.

فانظر يا أخي بعقلك، وميز ببصيرتك، واختر لنفسك من هذه

المشتهيات ما يليق بها وترضى لها[1]. والمهم عندهم ألا يكون المرء جاهلًا، ولكن يأخذ نفسه بتعلم أي نوع من العلوم، حتى ينقذ نفسه من تراكم الجهالات عليها، ومن العذاب الذي ينتظرها إذا ظلت جاهلة بعد مفارقتها الجسد، ويقولون في هذا: "وتعلم العلم، أي علم كان، حكميًا، أو شرعيًا، رياضيًا، أو طبيعيًا، أو إلهيًا، فإنها كلها غذاء للنفس، وحياة لها في الدنيا والآخرة جميعًا، ولا تتبع سبل الذين لا يعلمون، وهم الذين وصفهم الله بقوله: "ومن الناس من يجادل في الله بغير علم[2]".

– ٤ –

مواد الدراسة: يعد إخوان الصفا رسائلهم منهجًا طبيعيًا، ألفوها للأخ البار الرحيم، الذي دخل في زمرتهم، ورغب أن يكون داعية من دعاتهم فيقولون له، بعد حثه على طلب العلم أيًا كان نوع هذا العلم: "وقد عملنا في هذه العلوم والآداب إحدى وخمسين رسالة، كل واحدة منها في فن من العلوم، ونوع من الآداب، فاطلبها واقرأها تجدها سهلة من غير تعبٍ وكد[3]".

وقد بينا فيما سبق محتويات هذه الرسائل، ونقول هنا: إن هذا المنهج لم يشمل كل ما ذكروه عن اختلاف رغبات الناس في مختلف العلوم،ولاسيما الدراسات الدينية واللغوية. وهذه الرسائل كانت تهدف إلى

---

[1] ج ٤ ص ٦٧.
[2] ج ٤ ص ٧١.
[3] ج ٤ ص ٧٢.

الدراسة الفلسفية قبل كل شيء، وإن لم تتعمق في دراسة الفلسفة وقد أقروا بأنها كالمدخل لكل علم من العلوم التي ضمنوها رسائلهم، والتي قسموها أربعة أقسام: رياضية تعليمية كالعدد والهندسة، والموسيقى، والكلام والجغرافيا، والمنطق، وجسمانية طبيعية كالزمان والمكان، والسماء والعالم والهيولى والصورة، وكيفية تكوين المعادن. وأجناس النبات. وأصناف الحيوان... إلخ. والقسم الثالث: نفسية عقلية كالمبادئ العقلية ،وماهية العشق، ونشأة العالم، وماهية البعث والنشور، وأقسام النفس... إلخ. والقسم الرابع: رسائل ناموسية شرعية دينية كالكلام في الآراء والمذاهب، واعتقاد إخوان الصفا، وماهية الأيمان والكلام عن الجن والملائكة والشياطين، وأنواع السياسات، والسحر والعزائم... إلخ.

ولما كان هذا المنهج الدراسي لا يصلح لكل الناس، ولم يقصد به كل الناس وإنما هو دراسة خاصة لطبقة معينة، هي التي استخرج للدعاية والتعليم على مبادئ إخوان الصفا، كما أنها دراسة فلسفية لا تشمل كل العلوم، رأى إخوان الصفا تقسيم العلوم حسب الناس، ووجهوا لكل طائفة نصائح تعليمية تعينهم على تحصيل علومهم، وعلو ذكرهم، وحسن أخلاقهم.

والناس في رأيهم، أو بالأحرى في زمانهم، الذين يشتغلون بالعلم ثمانية أصناف:

أولهم: حفظة القرآن، والشروط التي يجب أن تتوفر في هؤلاء، والصفات التي يجب أن يتحلوا بها هي فصاحة الألفاظ، وتقويم اللسان،

وطيب النغمة، وجودة العبارة، وسرعة الحفظ وجودة الفهم، ودوام الدرس، والنشاط في القراءة، والتواضع أن يتعلم منه، والتعظيم له، ومعرفة حقه وحرمته.

والصنف الثاني: رواة الحديث، ويجب أن يتوفر في هؤلاء وجودة الاستماع واستيفاء الكلام، وضبط الألفاظ على رسمها، وتقيدها بالكتابة والتحرز، والتحرج والحذر من الزيادة والنقصان عن تمامها، والصدق وحسن الأداء، وتجنب الكذب، ثم الحكاية عنها بهيئتها.

والصنف الثالث: طلاب الفقه والذين يريدون القضاء والفتاوى والمنهج الذي يلزمهم هو معرفة الرتب، التي رتبها واضع الناموس، من الأوامر والنواهي، والفرائض والسنن والنوافل، والحلال والحرام، والحدود والأحكام ثم معرفة القياس، وكيفية استخراج الفروع من الأصول في الفتاوي، والمسائل الواردة التي ليس لها ذكر في الأصول، والتثبيت والتأني في الفتاوى، والاستقصاء في استفهام السؤال بجميع شرائطه، ثم قلة الترخيص في الشبهات من المحذورات ودرء الحدود بالشبهات، وترك الافتخار في إصابة الأحكام وقلة الشنعة على العلماء بزلاتهم، وألا تكون أقوالهم مخالفة لأعمالهم.

والصنف الرابع: طلاب التفسير الآيات القرآنية، ويلزمهم معرفة غرض صاحب الشريعة في إرادة التنزيل، واستعماله الألفاظ المشتركة المعاني، وأن يكون لهم اتساع في معرفة تصاريف الكلام والأقاويل، ويكون لهم جودة بحث وبعدفي استخراج المعاني، ولطف العبارة عنها بحسب ما

تحتمل عقول المستمعين، ويقرب من فهم المتعلمين.

والصنف الخامس: الغزاة والمدافعون عن الثغور والبلاد، ويجب أن يكونوا متعصبين في الدين (حتى يكون دفاعهم عن عقيدة، فيستميتون في القتال، ولهدف فترضى نفوسهم بالتضحية)، وأن تكون لهم غيرة على حرمة، وحنق على الأعداء، وشجاعة عند المبارزة، وخفة الحركة عند القتال، وتيقظ القلب من غدر العدو، وطلب الحيلة للظفر إذا أمكن ذلك من غير قتال، والمخادعة في الحروب، والمبادرة إلى النزال، والصبر عند اللقاء، وترك الإفساد عند هزيمة العدو، ورحمة الأسير وقبول الصلح عند الهدنة، والوفاء بالعهد، وترك الإعجاب عقد كثرة عدد الإخوان والأنصار.

والصنف السادس: الزهاد والوعاظ، ويلزمهم صفات عملية وأخرى علمية، فأما العملية: فأن يكونوا متحلين بالقناعة منصرفين عن الشهوات وأن يكونوا من المشتغلين بالعلم، الفاهمين لعظات الآثار، والمنازل الدارسة للأمم الخالية، مع العبادة من صوم وصلاة، وأما الصفات العلمية فالنظر في كتب الحكماء، وأخبار سير الملوك الماضية، والتفكر في الأمثال المضروبة على ألسنة الحكماء ذوي التجربة، ومعرفة أحوال النفوس ومصيرها، وأمر المعاد، وما يصيب الإنسان فيه من شقاء ونعيم.

والصنف السابع: الملوك والحكام والرؤساء، وهؤلاء يجب أن يؤخذوا منذ الصغر بالتعليم والتأديب والرياضة، وينهبوا عن اللذات والشهوات، وكل مالا يليق بالرؤساء والعقلاء؛ حتى لا يكونوا من هؤلاء المتخلفين

والمدابير الذين يسعون ليلهم ونهارهم في طلب شهواتهم. ويجب أن يعلموا كيف يأخذون البيعة على الأتباع المستجيبين، وترتيب الخاص والعام مراتبهم، وجباية الخراج والجزية من أهل الملة، وتوزيع الأرزاق على الجند والحاشية، وحفظ الثغور، وقبول الصلح والمهادنة، وتأليف القلوب، وجمع الشمل، وما شاكل هذا. ثم يجب أن يكونوا متدينين عالمين بأمور دينهم، فالدين والملك أخوان؛ لأن الناس في طباعهم وجعلهم لا يرغبون إلا في دين الملوك ولا يرهبون إلا منهم. فيجب أن يعرفوا الشريعة حتى يلزموا الناس بها، ويعلموا القراءة، والكتابة، والشعر، والفصاحة، والنحو، واللغة، والحساب، والنجوم، والهندسة، وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب.

والصنف الثامن: وهو أرقى الأصناف جميعًا، فهم خلة الأنبياء، والعالمون بالأسرار، هم الفلاسفة، ويقول فيهم إخوان الصفاء: "وقد بينا أخلاقهم وخصالهم وشرائطهم، وعلومهم ومعارفهم وطرائقهم على إحدى وخمسين رسالة عملناها ودوناها، فقم أيها الأخ، البار الرحيم بالعمل بواجبها والقيام بحقها، وأخير جميع إخواننا، حيث كانوا في البلاد بما فيها"[(١)]. وقد أشرنا إلى ما تحتويه هذه الوسائل.

هذا هو منهاجهم الذي يتماشى مع مهن الناس، وما يصلحون له. ولكنهم عادوا فخصوا المشتغلين بالدين بشيء من التفصيل، وقسموهم ثلاث طبقات تبعًا للدين نفسه، حيث قالوا: "وأعلم أن الدين وآدابه، وما يتعلق به نوعان فمنها ظاهر جلي، ومنها ما هو باطن خفي، ومنها ما هو بين ذلك".

[(١)]راجع رسائل جـ ١ ص ٢٤٩– ٢٩٢ وجـ ٤ ص ٣٢،٣٣، ص ٢٠٠.

فالذي يصلح للمبتدئين والعامة ما كان ظاهرًا جليًا مكشوفًا،مثل: علم الصلاة، والصوم، والزكاة والصدقات، والقراءة، وعلم العبادات، ومثل: علم الأخبار،والروايات، والقصص، وماشاكلها.

وأولى علوم الدين بالمتوسطين هو التفقه في أحكامها، والبحث عن السيرة العادلة، والنظر في معاني الألفاظ، مثل التفسير والتأويل، والنظر في المحكمات والمتشابهات، وطلب الحجة والبرهان، وألا يرضى من الدين تقليدًا، إذا كان يمكنه الاجتهاد ودقة النظر.

والذي يصلح للخواص البالغين في الحكمة الراسخين في العلوم من علم الدين، أن يطلبوه ويليق بهم، هو النظر في أسرار الدين، وبواطن الأمور، وحكمة التشريع، وأسراره المكنونة، ومرامي أصحاب الشرائع في رموزهم وإشاراتهم اللطيفة، وحقيقة معانيها الموجودة في التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وقد بينا حقيقة معانيها في رسائلنا الناموسية الإلهية، وذكروا المقصود بالجنة والنار، وما فيهما من لذة وشقاء، وما معنى القيامة والبعث، والبرزخ، والميزان والوقوف على الأعراف، وغير ذلك.

وقد ذكرنا هذا في فصل سابق عند الكلام على النفس ومصيرها بعد مفارقة الجسد.

ويقولون بعد هذا: "ثم أعلم أن رجال هذه الطبقات الثلاث المتقدم ذكرها متفاوتو الدرجات في علومهم ومعارفهم، فإن استوى أن تكون في أعلى المراتب فلا ترضى لنفسك بالأدنى،واجتهد في الطلب، فإن الذين هم فوقك قد كانوا وليست هذه مراتبهم، ثم اجتهدوا في الطلب وبلغهم

الله كما وعد فقال: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا[1]".

- ٥ -

طريق التحصيل: أما عن الطريقة التي بها تحصل المعلومات فيقول إخوان الصفا: "إن أول طريق التعاليم هي الحواس، ثم العقل، ثم البرهان، فلولا ما يكن للإنسان من الحواس لما أمكنه أن يعلم شيئًا، لا المبرهنات ولا المعقولات، ولا المحسوسات البته.

والدليل على صحة ما قلنا إن كل مالا تدركه الحواس بوجه من الوجوه لا تتخيله الأوهام، وما لا تتخيله الأوهام لا تتصوره العقول، وإذا لم يكن الشيء معقولًا، فلا يمكن البرهان عليه؛ لأن البرهان لا يكون إلا من نتاج مقدمات ضرورية مأخوذة من أوائل العقول (البديهيات)، والأشياء التي هي في أوائل العقول إنما هي كليات أنواع، وأجناس ملتقطة من أشخاص جزئية بطريق الحواس.

والدليل على ذلك: الصبي، لولا أنه قدر أن عشر جوزات أكثر من خمس، أو خشبة طولها عشرة أذرع أطول من أخرى طولها ستة أذرع، فمن أين كان يمكنه أن يعلم أن الكل أكبر من الجزء.

وعلى هذا القياس حكم سائر المعقولات؛ فإنها مأخوذة أوائلها من الحواس. والدليل على ذلك أيضًا أنك تجد من كان أكثر محسوسات، ولها أكثر تأملًا وللمتخيلات أجود اعتبارًا، فإن الأشياء المعقولة عنده أكثر

---

[1] جـ ٤ ص ٤٦- ٤٨.

عددًا ونفسه لهما أكثر تحققًا.

فقد تبين بما ذكرنا أن الأشياء المعقولة ليست بشيء سوى رسوم المحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس من الأشخاص، مجموعة في فكر النفس، المسمى أنواعًا وأجناس[1] **Sense Perception**.

ويرى إخوان الصفا أن عقل الإنسان هو تصور المحسوسات، والتمييز بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها، ومعرفة جواهرها وأعراضها، وكثرة التجارب والاعتبار بتصاريف الدنيا، ويقولون: "ثم أعلم أن كل من كان أكثر تأملًا للمحسوسات، وأدق نظرة في أمور الموجودات، وأجود بحثًا عن الخفيات، وأكثر تجارب للأمور الدنيوية، وأحسن اعتبارًا لأهلها كان أرجح عقلًا من أبناء جنسه، وأكثر علمًا من أهل طبقته"[2].

وقد اهتم إخوان الصفا باستخدام الحواس أول الأمر في سبيل تحصيل المعلومات اهتمامًا ما زائدًا في الرسائل، وذكروا هذا في أكثر من موضع.

وقد سبقوا برأيهم هذا يستالوتزي[3] في اهتمامه بالملاحظة والإدراك الحسي في التربية، وهربرت[4] في نظرية الاستطلاع **apperception**

ولقد قالوا كما قال هربارت: بأن قوى النفس الإنسانية متحدة،

---

[1] رسائل جـ ٣ ص ٣٩٣– ٣٩٤.

[2] راجع جـ ٣ ص ٢٤١– ٢٨٠ و٣٧٦، وص ٣٨٤.

[3] هنري بستالوتزى العالم الدوسري ولد في مدينة زوريخ (١٧٤٦– ١٨٢٦).

[4] جون فردريك هربارت الألماني، أستاذ الفلسفة في كونكسبرج وصاحب النظريات التربوية المشهورة (١٧٧٤– ١٨٥١م).

مرتبط بعضها ببعض، تلك النظرية التي فرقت في تاريخ التربية بين علم النفس القديم، وعلم النفس الحديث.

وفي ذلك يقول إخوان الصفا: ثم إن هناك خمس قوى أخرى هن كالشركاء المتعاونات مع النفس، ثلاثة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الندماء إلى الملك تطلع على سره وتحضر مجلسه، وهي: المخيلة، والمفكرة، والحافظة، وهناك واحدة كالحاجب والترجمان، وهي القوة الناطقة، وخامسة بمثابة الوزير وهي القوة الصانعة، التي بها تظهر النفس الكتابة، والصنائع أجمع.

أما كيف تعمل هذه القوى، فذلك أن الحواس تنقل المحسوسات إلى المخيلة فتنطبع فيها، فإذا غابت المحسوسات عن الحواس بقيت تلك الرسوم مصورة في النفس، ثم تؤديها كلها إلى المفكرة؛ حتى تميز بعضها من بعض، وتبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة؛ لتحفظها إلى وقت الحاجة والتذكر، ثم إذا أرادت الناطقة التعبير، هيأت من الألفاظ ما يعبر عن تلك المعاني، ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل، وجدت الكتابة لتقييد تلك الألفاظ، وكانت مهمة القوة الصانعة أن تصوغ لها من الخطوط والأشكال ما يحفظها للأجيال المقبلة(١).

وكان إخوان الصفاء يرون أنه لابد من وصول المعلومات عن طريق حاستين من الحواس على الأقل، ولا يكفي في ذلك حاسة واحدة حتى يستطيع الفكر أن يحكم حكمًا صحيحًا، بل كلما كثرت الوسائل الحسية

---

(١) ج ٢ ص- ٣٥٠- ٣٠١، ج ٣ ص ١٧- ١٨.

التي تدخل بها المعلومات إلى العقل، ووازن الفكر بينها، حكمه صوابًا أو قريبًا من الصواب، فيقولون مثلًا عن القوة الفكرة: وهي بين الحواس والمخيلة بمثابة القاضي بين الخصماء ودعاويهم، لا تحكم بالخطأ أو بالصواب على ما يصل إليها، إلا بعد أن يشهد شاهدان من الحواس، أو نتائج مقدمات جزئية من البدهيات"[١].

ويقولون في موضع آخر:

"من الواجب طلب العلوم من ثلاث طرق، فأحد الطرق التي تنال منها النفس العلوم قوة الفكر، الذي به تدرك النفس الموجودات المعقولات، والطريق الآخر السمع الذي تقبل به النفس معاني اللغات، وما تدل عليه الأصوات، والآخر طريق النظر الذي به تشاهد النفوس الموجودات الحاضرة".

وإذا اقتصر المتعلم على طريق واحد "فمثله كمثل المريض الذي ليس له من ما له حظ إلا الثلث، لأن المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات[٢].

وذكر إخوان الصفا أن الحواس لا تحمل إلا الوسط من الأشياء، فالضوء الباهر، والظلمة القائمة كلام يعشى العيون فتعجز عن الأبصار، كم تعجز الأذن عن سماع الأصوات الشديدة جدًا، والأصوات الخفية[٣].

---

[١] رسائل جـ ٣ ص ٣٩٤.

[٢] جـ ٣ ص ٣٢- ٣٣.

[٣] جـ ٣ ص ٤١.

ويقولون أيضا: "إن كل حاسة من الحواس الخمس تحتاج في أدراك محسوساتها إلى شرائط معدودة، لا زائدة ولا ناقصة، في عدم واحدة من تلك الشرائط أو بعض، زاد أو نقص على المقدار الذي ينبغي، عوقها عن إدراك محسوساتها على حقائقها.

مثال ذلك القوة الباصرة فإنها تحتاج في إدراكها المبصرات إلى ضوء ما، وإلى بعد ما، وإلى محاذاة ما، وإلى وضع ما، في عدم شيء منها عاقها ذلك عن إدراك المبصرات بحقائقها"[١].

وهذا ولا شك مفيد في وضع السبورة وحسن الضوء في المكان الدراسي إلى غير ذلك من الأمور التي تمكن التلاميذ من الرؤية الواضحة، وكذلك في السمع من وقفة المدرس في أثناء الأملاء، أو حين قراءته، وما شاكل هذا. ويقول إخوان الصفاء بالتدرج في إعطاء المعلومات؛ لأن هذا يتماشى مع نمو الطفل، ويقدمون هذا الرأي بحال الطفل الجسمية والعقلية، وكيف ولد لا يدرك شيئًا، ثم أخذت حواسه تنبه أول شيء فيه، ثم ابتدأ يفهم معاني الكلام والأصوات، ويميز بينها، ثم يميز على ممر الأوقات بين نغمة الأم، ونغمة الأب وغيرهما، ثم شيئًا بعد شيء على التدريج؛ وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها، ثم تجيء أيام الكتابة والقراءة،والآداب،والعلوم، والمعارف، وطلب حقائق الموجودات، والبحث عن الكائنات، والاستدلال بالحاضرات على الغائبات، والمحسوسات على المعقولات، وبالجسمانيات على الروحانيات وبالرياضيات على الطبيعيات،

---

[١] ج ٣ ص ٣٨٠.

وبالطبيعيات على الآلهيات[1].

ويطلبون استعمال القوة المفكرة في الروية، والتميز، والتصور، والاعتبار والتركيب، والتحليل، والجمع والقياس البرهاني، ويطلبون ألا يكتفي الإنسان بقبول الأشياء على علاتها ولاسيما الأخبار، بل لا يصح أن يحكم على صحتها أو بطلانها إلا بعد الحجة والبرهان على تحقيقها أو بطلانها، كما يفعل المهندسون والمنطقيون[2]. ونرى إخوان الصفاء يعظمون من شأن العقل، ويتخذونه حكمًا بينهم في كل خلاف، بل يتخذونه رئيسًا مطاعًا يجب الخضوع لأوامره وشروطه، ويقولون في ذلك: "ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا والحكم بيننا العقل، الذي جعله الله تعالى رئيسًا على الفضلاء من خلقه، الذين هم تحت الأمر والنهي، ورضينا بموجبات قضاياه، على الشرائط التي ذكرناها في رسائلنا، وأوصينا بها إخواننا، فمن لم يرض بشرائط العقل، وموجبات قضاياه، ولم يقبل تلك الشرائط التي أوصينا بها إخواننا، أو خرج عنها بعد الدخول فيها، فعقوبته في ذلك أن نخرج من صداقته، ونتبرأ من ولايته، ولا نستعين به في أمورنا، ولا نعاشره في معاملتنا، ولا نكلمه في علومنا، ونطوي دونه أسرارنا، ونوصي بمجانبته إخواننا[3]".

وهم بهذا يبرهنون على أنهم ليسوا من أهل التقليد، الذين تعمى أبصارهم وبصائرهم محبة العادات التي ألفوها، والتعاليم التي ورثوها، ولكن

---

[1] ج ٣ ص ٢٨٥.
[2] ج ٣ ص ٣٩٠.
[3] ج٤ ص ١٨١.

يدعون في شدة وعنف إلى تحكيم العقل، والتسليم بما يصل إليه من نتائج، وهذا لعمري، هو الغاية من التربية الحقة، وقد عللوا هذا الاهتمام بالعقل، وربطوا بين دعوتهم هذه، وبين التربية العملية، فقالوا: "وأعلم يا أخي، بأن خير مناقب الإنسان العقل، وأفضل خصاله العلم، ولكل شيء منها خاصية، وخاصية العقل صحة التمييز، ومعرفة الحقائق، والسيرة العادلة، وحسن الاختيار، فانظر الآن إن كنت عاقلًا، واختر من الأمور أفضلها، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال خيرها، ومن المراتب أشرفها، ومن المنافع أعمَّها وأدومها"[1].

التربية الخلفية: يرى إخوان الصفا إن الإنسان من حيث هو إنسان مستعد القبول جميع الصفات، والتشكل بأي نوع من الخلق، وقد سموا هذا الإنسان (الإنسان المطلق الكلي)، أما الإنسان الجزئي، أو أفراد الإنسان فيختلفون في أخلاقهم تبعًا لعوامل كثيرة[2].

فالتباين في الخلق قد يكون نتيجة التباين في الأجسام، وما هي عليه من صحة ومرض، وضعف وقوة، وأمزجة متعددة متفاوتة، وقد يكون نتيجة اختلاف البيئة الطبيعية التي نشأ فيها الإنسان فاختلاف التربية، والمواء له أثره في الأخلاق، وقد يكون نتيجة النشأة، والتعليم، وأثر المعلم والأستاذ ومن يقوم بالتربية والتأديب. ويصف إخوان الصفا سببًا رابعًا لاختلاف، وهو أثر الطالع أو أحكام النجوم؛ لأنهم كانوا

---

(1) ج ١ ص ٣٠٦..

(2) ج ١ ص ٢٣٥.

يعتقدون في تأثيرها في هذه الكرة الأرضية تأثيرًا عظميًا[1].

وقد أفاض إخوان الصفاء في شرح كل سبب من هذه الأسباب الأربعة، وضربوا لذلك أمثلة كثيرة، ولهم في ذلك التفاتات طيبة، وأراء نيرة تدل على عظيم التجربة، ونفاذ التفكير. ونحن يعنينا من هذه الأسباب كلامهم عن النشأة، وأثر البيئة التعليمية في الإنسان.

يرى إخوان الصفاء أن الفضيلة بنت العادة؛ لأن المداومة على خلق ما تجعله طبيعة ثانية في الإنسان يسهل عليه أداؤه، والقيام به دون تفكير أو روية، وهذه هي الغاية من التربية الخلقية عندهم "فمتى كان الإنسان مطبوعًا على الشجاعة، فإنه يسهل عليه الإقدام على الأمور المخوفة من غير فكر، ولا روية، وهكذا مني كان مطبوعًا على السخاء يسهل عليه بذل العطية من غير فكر ولا روية، وهكذا مني كان مطبوعًا على العفة سهل عليه اجتناب المحظورات والمحرمات من غير فكر ولا روية، ومن كان مطبوعًا على الاعتدال أسهل عليه الحكومة في الخصومات، والعدل والثقة في المعاملات، وعلى هذا المثال والقياس سائر الأخلاق والسجايا المطبوعة في الجبلة، إنما جعلت لكيماء يسهل على النفس إظهار أفعالها، وعلومها، وصنائعها، وسياساتها، وتدبيرها بلا فكر ولا روية"[2].

وأما من اعتاد ضد هذه الخصال حي صارت له طبيعة ثانية، فإنه إذا أراد أن يقدم على عمل يحتاج إلى شجاعة مثلًا وجد في ذلك حرجًا

---

[1] ج ١ ص ٢٢٩.

[2] ج ١ ص ٢٣٥.

شديدًا، وتكاف تكافًا عظيم، بل هو لا يقدم عليه إلا بعد وعد ووعيد، وأمر،ونهي،وترغيب، وترهيب، وهكذا في سائر الصفات الفاضلة.

ويقول إخوان الصفاء في هذا: "وأعلم أن من الأمور ماهي جبلة مركوزة في النفس، ومنها ما هو عادة جارية، وألفة معتادة، إذا دام عليها الإنسان صارت جبلة وطبيعية ثابتة، وهكذا حكم الخلق السوء والسيرة الجائرة بعضها جبلة، وبعضها عادة جارية، وهي التي نشأ عليها الصبيان من الصغر يتربون من الصبا عليها، أو يأخذها الطفل ممن يصحبه، ويتربى معه من الآباء والأمهات والأخوات والجيران، والمعلمين والأستاذين"[١].

ومادام للبيئة هذا التأثير العظيم، ومادام للعادة هذا السلطان على تصرفات المرء في حياته المستقبلة، فلابد من الحيطة والحذر، ولابد من اتخاذ القدوة الطبية، وتهيئة البيئة الحسنة التي ينشأ فيها الطفل، واستمع لإخوان الصفاء يقررون أثر القدوة والبيئة في أخلاق الإنسان.

"وأعلم بأن العادات الجارية، بالمداومة فيها تقوي الأخلاق المشاكلة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها، والدرس لها، والمذاكرة فيها يقوي الحذق بها، والرسوخ فيها، وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدؤوب فيها يقوي الحذق والأستاذية فيها، وهكذا جميع الأخلاق والسجايا. والمثال في ذلك أن كثيرًا من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم، وهكذا أيضًا كثير من الصبيان إذا نشأوا مع النساء

---

[١] ج ٤ ص ٦٧.

والمخانيث، والمعيوبين، وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم، إن لم يكن في كل الخلق ففي بعض الخلق.

وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والسجايا، التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر، إما بأخلاق الآباء والأمهات، أو الأخوة والأخوات، والأتراب،والأصدقاء، والمعلمين والأستاذين المخالطين لهم في تصاريف أحوالهم"[1].

وإذا كان للقدوة، وللأشخاص الذين ينشأ الطفل بينهم هذا التأثير العظيم على أخلاقه، فالآراء، والمعتقدات، والأفكار، التي يلقها الطفل منذ حداثته ويؤمن بها، لها كذلك أثر كبير في تشكيل أخلاق المرء، وفي تصرفاته العملية ومادام الأمر بهذه الأهمية، فالواجب أن يُجنب الطفل الآراء والمذاهب، التي يكون فيها التعصب والجدال والخصومات، وفي كل هذا يقول إخوان الصفا: "وأما الذي تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده فهو الذي إذا اعتقد رأيًا، أو ذهب مذهبًا، وتصوره، صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده؛ لأنه يصرف أكثر همه، وعنايته إلى نصرة مذهبه، وتحقيق اعتقاده في جميع تصرفاته فيصير ذلك خلقًا له وسجية، وعادة يصعب إقلاعه عنها، وتركه لها[2].

وإذا كان الفيلسوف الألماني الشهير كانت Kant ١٧١٤-١٨٠٤ م بنى فلسفته الأخلاقية على رأيه المعروف (وهو أن الخير يجب أن يعمل

[1] ج ١ ص ٢٣٦.

[2] ج ١ ص ٢٣٧.

لذاته، ولن يكون خير إلا إذا كان الباعث عليه نية خيرة)[١].

والخير الذي يعمل لذاته هو الذي لا يطلب صاحبه عليه مكافأة ما، أو يفعله خشية من شيء ما، وإنما يعمله، لأنه يعتقد أنه خير؛ فإخوان الصفاء قد سبقوا إلى هذه الفكرة العظيمة، وجعلوها غاية في التربية الخلقية، وذكروها في عبارة صريحة واضحة، وذلك حيث يقولون: "وسبيلك أن تعود نفسك عمل الخير، لأنه خير، لا تريد بفعلك عوضًا، ولا يحملك على فعله خوف، فمتى فعلت اطلب المكافأة لم يكن خيرًا، وإن لم تطلب مكافأة، وإنما أردت الذكر والاسم، كنت أيضًا منافقًا، ولم يكن خيرًا، والمنافق لا يستأهل أن يكون في جوار الروحانيين[٢]".

لقد خلد "كانت" لفلسفته الأخلاقية تلك، التي أحدثت ثورة في الفلسفة الأوربية، مع أن ما قاله لا يخرج عما قاله إخوان الصفاء، وإن امتاز كانت بحسن العرض، والتدليل، والتحليل، والإسهاب في النتائج والاستنباط.

إن هذا الرأي الذي ذكره إخوان الصفاء لو طبق وساد في مجتمع ما كان لهذا المجتمع نموذجًا بشريًا كاملًا، وهيهات! فمن منا يفعل الخير لذاته دون نظر إلى فائدته هو، وسعادته هو؟! إن الكذب شر ولا شك، وقد يكون في الكذب نجاة شخص ما من كارثة، فهل يؤثر فعل الخير لذاته على نجاته؟ لاريب أنه إن جاز أن يكذب الإنسان في مثل هذه الحال، فلا يصح

---

(١) Sidgwick History of Ethics p. 262

(٢) جـ ٤ ص ٢٩٨.

أبدًا أن يجعل الكذب وإباحته قانونًا عامًا يسري في كل حالة، ويطبق على كل الناس.

إن إخوان الصفاء يرون كما يرى "كانت" أن الخير المحض هو السعادة وليست سعادة الفرد وهناءته هي ما يجب أن يسعى إليه، بل الخير المحض هو ما يجب أن يسعى إليه الإنسان سواء صحبه ألم أو لذة، وسواء نال الفرد من جرائه نفعًا أو ضرًا.

ويقول إخوان الصفاء في هذا: "إن كل شيء يراد فهو من أجل الخير، والخير يراد من أجل ذاته، والخير المحض هو السعادة، والسعادة تراد لنفسها، لا لشيءٍ آخر"[1].

ويذهب إخوان الصفاء مذهب أرسطو في الفضيلة وهي أنها وسط بين طرفين كلاهما رذيلة، فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والكلام وسط بين الإسراف والبخل؛ ولكي يدرك الإنسان هذا الوسط، أو يتعود طريق الفضيلة يجب أن يعرف الغاية من العمل، والوقت الملائم، والمقدار الملائم... إلخ.

هذه النظرية المعروفة عند أرسطو[2].

وفي شرح هذا يقول إخوان الصفا: "وأعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروحٍ منه، بأن الطبيعة خادمة للنفس (ويقصدون بالطبيعة الحالة الجسمية) ومقدمة لها، وأن التنفس خادمة للعقل، ومقدمة له، وأن العقل خادم

(1) Sidgwick History of Ethics p. 260.

(2) Aristotle's Ethics p. 34.

للناموس ومقدمة له، وذلك أن الطبيعة إذا أصلت خلقًا، وركزته في الجملة جاءت النفس بالاختيار فأظهرته وبينته، ثم جاء العقل بالفكر والروية فتممه، وكمله، ثم جاء الناموس بالأمر والنهي فسواه وقومه وعدله، وذلك أنه متى ظهرت من الطبيعة هذه الشهوات المركوزة في الجبلة، وكانت على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، من أجل ما ينبغي سميت خيرًا، ومتى كانت بخلافه سميت شرًا، ومتى فعل ذلك باختياره وإرادته، على ما ينبغي بمقدار ما ينبغي من أجل ما ينبغي كان صاحبه محمودًا، ومتى كان بخلافه كان مذمومًا، ومتى كان اختياره وإرادته بفكر وروية على ما وصفنا كان صاحبه حكمًا فيلسوفًا فاضلًا، ومتى كان بخلافه سُمي سفيهًا جاهلًا رذلًا، ومتى كان فعله وإرادته، واختياره وفكره ورويته مأمور بها ومنهيًا عنها، وفعل ما ينبغي، كما ينبغي، على ما ينبغي، كان صاحبه مثابة بها، ومجازي عليها، ومن كان بخلاف ما ذكرناه كان مأخوذًا بها ومعاقب عليها. فقد تبين ما ذكرنا أن الشهوات المذكورة في الجبلة، والأخلاق الناشئة والأفعال التابعة لها، وجميع المتصرفات من أجلها، هي لأن تبقى النفوس على أفضل حالاتها، ويبلغ كل نوع منها إلى أقصى مدى غاياتها"[(١)].

وذلك كما يعتقد إخوان الصفاء منتهى السعادة؛ لأنهم يقسمون السعادة نوعين دنيوية وأخروية.

فالدنيوية "هي أن يبقى كل موجود أطول ما يمكن على أفضل حالاته وأتم غاياته، والسعادة الأخروية أن تبقى كل نفس إلى أبد الآبدين على

---

(١) جـ ١ ٣٤٧.

أفضل حالاتها وأتم غاياتها[١]".

هذه بعض آراء إخوان الصفا التربوية، وقد رأينا في الفصل السابق حين الكلام على نظريتهم في النفس الإنسانية، أنهم رتبوا على آرائهم في النفس، نتائج خلقية، لا نرى داعيًا لتكرارها هنا، وحسبنا هذا القدر، ليوضح ما كانوا عليه من نظرات نافذة، وإفادة تامة من تجاربهم في الحياة، ومن آراء الفلاسفة السابقين.

---

[١] جـ ١ ص ٣٤٦.

الفهرس